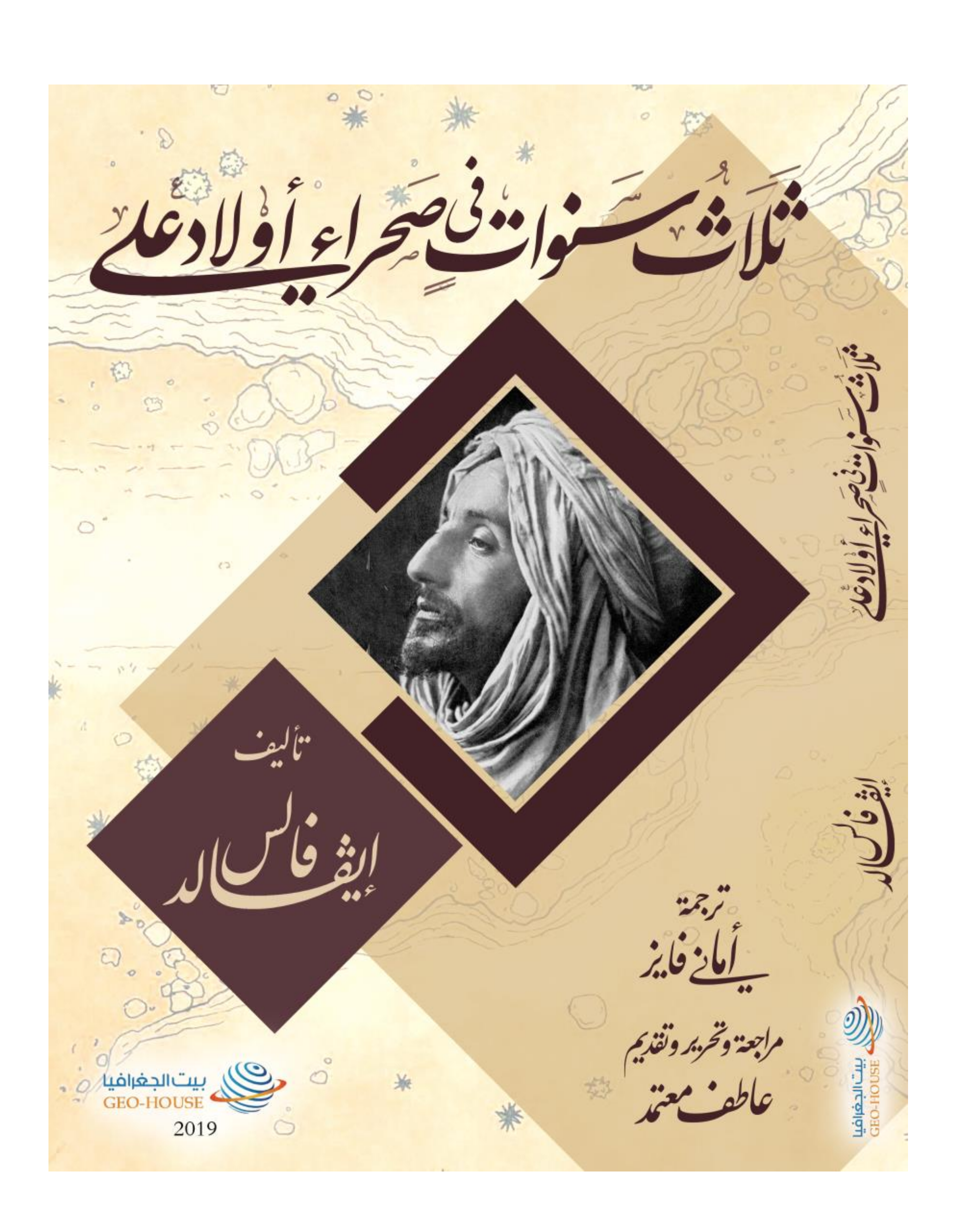

ثلاث سنوات في صحراء أولاد علي
تأليف
إيفالد فالس
ترجمة
أماني فايز
مراجعة وتحرير وتقديم
عاطف معتمد
بيت الجغرافيا
GEO-HOUSE
2019

"بيت الجغرافيا"

ثلاث سنوات في صحراء أولاد علي

تأليف

إيفالد فالس

ترجمة

أماني فايز

مراجعة وتحرير وتقديم

عاطف معتمد

هذه ترجمة كتاب:

Three Years in the Libyan Desert, Travels, Discoveries and Excavations of the Menas Expedition [Kaufmann Expedition]

by

J. C. Ewald Falls

1913

London

"English translation first published, 1913."
Translation of
Drei Jahre in der Libyschen Wüste.

ثلاث سنوات في صحراء أولاد علي

<u>من إصدارات بيت الجغرافيا</u>

العنوان: ثلاث سنوات في صحراء أولاد علي

تأليف: إيفالد فالس

رقم الإيداع: 13880/2017

الطبعة: الأولى 2019

"**بيت الجغرافيا**" موقع بحثي غير هادف إلى الربح يعنى بالبحث والترجمة، أسسه عاطف معتمد في القاهرة في ٢٠١٦.

الموقع على الويب geo-house.info

المحتويات

مقدمة الترجمة

هذا الكتاب هو رواية جانبية مشوقة لحدث استكشافي قام به عالم الآثار الألماني كوفمن الفرانكفورتي حين كان ينقب في موقع تاريخي يعود لبدايات العصر المسيحي في مصر في شمال صحراء مصر الغربية غربي الإسكندرية. اصطحب كوفمن معه مؤلف كتابنا هذا ابن عمه إيفالد فالس الذي لن نجد له دورا ملموسا في الكشف الأثري لكنه سيروي لنا في المقابل القصة التي رافقت ذلك الحدث.

لو كان الكتاب من تأليف كوفمن لقرأنا تفاصيل عن الآثار في مقابل معلومات هامشية عن المنطقة وسكانها، لكن مؤلف كتابنا هذا فعل العكس: حدثنا قليلا عن الآثار وأسهب، في المقابل، في عرض المكان وأهله، سيما قبائل أولاد علي. ومن هنا تنبع أهمية الكتاب الذي يعد شهادة على تفاعل البيئة والإنسان في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

النسخة التي ترجمناها إلى العربية مأخوذة عن الطبعة الإنجليزية وليس عن الأصل الألماني. الكتاب الذي يحمل عنوانه الأصلي "ثلاث سنوات في صحراء ليبيا" يقع فيما يربو عن ٣٥٠ صفحة ومطعم بعدد من الصور الفوتوغرافية النادرة والرسومات التوضيحية المهمة.

الكتاب مدون بطريقة سلسلة رشيقة تخاطب القارئ العام بعيدا عن المصطلحات الصعبة أو الأكاديمية الجافة. صحيح أن للمترجمة الفضل في شعورنا بذلك لما بذلت من جهد ودأب، لكن الكتاب حقا متسلسل الخطى متتابع الحلقات. في مواضع بعينها يسهب المؤلف في تفاصيل يمكن أن نتجاوزها (وقد سمحت لنفسي بذلك في أعمال التحرير وأعملت قلم التخفف من التفاصيل الثانوية كثيرا) وفي أحيان أخرى يعطي إشارات وامضة مختزلة ومجتزأة، لكن هذا لا يعيب مجمل الكتاب.

يمكن إيجاز قصة هذا الكتاب في المحطات التالية:

يصل الإسكندرية مستكشفان ألمانيان بحثا عن مدينة مسيحية أثرية كتب عنها من قبل رحالة سابقون وحددوا موقعها بشكل تقريبي في إقليم مريوط.

يقابل المستكشفان أجواء سياسية تغير من خطط عملهم في التنقيب الأثري. وهذه الأجواء هي مرآة لمطلع القرن العشرين الذي كانت مصر فيه في مرحلة حرجة من تاريخها الحديث. يعاصر هذه المرحلة حكم الخديوي عباس حلمي الثاني الذي يحاول الفكاك من تدخل اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر وكيل الاحتلال البريطاني للأراضي المصرية منذ عام ١٨٨٢.

وخط سير هذه الرحلة بسيط للغاية يبدأ من منطقة المكس غرب الإسكندرية مرورا بالعامرية وإقليم مريوط الشرقي. وقبل الوصول إلى موقع مدينة ميناس (القديس مينا) يقوم المستشكفان بزيارة دينية وجغرافية للأديرة المسيحية في وادي النطرون، ثم يتجهان إلى مريوط مجددا وهناك يعثران على أطلال المدينة التي يبحثان عنها.

والبطل الرئيس في هذا الكشف هم بدو أولاد علي. لا يُنكر المؤلف ذلك، بل كان الإلهام البدوي مؤثرا ليس فقط في الوصول إلى المكتشفات الأثرية للمدينة التي تقع غير بعيد عن برج العرب والحمام(*) في مريوط بل في تخصيص أكثر من نصف هذا الكتاب للحديث عنهم وعن أحوالهم الاجتماعية والثقافية والدينية.

خلال أعمال التنقيب الأثري في مدينة ميناس قرب بهيج يتلقى المستكشفان دعوة رسمية لمرافقة الخديوي عباس حلمي الثاني في رحلة إلى سيوة ضمن ضيوف

(*) أقرب طريق يصل إلى هذه المنطقة الأثرية اليوم عبر المدينة المنشأة حديثا باسم "برج العرب الجديدة". وتقع أطلال مدينة ميناس إلى الجنوب الشرقي منها. وأقيم فيها لاحقا دير مسيحي كبير يحمل اسم "دير مار مينا العجايبي".

أوروبيين في مصر. ستضيف هذه الرحلة إلى الكتاب معلومات أخرى توسع من دائرة الرؤية لتتسع خريطة الكتاب وتصل إلى واحة سيوة وتمر بكل إقليم مرمريكا.

وبشكل غير مباشر نتعرف في سياق هذه الرحلة على شخصيات علمية وسياسية وثقافية مهمة في مصر مطلع القرن العشرين وفي مقدمتهم الطبيبي الألماني المهتم بالآثار "شيس باشا" والذي كان له الفضل في نجاح الرحلة. كما نتعرف على رئيس تحرير جريدة "ذي إيجبشين جازيت" الذي سيطلق دعوة لاستصلاح أراضي مريوط حول مدينة ميناس التاريخية.

ومن اللافت أن ما توقعه المؤلف وخبراء تلك الفترة الزمنية في العقد الأول من القرن العشرين من امتداد التعمير الزراعي إلى تلك المنطقة قد تحقق بالفعل منذ ستينيات القرن العشرين وانضم أغلب إقليم مريوط إلى المعمور الزراعي والعمراني المصري (وفي هذا سلبيات أخرى إذ سيشهد المستقبل كيف تمكنت المشروعات الزراعية من التهام آثار الفترة اليونانية والرومانية).

يضم هذا الكتاب ما يمكن اعتباره رؤية استشراقية لأحوال المجتمع البدوي وعاداته وسمات الأنثروبولوجيا الثقافية التي تتميز بها مطلع القرن العشرين وبعد تعداد ١٩٠٧ مباشرة.

للكتاب قيمة إضافية في حديثه عن مسارات الطرق والمواصلات في ذلك الزمن، مثل طريق الحج المغربي المار بالإقليم، وحديث المؤلف عن خط السكك الحديدية الذي كان محل التشييد آنئذٍ وكان يُنتظر إكماله إلى مطروح. المدهش أن المؤلف توقع عدم وصول الخط الحديدي إلى السلوم وهي نبوءة ما تزال سارية إلى اليوم.

يعرفنا الكتاب أيضا على ملامح طبوغرافية مهددة اليوم بالاندثار مع المدينة الحديثة بل إن بعضها دُمر بالفعل ولم يعد له أثر أو مكان على الخريطة مثل آثار منطقة العُمِّيد(*) والآبار والصهاريج المنتمية للعصرين اليوناني والرومانية في كل الإقليم.

وعلى الرغم من أن المترجمة الشابة الواعدة قد نقلت الكتاب نقلا أمينا من الغلاف إلى الغلاف إلا أنني قد سمحت لنفسي بإعمال قدر كبير من التحرير كي تستقيم القصة وتصبح مناسبة للتتبع والتعلم في أفضل صورة.

لم يكن بالأصل الإنجليزي الذي نقلنا عنه النسخة العربية أية خرائط، ومن هنا فإن كل الخرائط الواردة في نسختنا هذه هي من إعداد المحرر.

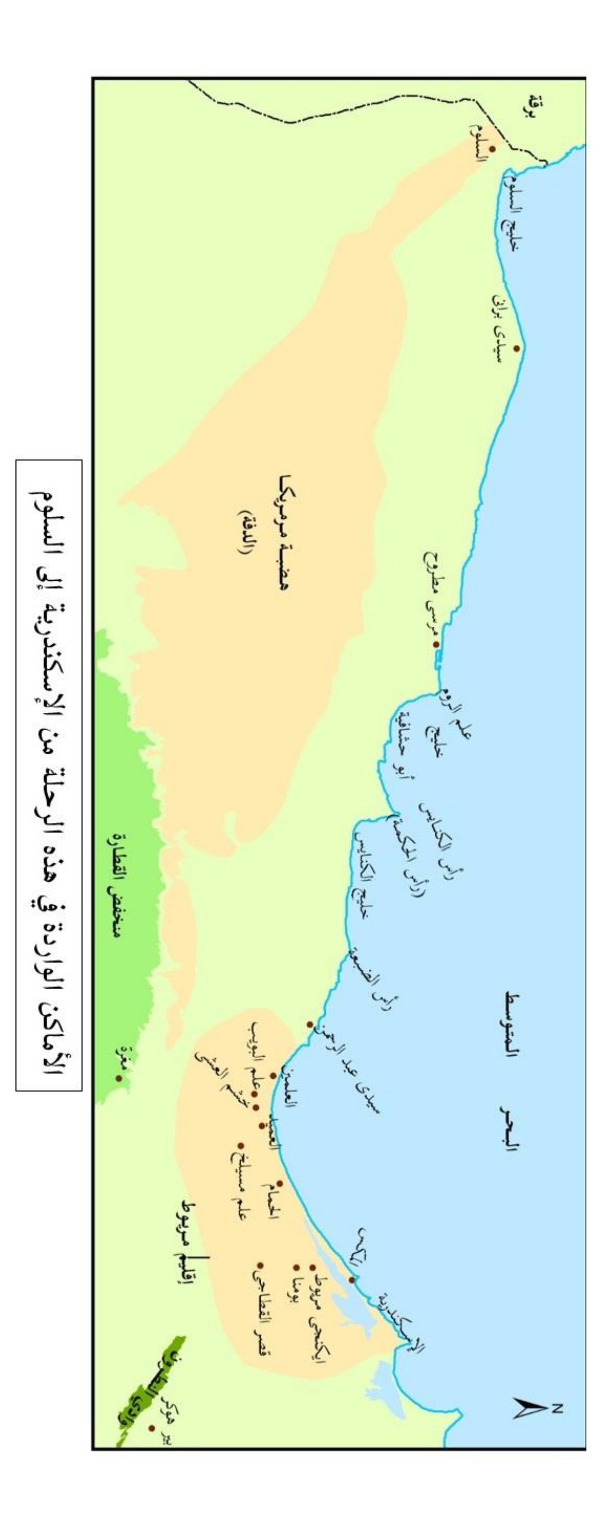
وأرجو أن يكون نشر وطباعة هذا الكتاب ضمن إصدارات"بيت الجغرافيا" خطوة جديدة لوفاء بمسؤولية سد الثغرات الكثيرة في معرفتنا ببلادنا: أرضها وشعوبها. وقد أضفت إليه أربعة خرائط لم تكنت موجودة في الأصل كي تساعد في تتبع أحداث الرحلة، وتجدها عزيزي القاري عقب هذه المقدمة مباشرة.

ونسأل الله القبول ؛

عاطف معتمد عبد الحميد

القاهرة – مارس ٢٠١٩

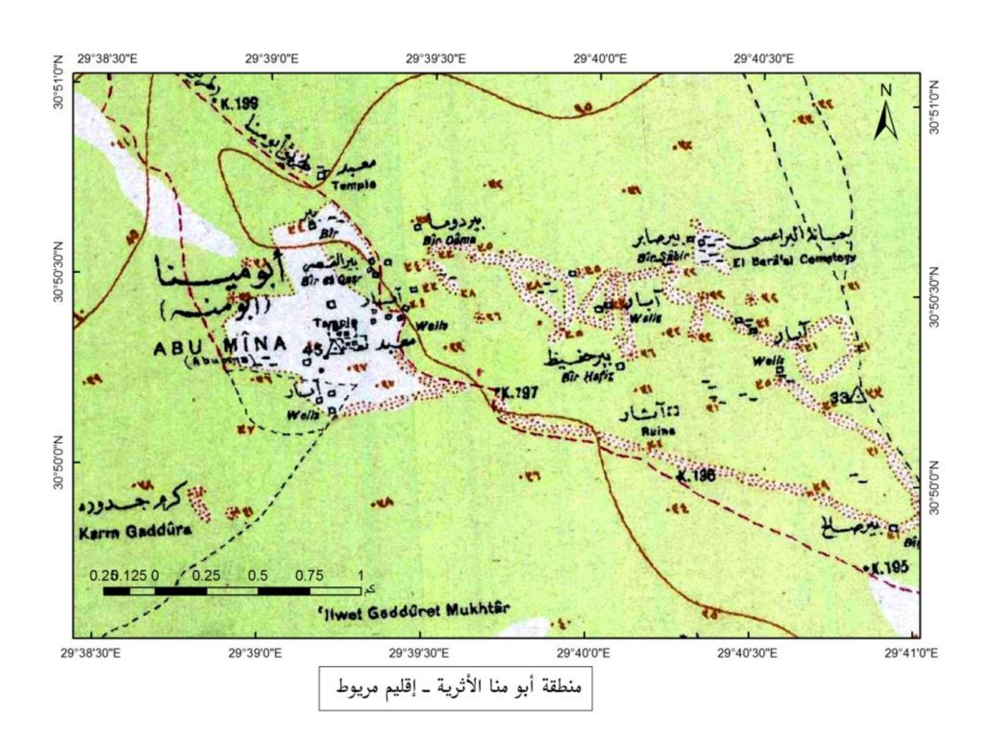
(*) على الأرجح فإن الاسم مشتق من أعمدة المعابد الأثرية (المحرر)



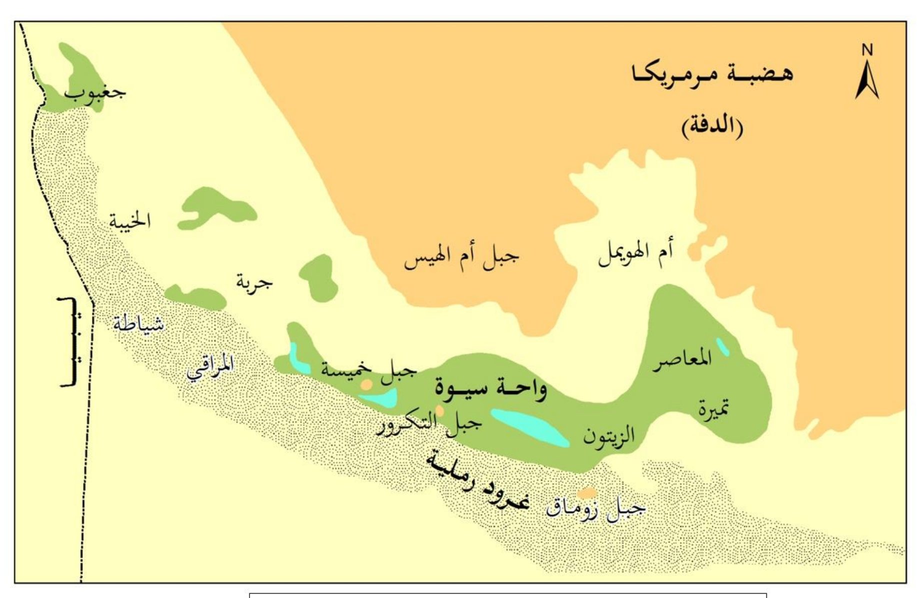
الأماكن الواردة في هذه الرحلة من الإسكندرية إلى السلوم



الوحدات السياسية في مطلع القرن العشرين إبان الرحلة الحالية



منطقة أبو منا الأثرية ـ إقليم مريوط



واحة سيوة – المعالم الأساسية في مطلع القرن العشرين وقت الرحلة

الفصل الأول

آمال محبطة

في عام ١٩٠٣-١٩٠٤ دعاني ابن عمي السيد كارل كوفمن الفرانكفورتي لمرافقته في الرحلة التي يخطط للقيام بها بحثا عن آثار بواكير التاريخ المسيحي في برقة في شمال إفريقيا. استمر التحضير لهذه البعثة نحو عام. كان كوفمن يهدف إلى استكشاف إقليم مدن ليبيا الخمس[1] (البنتابوليس*Pentapolis*) سيرا على خُطى رجال مشهورين مثل: رولفس Rohlfs، وكامبيريو Camperio، وهيمن Haimann، ورفقائهم"، كما كان يهدف إلى اسكتشاف الوديان الواقعة بين الهضبة الساحلية والجنوب، وكنا نسعى أيضا لتقديم دراسة هي الأولى من نوعها عن الطريق الذي تتوفر به كل الأسباب التي تدعم وجود أديرة مسيحية كبيرة شُيدت في مرحلة مبكرة على حدود هذه المنطقة الخصبة، وهو ما أشار إليه بروكوبيوس Procopius، بما يتجاوز ما الأسقفيات التي ذكرها البطريرك ساينيسيوس Synesius".

وعلاوة على ذلك كنا نهدف من الرحلة تقديم معلومات أكثر دقة من تلك التي قدمتها الرحلات السابقة على يد باشو Pacho، وسميث بورتشر Smith-Porcher. وقد أكد على أهمية هذه الرحلة وصدَّق عليها نفر من العلماء مثل البروفيسور جيورج شفاينفورث Schweinfurth كبير المستكشفين الألمان في أفريقيا، والبروفسور فيكتور شولتس Viktor Schultze أستاذ الآثار المسيحية المرموق بجامعة جرايفزوالد، والبروفسور فورتوانجلر Furtwängler من ميونيخ، والبروفسور سترايجوفزكي Strzygovski من فيينا، والبروفسور هارنك Harnack من برلين، والبروفسور كيرش Kirsch من فرايبرج Freiburg، ومونسينيور دي فال Monsignor de Val من

---

[1] البنتابوليس مسمى يوناني يعني "المدن الخمس" (من اليونانية Penta وتعني خمس وPolis وتعني مدينة)، في تلك الفترة من تاريخ العمران الإنساني كانت المدن تقوم بالاتحاد معا في مجمع تجاري أو اقتصادي أو سياسي. وكان يقصد بها في العصر اليوناني ذلك الإقليم الساحلي من ليبيا والذي يضم خمس مدن ساحلية تشغل منطقة سيرينيكا Cyrenaica أو "قورنية" والمعروف في اللغة العربية باسم "برقة". كان إقليم المدن الخمس (برقة أو قورنية) يضم تمثل أهم مراكز الاستقرار والحضارة في شمال إفريقيا وإلى الغرب من الساحل المصري. وهذه المدن الخمس ذكرها محمد رمزي في قاموسه الجغرافي على النحو التالي: (١) بنغازي ؛ (٢) طوقره؛ (٣) طلميثة ؛ (٤) قرناه أو قيرينيا ويسمونها باريتشي أي باريس؛ (٥) درنة. انظر ملحق الخرائط في نهاية الكتاب. (المحرر)

روما، وعالم الآثار كيكول فون سترادونتيز Kekule vonStradonitz والذي كان كوفمن تلميذا له، والبروفسور سوبان Supan من جوته، والجغرافي ريتشارد كيبيرت Richard Kiepert من برلين.

كان أمامنا طريقان لبلوغ برقة:

- الطريق المصري من الأسكندرية عبر مريوط ومرمريكا
- الطريق التركي من طرابلس عبر بنغازي.

قمنا في البداية باختيار الطريق الثاني، إذ بدا مسارا مناسبا في ظل صعوبة الحصول على تصريح السلطان العثماني، غير أنه اتضح أن هذا الاختيار سيجبرنا على السفر متنكرين في ثياب عربية، وبذلك كان يحيق الخطر بحياتنا ويهدد النجاح العلمي للبعثة منذ البداية.

أثناء التحضيرات الأخيرة للرحلة، وبعد فحص الأدوات واختبارها، وحزم الحقائب والأمتعة، حدث ما كان يمكن أن يحول دون مواصلة البعثة، فقد فوجئنا بوفاة والدة كوفمن، ووردت أخبار مؤسفة من القسطنطينية وبنغازي بأنه لن يُصرّح بالتنقيب في برقة تحت أي ظرف، وبلغنا أيضا أنه حتى لو حصلنا على تصريح السلطان العثماني، فإن والي بنغازي، سيعارض بشدة أي محاولة لدخول منطقة "الجبل الأخضر" في برقة، لأن سلامة المسافرين كانت ستعتبر مسؤوليته، وهو لم يكن قادرا على توفير الحماية لهم.



قيامة القديس مينا

حُقة من بواكير الفترة المسيحية بالمتحف البريطاني



محاكمة القديس مينا

حُقة من بواكير الفترة المسيحية في المتحف البريطاني



إعدام القديس مينا

حُقة من بواكير الفترة المسيحية في المتحف البريطاني

هكذا تبين لنا كيف أن الظروف الدبلوماسية السائدة في شمال أفريقيا جعلت كل مستكشف محل اشتباه وموضع اتهام كعميل للدول الأجنبية. وعلاوة على ما سبق جاءت إشارة مباشرة من سفير الإمبراطور الألماني في مصر، فريهير فون روكر يينيش Freiherr von Rücker-Jenisch، أن المواطنين على الجانب الحدودي من طرابلس يشكلون خطرا داهما على حياة المسافرين الأوربيين بسبب تأثير المجتمعات الدينية المحمدية[2] من المتعصبين ضدهم.

كان من الممكن أن نصل إلى بنغازي كمسافرين عاديين ونظل هناك لعدة أسابيع حتى نقوم بتجهيز قافلة بسيطة نتوجه بها إلى هضاب برقة متنكرين باللباس المحلي وأن نتحمل مخاطر ذلك على مسئوليتنا. لكن ضعف لغتنا العربية كان حينها عقبة كبيرة، وقد حاول كوفمن حينها الاعتماد على مساعدة مراكز تبشير الطائفة الفرنسيسكانية، التي وعدت بتقديم حسن الاستقبال والضيافة للمستكشفين، بل ومساعدتهم بكل الطرق الممكنة، وذلك بموجب الخطاب الذي أرسله رئيس الطائفة إلى كل المستوطنات الفرنسيسكانية بطرابلس. هذا الحل، والذي بدا في ذلك الحين منطقيا للغاية، لم يكن الأفضل كما عرفنا لاحقا، إذ لم يحقق المبشرون شيئا في هذه المناطق على مدار السنوات، عدا في الموانئ حيث أسس المالطيون والإيطاليون وغيرهم مراكز أعمالهم الرئيسية. كانت مناطق الظهير الداخلي مغلقة أمامهم. فلو غامر أحد الرجال الشجعان وتخطى الساحل إلى منطقة الجبل الأخضر لواجه عقبات جمة، وستكون أقصى أمانيه ألا تنتهي مغامرته بمقتله، كما حدث منذ عدة سنوات.

---

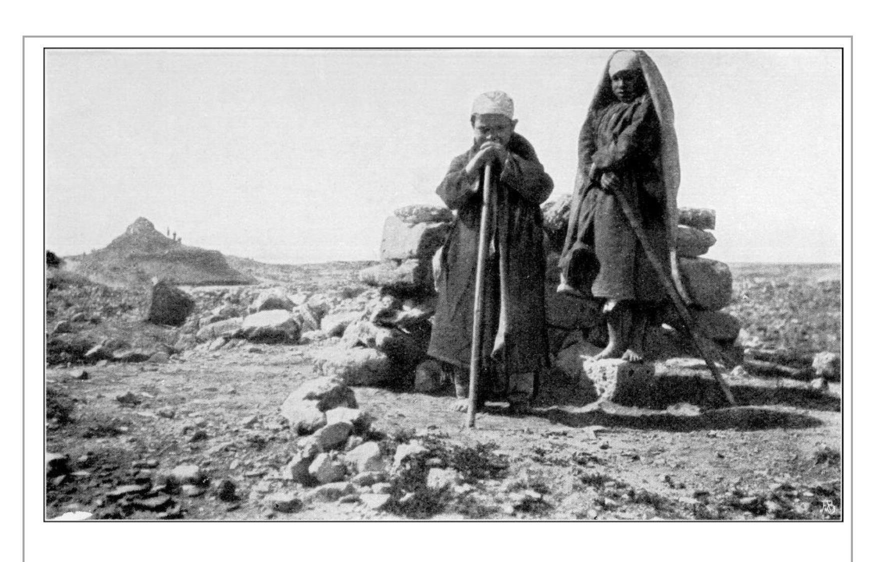
[2] "المحمديون" - على وزن "المسيحيون" - كان هو الاسم الذي يطلقه الأوروبيون على المسلمين حتى مطلع القرن العشرين. (المحرر)

كنا بتونس حيثما استقبلنا بحفاوة القنصل العام هير فون باري Herr von Bary، وكان متاعنا في طريقه إلى طرابلس عندما ظهرت العقبات في بلادنا وفي الخارج، ما خطّ حتما نهاية البعثة إلى برقة. بينما تم فجأة الكشف عن الأطماع السياسية الإيطالية في طرابلس. وبحلول عام ١٩٠٥ أصبح الوضع خطيرا فيما يتعلق بميناء طرابلس. انشغل دبلوماسيو بلاد البحر المتوسط بالمشكلة القديمة الخاصة بتقسيم شمال أفريقيا الخاضع لتركيا - خاصة برقة التي تقع ضمن منطقة النفوذ الإيطالي - أكثر من انشغالهم بالسبب الحقيقي للحرب. كان السبب الحقيقي للحرب هو: لمن ستؤول السيادة على الميناء التركي المُنشأ حديثا في طرابلس البربر[3]. وكانت النتيجة، من خلال هذا الصراع المتقد، أنه منذ أبريل عام ١٩٠٥ تم إبطال كل الخطط: تلك الخاصة بالشركات الفرنسية التي كانت تتولى مسئولية الميناء، والخاصة بمثيلتها الإيطالية، التي كانت تنسب لنفسها كل الحقوق.

ولسوء الحظ كانت نهاية بعثتنا إلى برقة محتمة على يد "الفيلق الطرابلسي Difesa della Tripolitania" الإيطالي. امتلأت بالجواسيس موانئ الشمال الأفريقي التركي في كل من درنا وبنغازي وطرابلس، أولئك الجواسيس الذين اعتبروا أي زائر أجنبي أو مبعوث علمي عميلا للأعداء، ووضعوا كل المسافرين على البواخر من تونس أو مالطة تحت المراقبة. أكدت النصائح القنصلية ومن معارفنا الخاصة كل ما سمعنا بالقيروان وصفاقس.

---

[3] يقصد المؤلف طرابلس الغرب، وهي حاضرة ليبيا وأكبر مدنها. وتقع في شمال غرب البلاد. أطلق عليها هذا الاسم للتفرقة بينها وبين طرابلس الشام الموجودة في لبنان. وطرابلس هنا هي جزء من "ساحل البربر" وهو الاسم الذي أطلق على منطقة سكن القبائل الأمازيغية (البربرية) في شمال إفريقيا في فترات الصراع العثماني الأوروبي. (المحرر)



كرم أبو مينا - صبية من رعاة الغنم يلقون نظرة على موقع التنقيب

وبناء على ذلك أغلقت أمامنا أرض العجائب التي، وفقا لما ذكره بليني[4]، عاش فيها حيوان البازيليسك Basilisk[5]، وترعرع في روضاتها نبات السيلفيوم Silphium[6]، وهو أكثر النباتات الطبية غموضا في العالم القديم، وما زال ينمو بشكل مبعثر على هذه الأرض إلى الآن، ويُسمى هذا النبات "قطر الندى"، وأطلق عليه القدماء اسم "دموع برقة".

من حسن الحظ احتفظ كوفمن بخطة بديلة. فاقترحنا - في حال فشلت البعثة إلى برقة - المرور عبر برقة إلى الأراضي المصرية، والبدء في التفتيش عن الدير المفقود

---

[4] بليني الأكبر Gaius Plinius Secundus (٢٣ ميلاديا- ٧٩ميلاديا) كاتب روماني وعالم طبيعة وفيلسوف طبيعي وروائي وقائد بالإمبراطورية الرومانية المبكرة. من أشهر أعماله "تاريخ الطبيعة" وهو عمل ذو طابع موسوعي (المترجم).

(5) من الزواحف الأسطورية، له القدرة على القتل بنظرة واحدة. ذكر بليني الكبير في موسوعة تاريخ الطبيعة بازيليسق برقة بأنه ثعبان صغير لا يتعدى طوله الإثني عشرة إصبع (المترجم).

(6) نبتة كانت تُستخدم دواء في العصور القديمة. كانت العنصر الأساسي لتجارة مدينة برقة بشمال أفريقيا، حتى أن أهم عملاتهم طُبع عليها صورة لهذه النبتة (المترجم).

للقديس مينا في الجزء الشرقي من الصحراء الليبية الشاسعة. وبما أن الدخول إلى منطقة الجبل الأخضر وظهيرها الداخلي كان مغلقا أمامنا، فقد أرسلنا عبر البحر كل متاعنا من طرابلس إلى الأسكندرية، ثم قمنا بزيارة خاطفة إلى ألمانيا، ومنها سافرنا عبر اليونان إلى مصر.

على هذا النحو بدأنا في التفكير لحل الإشكالية الثانية التى تواجه بعثتنا، ألا وهي إعادة اكتشاف مقبرة القديس مينا في الصحراء الليبية والتي دام البحث عنها لفترة طويلة بلا جدوى، والتي تنتمي إلى بواكير الفترة المسيحية.

وما إن أصبحنا على أرض مصرية - تحت حماية إدارة تقوم على أعراف وأسس حديثة لمصر منذ بداية الاحتلال الإنجليزي - فلم تكن العقبات ذات صعوبة بالغة، وقد حالفنا الحظ حينما عثرنا على مدينة الصحراء المقدسة، وهو ما ستكشف عنه صفحات هذا الكتاب.

الفصل الثاني

في الطريق إلى المدينة المفقودة

تحضيرات الرحلة

وصلنا إلى باتراس Patras ثم تقدمنا نحو أثينا عن طريق نياكورينث -Nea[7] Korinth والقناة التي تمتد خلال أكثر المناظر الطبيعية جمالا باليونان. لم يكن لدينا سوى أربعة أيام نقضيها بأثينا لمشاهدة المعابد المذهلة والكنائس الرائعة، ولزيارة المتاحف والجامعة. كان هناك احتفال شعبي في حي ليكابيتوس Lykabettos في أثينا وذلك يوم عيد سان جورج، وقبل رحيلنا إلى الأسكندرية قمنا بزيارة قبر هاينريك شليمن Heinrich Schliemann[8] مكتشف طروادة وموكناي وتيرنز.

انطلقنا من ميناء بيرايوس Pireas في أثينا على متن سفينة قديمة تحمل أيضا اسم "أثينا" مبحرين نحو الأسكندرية. وعلى الرغم من أنها لم تواجه أية عواصف أو مشاكل فنية، أو عملية إطلاق نار أو تمرد، فقد انحرفت عن مسارها واتجهت براكبيها إلى سواحل آسيا الصغرى بدلا من أن تسلك المسار المحدد المباشر إلى الأسكندرية عن طريق جزيرة كريت. قبل الإبحار أدرك الركاب أن هذا هو الطريق الذي ستسلكه السفينة، وهو ما كان يصب في مصلحة أغلبهم. وبعد سلسلة من المغامرات وصلنا الإسكندرية فدخلنا بين سفن تبدو غابة من الصواري في ميناء إينوستوس Eunostos أي "ميناء العود الحميد" الذي تم توسعته ليكون ميناء خارجيا كبيرا منذ عام ١٨٧١.

للدخول إلى الميناء الداخلي رسونا بالقرب من المخازن ومستودعات الأسلحة. أحاط بسفينتنا "أثينا" أسطول صغير من المراكب يعج بالأجسام الحمقاء المتحفزة[9] لتسلق جوانبها المبتلة للوصول إلينا. كان نفاد صبر المغامرين السود والبنيين والحُمر أسرع من نفاد صبرنا. في النهاية وبعد مرور نصف ساعة من الانتظار، تم خفض شارة العزل

---

[7] كورينث Corinth الحالية وتقع على بُعد ٧٨ كم غرب أثينا (المترجم).

[8] رجل أعمال ألماني ورائد في البحث الأثري (ولد في ١٨٢٢ وتوفي في ١٨٩٠) يُنسب إليه اكتشاف مواقع كل من طروادة وموكناي وتيرنز. دُفن في المقبرة الأولى بأثينا (المترجم).

[9] لا يخلو النص من سخرية من المصريين (المحرر).

الصفراء التي كانت تلوح على ظهر السفينة أثناء زيارة الطبيب وسلطات الميناء، واعتلت القطط البرية سطح السفينة وفرضت سيطرتها على حقائب وأمتعة الركاب.

اختارنا رجل ذو مؤخرة سمينة، وعيون متقدة شريرة، وذقن خفيفة خشنة، يرتدي زيا أبيضا وعمامة حمراء ملفوفة بغير عناية. كان ليسرّ أى رسام أن يرسم هذا الرجل الذي وقف بعيدا دون حراك شبيها بالعملاق الفارسي زركسيس، ولكن من قد يؤمنه على نفسه؟ بينما يعرض الوكلاء والصيارفة وأصحاب الفنادق خدماتهم، أخبرهم هذا العملاق بشكل حاسم، ولغة فرنسية ركيكة، وبدون أى تفويض منا لفعل ذلك: "حجز هؤلاء السادة غرفة في نزل القديس جورج."، ثم نظر إلينا وأي إنكار من جهتنا كان سيُقابل بعاصفة هوجاء. ضحك كوفمن بهدوء وقال لي: "قد يرتكب جريمة من أجل جنيها واحدا!". وبعد ذلك تحرّك الرجل، الذي تأرجح فوق صندوق أمتعتنا بجرأة، وتبعناه إلى هذا النزل اليوناني، إلى نزل القديس جورج Hagio Georgios، الذي يقع بمواجهة "محكمة العدل المختلطة"، تلك التي تفصل في المنازعات بين الأجانب والمحليين، ويعمل فيها بعض أفضل المفكرين الألمان.

بمرور الوقت أصبح هذا الرجل الغريب الذي يُدعى محمد خادما أمينا ملاصقا لنا، وذلك بالاتفاق مع مالك النزل اليوناني حينها والذي اعتاد أخذ النقود منا. وبرغم أننا استخدمناه فقط عند شراء أدوات التنقيب والمؤن. إلا أنه اعتبرنا "أسياده". كان لينتظرنا في محطة السكة الحديد طوال اليوم إذا توقع وصولنا. كان يتقدمنا صارخا في الطرق المتعرجة للأسواق ليفسح لنا الطريق بقبضته القوية. أثار استغراب المواطنين عندما كان يوقف العربات لنا، أو يتفاوض مع البائعين الذين تجرأوا على مطالبة "أسياده" بالأسعار التي يعرضونها على السياح مسببا لنا إحراجا كبيرا. بل صعد محمد هذا على ظهر الباخرة النمساوية التي كانت ستقلنا إلى ديارنا بعد ثلاث سنوات من العمل الجاد، وقد

بدت عيناه المتقدة حزينة في آخر مهمة يقوم بها من أجلنا، وبعدما قام بنقل أمتعتنا إلى الكابينة ارتمى أرضا مفزوعا باكيا حتى غرقت لحيته في الدموع حزنا على وداعنا[*].

وصلت السفينة "أثينا" يوم ١١ مايو، ولكن الحقائب والأمتعة ومعها الأدوات وجزء من معدات الاستكشاف كانت لا تزال في الطريق من طرابلس إلى الأسكندرية. لذا بجانب الزيارات كان لدينا وقت كاف للقيام بدراسة خاطفة عن عاصمة الإسكندر.

في الإسكندرية

لقربها من القاهرة (مدينة الخليفة الفاتنة التي يمكن الوصول إليها في رحلة بالقطار مدتها ثلاث ساعات) صارت مدينة البطالمة القديمة مجرد مدينة عبور. بالتأكيد كان للمدينة قيمة أكبر عند التجار حيث يمر بمينائها قرابة الثلاثة آلاف باخرة سنويا دخولا وخروجا، وكذلك تتزايد باستمرار صادراتها من القطن والفاكهة. انتعشت الحياة في المدينة الجميلة صيفا عندما كان ينقل الخديوي بلاطه إلى رأس التين الواقعة في مواجهة شبه جزيرة فاروس، حيث وقفت المنارة التاريخية المشهورة، وهي إحدى عجائب العالم القديم، شامخة في الهواء، وكانت قمتها أعلى من قمة كاتدرائية كولونيا[10] Cologne Cathedral وكانت المدينة قبلة الوزراء وكبار الموظفين من القاهرة للقيام بالرحلات والنزهات بضاحية الرمل ذات الطبيعة الخضراء المحاطة بالمياه التي تشبه شاطئ إلفسينا Eleusis[11] غير أن رحيل السائحين والأجانب من أراضي النيل منذ فترة طويلة

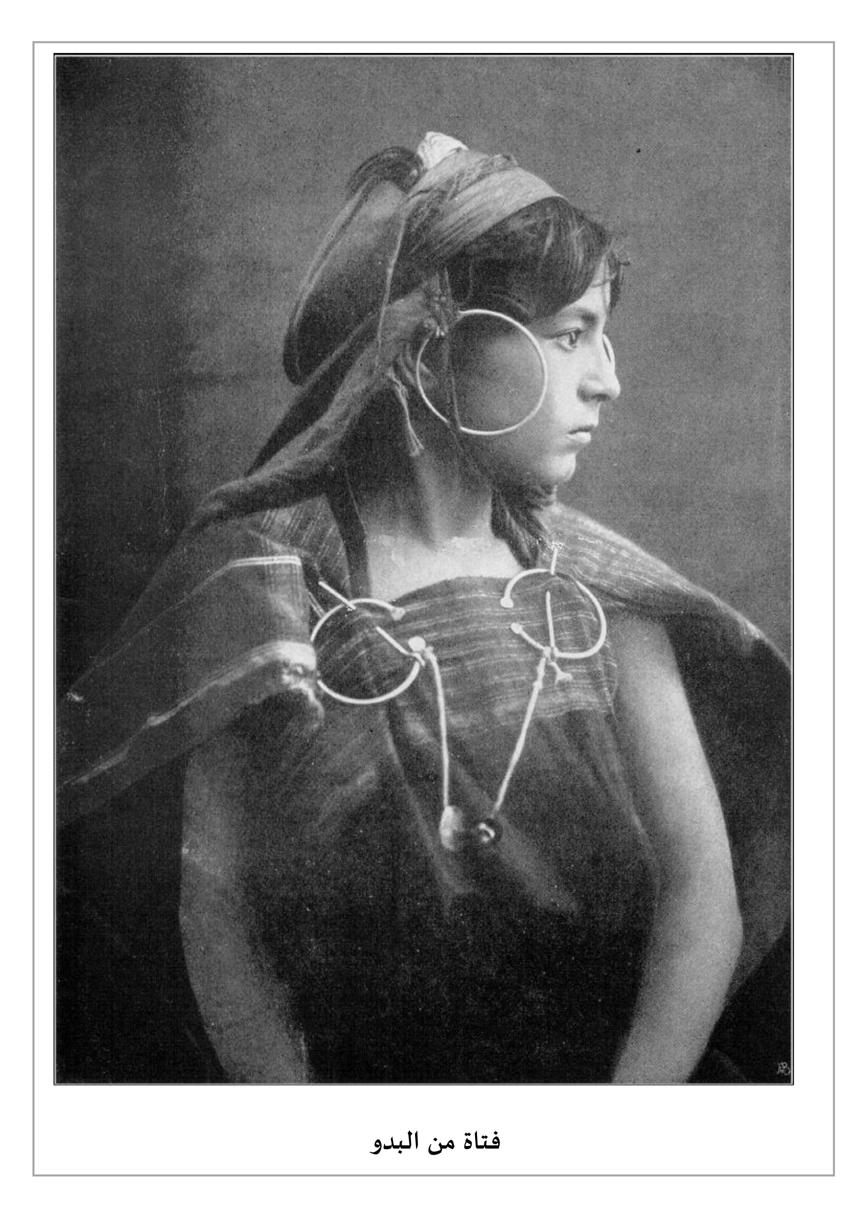
---

[*] خففت في الترجمة من اللهجة الساخرة الاستعلائية التي صور بها المؤلف هذا العامل المصري. (المحرر)

[10] كاتدرائية رومانية كاثوليكية، وهي من أشهر الآثار الموجودة في كولونيا بألمانيا. يبلغ ارتفاع برجيها ١٥٧ مترا. (المترجم)

[11] مدينة تقع على مسافة ٢١ كيلومتر إلى الشمال الشرقي من أثينا على ساحل خليج إلفسينا: أحد تفرعات الخليج الساروني الكبير (المترجم).

كان يمثل خسارة كبيرة لهم. وذلك لأنه موسم النماء في أرض مصر، الذي يمتد من شهر نوفمبر إلى أبريل، تفيض أرض القدماء بجمالها، وحتى الخريف، عندما تتلألأ أحواض القطن الكبيرة بجانب النخيل، منظر له سحره الخاص، وهو ما لا تُقدر قيمته.



فتاة من البدو

وفيما يخص تعداد السكان والامتداد، فإن الأسكندرية تستعيد عصرها الذهبي تدريجيا عندما يأتي شهر أغسطس، ويبلغ عدد سكانها نصف المليون. ومثلما كان الحال في فاروس القديمة، فإن الآثار التي نجت من الزلازل والعواصف البحرية وظهر جمالها في العصور الوسطى، قد اختفت، ولذلك فإن الوقت المتاح لنا الآن سنمضيه في زيارة المعابد والفن المعماري الكلاسيكي للمباني العامة.

فُقدت كل الآثار في چيمنازيوم المدينة الشهير، كما أن الموقع الفعلي للمتحف والمكتبة البطلمية غير معروف بسبب الحريق الذي ذهبت فيه أيضا قُرابة مليون مخطوطة تحتوي علوم الحكمة المكتوبة للعالم القديم. تكثر المنازل والفيلات بين البنايات في مدينة المواطنين الحديثة، ذات الخمسين ألف مواطن ذوي الأصول الإفرنجية من اليونانيين والإيطاليين في المقام الأول. تزيد حركة المرور بموقع "القيصروم" والمسرح المشهور الذي شكل البحر جوانبه، وفي الخلف توجد جزيرة هلالية الشكل. وفي موقع أطلال معبد "السيرابيوم" - الذي شيده البطالمة للمعبود سيرابيس حاكم العالم السفلي – لا يبقى سوى عمود وحيد من الجرانيت الأحمر يقف شامخا، وهو آخر الأطلال التي أعاد تشييدها الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius كعمود انتصار المسيحية Christendom في ذكري تدمير المبني ويسمى "عمود بومبي Pompey"، ويعد هذا العمود - والذي يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠ مترا[*] مع قاعدته الأثرية وتاجه الكورنثي[12] الكبير - أسد المدينة الحديث.

شيّد "شيس باشا" عمودا مشابها أصغر حجما بجانب المستشفى الحكومي، به شكلان لمعبودة مصر القديمة "سخميت"، إلهة الحرب التي تتخذ رأسها شكل رأس الأسد،

---

[*] في الترجمة العربية قمنا بتحويل كل الوحدات الواردة بوحدة القدم إلى وحدة المتر. (المحرر)

[12] مزين بزخرفة "أقنثا" وهي ورقة نباتية مسننة اقتبسها الفنانون على مدى العصور وزخرفوا بشكلها تيجان الأعمدة (المترجم).

في ذكرى الانتصار في أم درمان واحتلال الخرطوم عام ١٨٩٨. وكذلك عمود فيكتوريا، الذي شيده أيضا شيس باشا، يعود مصدر وحيه إلى القصر البطلمي الملكي المجاور الكائن وسط الحدائق الهادئة. ببالغ الكرم اختار إسماعيل باشا مسلتين في حالة جيدة - مصنوعتين من الجرانيت الوردي (يُطلق عليهما خطأً اسم إبرة كليوباترا) أخذهما من معبد الشمس في هليوبليس - وكان قد أحضرهما الإمبراطور ثيوديوس إلى الأسكندرية – وقام بإهدائهما إلى بلاد أجنبية: واحدة إلى لندن والأخرى إلى نيويورك.



شيس باشا يقف بجانب أحد تيجان أعمدة أثرية
القصر الملكي بالأسكندرية

بمرور الوقت أَلِفنا المناطق التى لا يرتادها الأجانب، والأقل لفتًا للأنظار، وفي سياق الزيارات المتكررة حازت الخزانات تحت الأرضية وسراديب الموتى اهتمامنا الخاص. كان أشد ما لفت انتباهنا بهذا الخصوص هو مقبرة الإسكندر، والتي للأسف، لأسباب دينية، ما زال لا يمكن الدخول إليها. مثل كل مقابر البطالمة، فهي تقع تحت مسجد النبي

دانيال، ويُعتقد بوجود سرداب واسع تحت الأرض يؤدي إلى المقبرة الملكية ويمر من تحت المحور الرئيسي للمبني، وهو ما يمكن التعرف عليه من ربوة كوم الدِكة.

أصبحت إمكانية الاستكشاف في هذه المنطقة تؤخذ بعين الاعتبار منذ عهد عالم الآثار "شليمن"، وذلك بفضل مساعدة شيس باشا. قال أحد الحراس السابقين للمسجد وآخرون أنهم رأوا مومياء الإسكندر الذهبية بالمقبرة. انتشرت الإشاعة سريعا، وعندما وصلت إلى توفيق باشا، والد الخديوي الحالي، أمر بإغلاق المقبرة الملكية، وبعد ذلك تم طمسها.

إن وجود ملحق واسع تحت الأرض في المنطقة المجاورة لمسجد النبي دانيال أمر لا شك فيه، وهو ما أكّده لنا مصدر موثوق فيه. ولكن رجال الدين لن يسمحوا أبدا للأوروبيين بالبحث، وسيحتاج الأمر إلى استخدام القوة.

من أفضل القصص التي ذُكرت حتى الآن هي تلك التي كتب عنها البروفسور تيارش Thiersch من فرايبورج Freiburg في مقاله عن مقبرة الإسكندر، والذي ظهر بعد كتابة هذا الفصل. تتحدث القصة عن قيام "شيليتزي Schillizzi" وهو يوناني يبحث عن الآثار القديمة بالدخول إلى آثار مسجد النبي دانيال. توغل في ممر أحد سراديب الموتي حتي وصل إلى باب خشبي متآكل من خلال ممر سري. رأى من خلال الصدع حاوية زجاجية بها جثة رأسها متوجة بتاج مرصّع بأحجار ثمينة، وحوله ترقد مخطوطات يدوية ولفافات من ورق البردي.

من الملفت للنظر أنه كان من المفترض نقل جثمان الإسكندر إلى واحة جوبيتر أمون (سيوة)، ولكنه ظل في المقبرة الملكية في منف، ثم عاد إلى "مدينته" الإسكندرية راقدا في تابوت زجاجي، وفقا للتقاليد القديمة. كان القيصر الروماني أغسطس Augustus من بين الأباطرة الرومان الذين زاروا مقبرته، ووضع تاجا ذهبيا على المومياء،

كما قام الإمبراطور الروماني سيبتيميوس سيفيروس Septimius Severus بوضع كتب مقدسة من المعابد المصرية داخل المقبرة!

من بين المقابر اللادينية التي قد نأتي على ذكرها تلك المقبرة الصخرية اليونانية الواقعة بالقرب من خليج الأنفوشي، ضمن ضيعة الأمير طوسون، وهناك أيضا المقابر اليونانية الرائعة الموجودة بكوم الشقافة، وغرفها التي تتميز بالتصاوير الممتزجة بين الزخارف المصرية وأخرى يونانية رومانية، والتي حالفنا الحظ لدراستها تحت إشراف مستكشفها الحقيقي شيس باشا. إن ما وُجد هناك يُشكل الجزء الأساسي والأهم في متحف الآثار اليونانية الرومانية بالأسكندرية. ولكنه نبذة مختصرة للغاية عما يمكن إيجاده في مدينة البطالمة. رغم الخطأ الفادح بإهمال بلدة كالأسكندرية، يخفف من حدة الأمر جهود رجال أمثال شيس باشا، وبوتي Botti. وقد شغل الأخير منصب المدير الأول للمتحف الجديد، الذي تحسّنت المجموعة بشكل كبير تحت إدارته وإدارة رفيقه بريشيا Breccia، من خلال مُكتشَفات استثنائية لمواقع في بعض المباني والشوارع، مثل اكتشاف المقبرة اليونانية بحي الحضرة المجاور.



نحت رخامي بارز - ملاك حوله إكليل من الفاكهة (مدينة مينا)

بالطبع كان اهتمام رئيس بعثتنا كوفمن مُنصب على الآثار القليلة لبدايات التاريخ المسيحي بالأسكندرية. وهو ما اهتممنا به في مساراتنا اللاحقة على حدود المدينة القديمة والحديثة. فلم يستطع شيئا الصمود أمام فضولنا، وكذلك لم تنقصنا الحوادث المسلية والمضحكة. للأسف لم تُسفر زياراتنا إلى سراديب الأسكندرية عن نتائج ذات أهمية، رغم الغنيمة من العينات النباتية القيّمة والعينات البيولوجية التي عدنا بها.

أثناء عمليات التنقيب في مدينة "أبو منا"، زودنا أحد البدو بمعلومات عن المكان المفترض للمقابر المفقودة لبدايات التاريخ المسيحي في الأسكندرية، وهي المشكلة التي سعى إلى حلها ابن عمي كوفمن بشكل حثيث. عرض رجل يوناني ذات يوم أن يبيعنا قنديلا

برونزيا يعود للفترة المسيحية المبكرة، وكان مليئا بالتراب. نجحنا في العثور على البدوي الذي حصل منه اليوناني على هذه القطعة، والذي صرّح بأنه حصل عليه من قريب له كان يعمل غفيرا في سيدي جابر، وهي ضاحية خضراء بالأسكندرية. لحسن الحظ اكتشفنا نفس الموقع الذي أقيمت عليه خيمة ذلك الغفير، وهي سلسلة من الهضاب بمنطقة الحضرة، ولكنه لم يستطع مساعدتنا. إن التنقيب بهذه المنطقة سيحمل المفاجآت، فمنذ اكتشاف أول مقبرة تعود للتاريخ المسيحي المبكر بالأسكندرية تم تسليط الضوء على تلك الهضاب أثناء إنشاء خط القاهرة للسكة الحديد وتم تدمير الكثير أثناء ذلك.

ومع هذا لم تثر اهتمامنا البلدة القديمة وحدها، بل كذلك البلدة الحديثة، التي ازدهرت من جديد في عهد محمد علي، والتي يوجد في حيها المحلي مواقع لا تقل أهمية وجذبا للأنظار. حتى الحي الأوروبي، الذي انتعش منذ ثورة عرابي والاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢، كان به بعض المواقع المثيرة للاهتمام. ويتمركز الحي الأوروبي حول الميدان الكبير الذي يتوسطه تمثال محمد علي ممتطيا جواده، حيث توجد أجمل القصور. تستمد الأسكندرية أفضل زخارفها من الميناء الجديد والأرصفة الجميلة، وقد اكتمل العمل فيه جزئيا، وهو ما لم يكن ليتم لولا مبادرات شيس باشا. فقد تم بناء هذا الميناء فوق لسان رملي ممهد ممتد من دلتا النيل، وخلال بضع سنوات سيكون واحدا من أفضل الموانئ الموجودة على البحر المتوسط.

شيس باشا

قدم سيش باشا كثيرا من العون لنا، وساهمت مساعدته كثيرا في نجاح بعثتنا لاكتشاف مدينة القديس مينا. فبمجرد وصولنا إلى القرية أصبح كل شيء منوطا بخطابات التوصية التى أحضرناها معنا. قادنا القدر السعيد إلى الدكتور جوهانز شيس

بك Johannes Schiess الذي ساعدنا بشكل فعّال بينما ظنّ الآخرون أن الوعود ودعوات العشاء هي كل ما نحتاجه. وجدنا في دكتور شيس، الذي أصبح باشا فيما بعد، رائدا للبحث الألماني في مصر.

لا يوجد شيء أفضل لفهم أخلاق هذا الرجل - الذي وافته المنية في الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩١٠ وسط تعاطف مدينة الأسكندرية بأكملها - سوى ذلك الرد الذي قاله لكبير حرّاس الخديوي الذي كلّفه سيده بالتوصية بالرعاية الخاصة على أحد المرضى:

"أخبر سموه أن دكتور شيس لا يفرّق في معاملته، وأنه يُعامل الكل سواء".

حينها كان الدكتور شيس يشغل منصب كبير الأطباء في مستشفى العرب الأميرية بالأسكندرية، المؤسسة التي حوّلها إلى نموذج مصري صحي حديث.

التقينا دكتور شيس أول مرة في هذا المكان بعدما تقلّد منصبه بنحو خمس وعشرين عاما. لم تختفِ شخصيته القوية، وأسلوبه الحاسم والبسيط، والرجل السويسري الأمين تحت الطربوش الأحمر، رمز الموظف المصري. ظلت بعض من نضارة الشباب في طيات وجهه المتورد، وشاربه الأبيض القصير الذي يظهر تحته السيجار، كحال أي مدخن شره.

كان هدف كوفمن إثارة إعجاب شيس، بصفته رئيسا للجنة الآثار بالأسكندرية، ومن ثم الحصول – إذا أمكن – على الدعم المعنوي من هذه الشخصية المرموقة لبعثتنا في البحث عن مدينة القديس مينا.

جاء رد شيس فائقا لكل ما توقعناه، فعندما اطّلع شيس على عروضنا وخطط التنقيب، التي تضمنت الأبحاث في الجزء الشمالي الشرقي لصحراء ليبيا (حيث يختبئ

الدير الغامض المفقود) نادى الخادم وأمر بإحضار العربة. التفت إليّ قائلا بودّ: "سيد فالس، أنا معجب بشجاعتك، وأغبطك على صغر سنك. أعتذر أني لا أستطيع الانضمام بنفسي إلى هذه البعثة المثيرة للاهتمام إلى الصحراء"، وبعد ذلك قال تلك الكلمات المهمة: "سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك، ولكن لا تتأمل كثيرا."، ثم دعانا إلى الذهاب معه للمتحف والاتصال بالمحافظ.

حالفنا الحظ لاحقا في التعرف على شيس باشا بشكل وثيق، رأيناه أثناء عمله بالمختبر، وبجانب أسرّة المرضى، وفي رحلاته الظليلة تحت النخيل بين الرمل وباكوس. كان لديه العديد من الذكريات رواها لنا عن الرجال الذين عمِل معهم في المختبر، رجال معروفين بأبحاثهم حول أمراض الطاعون والكوليرا، علماء في الأنثربولوجيا، ومستكشفين بأفريقيا أحسن استقبالهم وضيافتهم أمثال: فيرشو Virchow، وروبرت كوخ Robert Koch، وشفاينفورث Schweinfurth، وفريتش Fritsch. كان أهم أعماله، وأكثرهم إبداعا، هو ما رأيناه عندما تجولنا خلال ثكنات وخيم وعنابر مستشفى العرب الحكومي، التي تطل على الشاطئ فوق أنقاض قلعة البطالمة الملكية. كان شيس باشا هو أول من جلب أجهزة التعقيم من برلين فضلا عن الأدوات الطبية الحديثة، والطرق العلمية الأوروبية والنظافة لتطوير الوضع الصحي في سائر بلاد النيل.

ولد شيس باشا عام ١٨٣٧ في هرسو Herisau بإقليم أبنزيل Appenzell في غرب سويسرا. كان من المفترض أن يصبح عالما في اللاهوت البروتستانتي، ولكنه درس الطب في بازل وبرن وباريس، ثم برلين. كثيرا ما عانى من الجوع في فرنسا. قادت الرغبة في رؤية العالم والشاعرية التي تحلى بها ذلك الطبيب الثلاثيني إلى السفر للعمل في كريت بتكليف من لجنة سويسرية إيطالية لمساعدة المرضى والمصابين من الثوار[*]. هناك يمكن

---

[*] كانت الدول الأوربية تدعم ثورة جزيرة كريت التي انتفض فيها سكانها ضد الحكم العثماني (١٨٦٦-١٨٦٩). (المحرر)

القول أنه وطد معرفته بعلماء وباحثين من أمثال البارونة الكاتبة إيلبيس ميليناس Elpis Melenas، وماري إيسبيرنس فون شوارتز Marie Espérance von Schwartz، التي كانت على صلة وثيقة بالتاريخ الحديث للجزيرة. بعد مرور عام، غادر شيس كريت وظهر في صحبة الخديوي إسماعيل أثناء افتتاح قناة السويس بعدما دعاه الخديوي للحضور، وبناء على رغبة الخديوي ظل شيس بمصر، الأرض التي تدين له بالكثير.

هذه سيرة ذلك الطبيب الجرّاح بالجيش والمستشفى المدني، والمندوب الروسي الإمبراطوري للجنة الصحة، والطبيب المسئول والمدير بمستشفى العرب بالأسكندرية، على تلك الخُطى كان مجرى حياة الطبيب المرموق الذي كرّمته الأسكندرية أعلى تكريم عام ١٨٩٧ باختياره رئيسا للمجلس الدولي لجاليات المدينة.

في أحد الأيام قابلنا دكتور شيس في بقعته المفضلة بحديقة المستشفى، حيث ترقد الآن عظامه في قبره الجرانيتي، بمكان مفتوح محاط بالأشجار، في المنتصف حيث يستقر التابوت الأثري على قاعدة ذات أربع درجات، محاطا بأربعة أعمدة نادرة يعود تاريخها إلى الفترة المسيحية المبكرة.

أخبره صديقه القديم، رئيس المجلس، أن الخديوي ينوي منحه لقب البشوية، فثار الحس الديمقراطي بداخله قائلا:

"أنا الدكتور شيس وسأظل كذلك".

وقد عانى أصدقاؤه كثيرا لإقناعه بقبول هذا اللقب.

اكتسب التنقيب والبحث الأثري الكثير على إثر هذا التغيير الذي تقدم بفضل شيس وجهوده.

قبل الانطلاق

كان استقبال محمود باشا صدقي، محافظ الأسكندرية الذي انتقل بعد ذلك إلى منصب مشابه بالقاهرة، مرضيا للغاية. فقد شغل المباني الحكومية القديمة الموجودة بالقرب من الميناء، محاطا بجيش صغير من الضباط والخدم والجنود. استهللنا عملنا بأكواب القهوة العربية التي لا مفر من تناولها. بدأ ابن عمي في شرح خططنا باللغة الفرنسية للباشا، الذي كان قد سبق وعرف عنها من شيس باشا، وقدّمنا فورا إلى هوبكنسن بك، الذي أصبح باشا الآن، وكان رئيسا للشرطة في الأسكندرية، وتقع المناطق الصحراوية المحيطة بها تحت سلطته أيضا. لم نكن نتمنى رجلا ذكيا ودودا أكثر منه.

وكصائد غزلان ماهر، فقد كان مولعا بالصحراء، وقام بزيارتنا مرارا بصحبة قوة عسكرية حتى نهاية التنقيبات اللاحقة، وظل صديقا مقربا وداعما للبعثة.

"لا نود أن تتوه في الصحراء أيها الأب كوفمن"

هذا ما قاله الكولونيل هوبكنسن لابن عمي عندما كنا ندرس الخريطة الكبيرة للمنطقة الليبية بمكتبه، ما أدى به إلى تزويدنا بقوة عسكرية لمتابعة استكشافاتنا، ولكن ابن عمي اعتقد أنه من الأفضل السفر بثياب عربية بدون قوة عسكرية، ووافقه هوبكنسن في الرأي، وأثبت نجاحنا، لنا وله، أننا كنا على حق. أمر هوبكنسن مرؤوسيه في مراكز شرطة مريوط بتوفير المساعدة لنا. ووضع تحت تصرفنا خياما عسكرية وأدوات أخرى - من مخازن الحكومة - ستفيدنا بالبعثة بدون تحميلنا أية نفقات.

في نفس الوقت الذي وصلت فيه حقائبنا من طرابلس، كان علينا أن نحصل على المؤن والأدوات التي نحتاجها. من بين الأدوات كان لدينا زوج من أجهزة قياس الضغط الجوي، التي قام بضبطها لنا ضابط محطة الإشارة البحرية في حصن نابليون، وبوصلات ومقاييس للحرارة وأجهزة قياس المطر وأدوات المسح، والتي من بينها جهاز يفيد

بقياس المساحة أعطيناه فيما بعد للسيد كايسر Kayser، رئيس مهندسي السكك الحديدية الخديوية. ومن أهم أدواتنا آلتا تصوير ممتازتين، إحداهما كوداك Kodak، والأخرى بنتزين Bentzin.

ومما وجب ذكره أن الأفلام المعدة خصيصا لتتحمل درجة الحرارة العالية في الصحراء أصبحت بلا جدوى، بينما ظلت الأفلام التي اشتريناها من الأسكندرية في حالة ممتازة، على عكس ما توقعنا تماما. لاحظنا عموما فشل أى سلعة صنعت خصيصا لشيء ما. ولذلك من حسن الحظ أنه لم يترك أحدنا ساعة يده العادية في البيت من أجل "الساعة الدقيقة" التي اقترحها المتخصصون، والتى توقفت عن العمل في أولى أيام الرحلة في الصحراء.

ضحك البدو بشدة على" أوعية الماء" التي كانت بحوزتنا وأنتجتها شركة مشهورة في برلين، فقد كانت تعمل مثل المصفاة: تسرّبت منها المياه ببطء دون توقف، برغم كل ما فعلناه لإيقافها، إلا أن حيواتنا لم تنقذ سوى بفضل القِرب البدوية القديمة، المصنوعة من جلود الماعز، التي كان يستخدمها البدو الأذكياء. من المحتمل أن بعض الأرواح الشريرة كانت ضدنا، ولكن على أية حال يجب على الرحالة ألا يثق كثيرا في إنجازات الحضارة عند التجهيز لبعثة كهذه.

وُضعت المؤن المعلبة والمحفوظة في جيوب مقفلة يسهل استعمالها، وتم تعبأة البارود والرصاص للبدو، والذخيرة لبندقيتينا ذوات الماسورة المزدوجة، وللمسدسات كذلك، وزوّدنا دكتور ستينديل Stendel، كبير الجراحين في الإسكندرية، بأدوية ووصفات علاجية أخري تولى اختيارها شيس باشا، مع تعليمات لعلاج الأمراض المحلية المعروفة، فأسدوا لنا وللآخرين خدمة كبيرة. كما ساعدنا جورج رولبيرج Georg Ruelberg وهو مالك الصيدلية الألمانية بالأسكندرية، ليس فقط بالنصيحة والعمل حينها، بل كان مستشارا أمينا أثناء فترة التنقيب كلها. اكتملت أدواتنا بأغطية من كل الأنواع وبطانيات

صوفية لدرجات الحرارة المتغيرة بالصحراء، وملابس كاكية بسيطة لنرتدي معها الطربوش، وفوقهم أردية البُرنُس التي ابتعناها من تونس، وهو ما ظننا أنه يكفي لشهر كامل.

الفصل الثالث

ثلاثون يومًا في الصحراء الليبية

المأمور والبدو

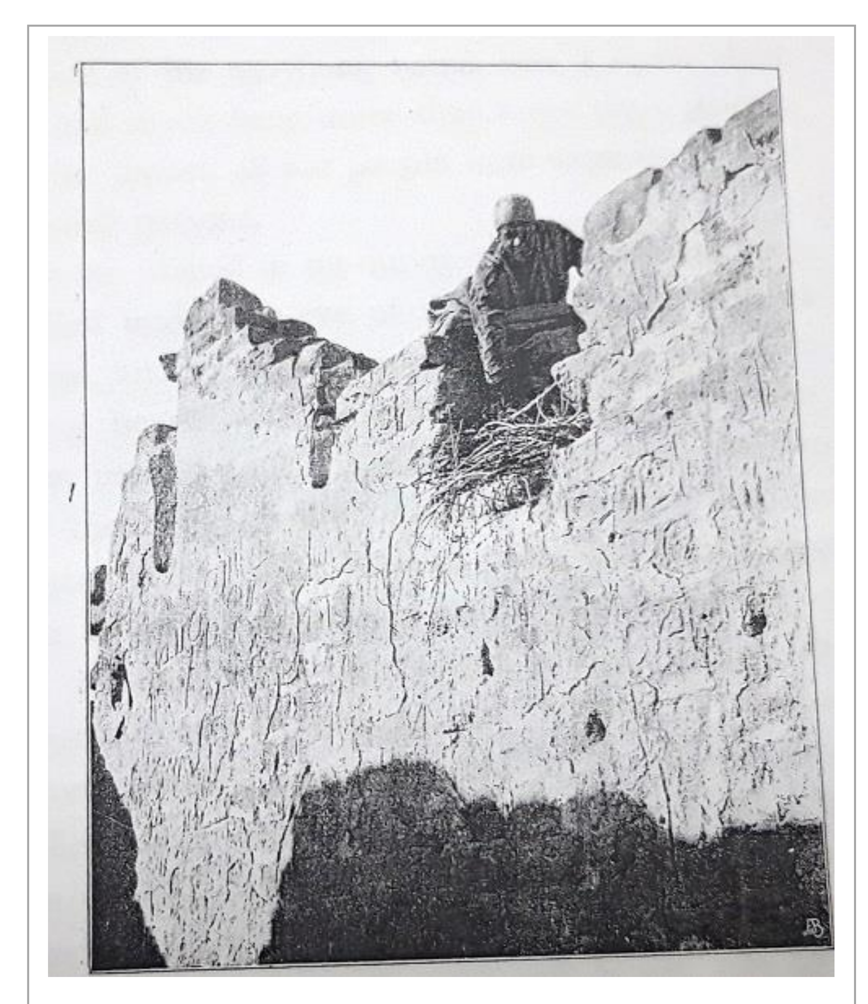
جاءت أخيرا صبيحة يوم رحيلنا. تم تنسيق كل التفاصيل مع محمود أفندي صدقي مأمور مركز الشرطة في إقليم مريوط الواقع غرب الأسكندرية. كان الرجل يحمل نفس اسم محافظ الأسكندرية وتربطه به صلة قرابة. وفر لنا هذا المأمور البدو والإبل واتفق كذلك على المقابل، وأرسل المتاع وبقية الخيام العسكرية إلى آخر محطة في السكك الحديدية الخديوية، ثم إلى تلك التي ما زالت تحت الإنشاء وتمر عبر منطقة ساحل الصحراء غرب الأسكندرية.

أحاطت بنا مجموعة سمراء من بدو أولاد علي فور مغادرتنا العربة، تطلعوا بفضول إلى الرجال والأمتعة، وعندما أقبل المأمور قبَّلوا يده. رقدت خمسة جمال مترقبة مستعدة، وكانت عربتنا تنتظر بين مجموعة من البدو يودعون بعضهم. قبل رحيلنا بعدة أيام خصص لنا شيس باشا أحد موظفيه لمرافقة القافلة ومساعدتنا. كان شابا ودودا يخفق قلبه مثلنا ترقبا للأحداث. وأخيرا وضع مأمور المركز حدا لذلك الوداع الذي لا ينتهي لأفراد قافلة المستقبل الذين لم يبالوا بقدوم أسيادهم.

بينما كنت وكوفمن نجلس في استرخاء على الصناديق وأوتاد الخيم صاح المأمور مناديا: "مفتاح! مفتاح!" وفي تلك الأثناء تجمّع الباقون وأحاطوا بثلاثتنا في حلقة من الأجسام البيضاء المغطاة بالأردية. حملوا بأيديهم النبّوت أو علّقوا البندقية البدوية الطويلة على أكتافهم.

حينما تجمّع مفتاح ورفاقه، نظر المأمور نحونا وقال، وهو ممسك ذراع الشخص المشار إليه، "هذا هو الشيخ مفتاح دابون، وهو المسئول عن سلامتكم مقابل حياته وحياة قبيلته بأسرها". رفع مفتاح ذراعه الأيمن إلى جبهته وصدره في إشارة إلى

توكيد القول والالتزام به، ووضع المأمور يد مفتاح في أيدينا. رحبت بنا بقية المجموعة، وكانوا كلهم في شرخ الشباب عدا كبيرهم مفتاح.



قصر القطاجي: أبو سيف يأخذ أبعاد أطلال القصر

تتكون أفراد القافلة من: علواني حامد وهو سليل ولي صالح، وعبدالعال وهو ابن رجل عربي من وادي دافني بالسلوم، وابن الشيخ مفتاح، أبو سيف صالح. باستثناء الأخير، والذي برغم اسمه المرعب، فقد كان طفلا مدللا، ولم يقم بأكثر من رحلة مدتها عدة أيام بالصحراء، فقد كان كل المشاركين رحالة وذوي خبرة.

حينما قررنا الانطلاق، تم تجهيز الجمال تحت إشراف المأمور وتعاون الجميع معا فلم يستغرق الأمر أكثر من ساعة. قاموا باختيار دابتين يافعتين لنركبهما. حملت إحدى الدواب أربعة من حاويات المياه الكبيرة، والجملان الآخران حملا الأمتعة، واتسع المكان لراكب آخر، وسيتبادل البدو الجلوس عليه خلال هذه المسيرة الطويلة للحصول على قسط من الراحة.

بمساعدة المأمور تم الاتفاق على الأجور اليومية على النحو التالي:

- لقائد القافلة خمسة عشر قرشا (ثلاثة شلنات تقريبا) يوميا

- مثل ما سبق لكل جمل من الخمسة

- يأخذ بقية الرجال بقشيشا فقط دون أن تكون هناك أجرة ثابتة يوميا

كان الاحتفاظ بالرجال والجمال ضمن هذا المبلغ البسيط، وتم الاتفاق ألا يتم الدفع إلا بعد رجوع البعثة بسلام. طلب الشيخ ثلاثة جنيهات مقدما لعائلته، وأعطاه إياها ابن عمي من خلال مأمور المركز.

اتخذت القافلة سبيلها وسط شجيرات الحطية الهزيلة، وهي المدخل إلى الصحراء، وبعد ذلك خلا الطريق مما عدانا.

كانت خطتنا واضحة وبسيطة. وفقا للمصادر التاريخية، يقع دير "القديس مينا" في الصحراء بين الأسكندرية ووادي النطرون ومرمريكا. أصر كوفمن أن يتجه غربا إلى حدود مرمريكا، ثم جنوبا إلى وادي النطرون. كان لابد من زيارة وفحص البقايا الأثرية التي كان الشيخ أو بعض الرجال على معرفة بها أو تحدّثوا عن وجودها، لذا خططنا للانحراف يمينا ويسارا عن مسار الرحلة المحدد. من المفترض أن يكون الدير بداخل الصحراء، ومن ثم فإن المنطقة من وادي النطرون (وتُعرف باسم صحراء أولاد علي) يجب استكشافها بالكامل، حتى لو أصبح من الضروري العودة إلى دلتا النيل لتوفير إمدادات جديدة من المؤن.

لذا اتجهنا غربا، وبغرض تمرين الرجال والدواب، فقد سرنا من ثمان إلى عشر ساعات في أول يومين، وفي يوم انطلاقنا سرنا خمس ساعات فقط.

من بئر الحمَّام إلى خشم العشي

قبل الفجر أيقظتنا صلاة سيدي مفتاح "الله أكبر محمد رسول الله"، لم يكن من الضروري الاحتياط في استخدام المياه إذ أننا قررنا الوصول إلى الحمَّام ، وهو حيثما كانت تتم لقاءات حجاج الحجاز قديما. ركبنا السروج حوالي الساعة الخامسة فجرا في هواء الصباح الباكر (أقل درجة الحرارة لم تتخط 11 درجة مئوية[*] أثناء الليل)، مررنا ببعض الآثار الرومانية، ووصلنا بير الحمَّام حوالي العاشرة صباحا.

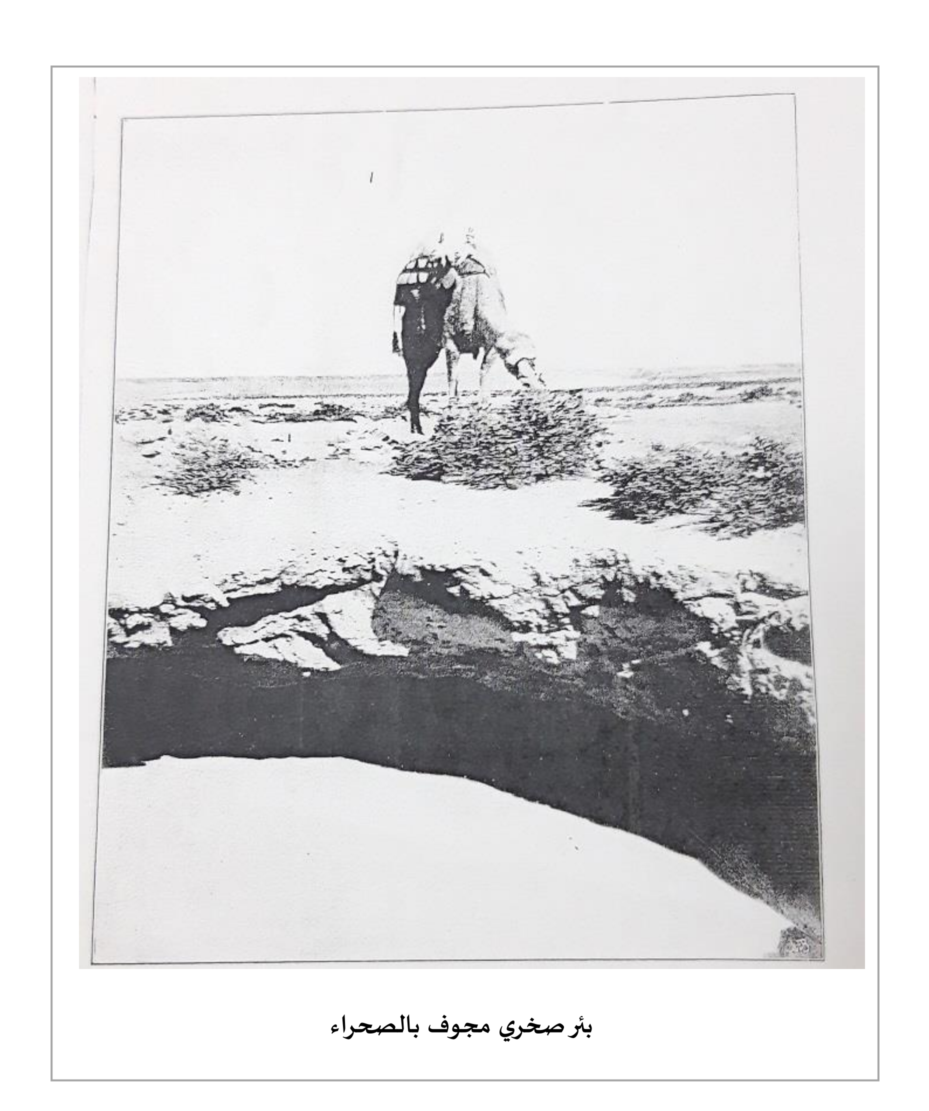
في بير الحمَّام ، حيث كان يتم البحث عن بقايا مدينة قديمة، استقبلنا عربي في خيمته بترحاب، وقال بعبارات منمقة أن منزله وممتلكاته - أي خيمته وحصانه - ملكٌ لنا، ولكنه لم يستطع مقاومة رغبته في المطالبة بالبقشيش مقابل اللبن الذي تناولناه.

[*] جاءت كل درجات الحرارة بالفهرنهايت وتم تحويلها في الترجمة العربية إلى درجة مئوية. (المحرر)

في الصباح التالي تحركت القافلة في الاتجاه الشمالي الغربي خلال السهوب. سارت الجمال بقوة على الأرض الصلبة بمعدل ثمانين خطوة في الدقيقة الواحدة تقريبا. لقد تناغم كلٌ من الدواب وراكبيهم، حتى شعرت أنا وابن عمي أن بإمكاننا القيام بنزهات قصيرة في غير مسار الرحلة، ولكننا حرصنا دائما على الرجوع لنقطة الانطلاق. حملنا الخريطة الألمانية الرسمية للطريق في طوق حول رقابنا.

قبل العاشرة صباحا بقليل، بدت تلال خشم العشي سلسلة من هضاب خفيضة عند سفوح الجبال العالية في الأرض الفيضية بدلتا النيل في عصور ما قبل التاريخ. مررنا بجبانة في الصحراء وكانت عبارة عن مجموعة من أضرحة البدو محاطة بكتل كبيرة الأحجار يعلوها على ربوة ضريح الشيخ. كلما رأينا قمة سوداء لخيمة، يترك عبدالعال القافلة ويتوجه إليها على قدميه لإبلاغهم تحيتنا ومن الطبيعي أن يُسأل عن هدف رحلتنا. كان هذا عُرف قديم بالصحراء، وتجاهله كان ليجلب الكثير من المخاطر. وإذا لمح الشيخ ببصره القوي الحاد جواسيسًا تقترب، أبطأت القافلة في سيرها لمعرفة هوية هؤلاء الأشخاص. وما حدث هو أن حتى الفرسان غيّروا مسارهم عندما رأوا أسلحتنا السبعة. في إحدى المرات ظن مفتاح أنه من الأفضل أن ينعطف مسارنا، وبرر ذلك قائلا بأن من رأيناهم في الأفق كانوا أعداء لعائلته. لم نتمكّن أبدا من جعله يخبرنا كيف تعرّف عليهم، برغم أن مرافقنا الإيطالي ساعدنا في اللغة العربية، لأننا لم نكن ذوي خبرة في الاستخدام الدارج للغة المحلية.

وصلنا إلى بير خشم العشي في الثالثة إلا ربع، وهو بئر تحت الأرض في قمة تلال تحمل نفس الاسم. استلقت الجمال في الأرض الصخرية المغطاة بكمية وفيرة من الشجيرات. تم نصب الخيمة، وعلى جانبها كان يلوح العلم الألماني المعلّق على وتد قصير. استغلينا فترة بعد الظهيرة في دراسة حقل كبير من الأنقاض التي، وفقا لما يقوله الشيخ، كانت تقع بجوارنا مباشرة.



بئر صخري مجوف بالصحراء

كان لدينا هنا عينة من مياه آبار الصحراء. احتفظنا لليوم التالي بقِرب المياه الجلدية التي تم ملؤها من بير الحمَّام، وألحت عليّ رغبة بتروية عطشي بماء ينابيع الصحراء العذبة، فذهبت إلى البئر الذي كان يبعد بضعة أمتار عن الخيمة. إن بير خشم العشي عبارة عن كهف قديم شبه مدمر به آثار من الجص وبعض المنقوشات باللغة العربية، وكذلك آثار قوافل ورحالة منفردين. نزلنا إلى داخل البئر من خلال فتحة

واسعة، وكان طوله نحو إثنا عشر مترا(*). من خلال ممر قصير ضيق ولجنا إلى الينبوع، وهو مرجل طيني صغير لا يحتوي أكثر من ملء دلو من الماء، عدا في موسم الأمطار، وعند تدلّيه يُعاد ملأه في نحو ربع ساعة. سرعان ما اعتدنا على السائل الطيني الغامق. استخدمنا مصفاة الفحم هذه المرة، وبعد انتظار طويل مُلئت عدة أكواب من المياه النقية، ما أثار دهشة الحاضرين. بعد ذلك تخلينا عن هذه الطريقة المملة وشربنا الماء مباشرة ولم يلحق بنا أى ضرر.

يُطلق على المكان في الخرائط الإنجليزية اسم Ashim el esch، ولكن ذكرها الدكتور يونكر Junker[13] في خريطته للجزء الشمالي الشرقي من الصحراء الليبية، التي ظهرت عام ١٨٨٠ من دار نشر *Petermann's geographicschen Mitteilungen*[14] كما ينطقها أولاد علي الآن: جبل خشم العشي. إن أصل الكلمة ليس واضحا. فسّرها البدو بأن "خشم Haschm" تعني الأنف في لهجتهم، و "عشي ische" تعني المساء، وبالتالي فهي "أنف المساء"، وسبب التسمية هو الشكل الطويل للتلال الممتدة في اتجاه غروب الشمس.

إن قمة خشم العشي عبارة عن هضبة صخرية مرتفعة نسبيا وينحدر شمالها وشمالها الشرقي بحدة وصولا إلى الشاطئ المستو للبحر الأبيض المتوسط. يوجد ثلاثة أضرحة لشيوخ ترحب بالرحالة عن بُعد، وعندما يتسلق المرء الصخور صعودا يرى ما يثير الاستغراب، إذ أن التيجان الصخرية تخفي موادا حفرية قديمة. كان الانحدار المفاجئ

(*) تم تحويل كل القياسات التي جاءت في الكتاب من وحدة "الياردة" إلى وحدة" المتر". (المحرر)

(13) ويلهيلم يونكر Wilhelm Junker (١٣ فبراير ١٨٩٢ – ٦ أبريل ١٨٤٠) مستكشف روسي بأفريقيا، ذو أصول ألمانية. ولد في موسكو. درس الطب ولكنه لم يمارسه طويلا (المترجم).

(14) من أقدم المجلات الألمانية المتخصصة بالجغرافيا، ونُشرت فيها الاكتشافات الجغرافية الكبرى في القرنين التاسع عشر والعشرين. أسسها أوجست هاينريك بيترمان August Heinrich Petermann عام ١٨٥٥. من أولى أسباب نجاحها النشر عن مُكتشفات بعثة شمال أفريقيا ١٨٤٩-١٨٥٥ التي قام بها المستكشف هاينريك بارث وأدولف أوفرويج (المترجم).

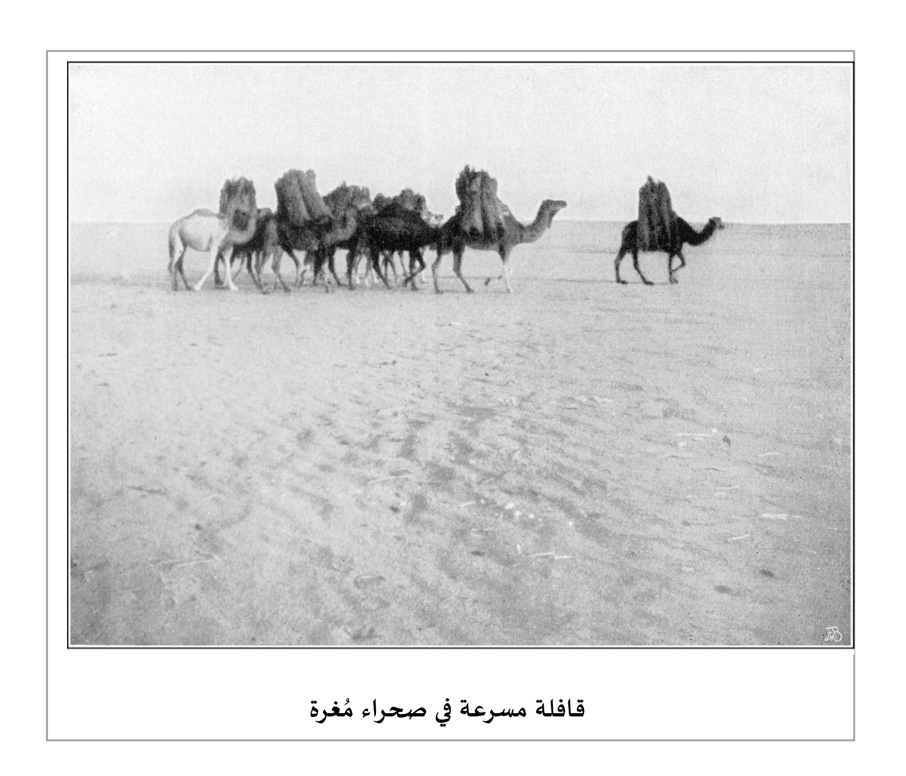
للهضبة، وهو ما لم يكن سوى أنقاض مدينة قديمة. كان منظر السهول الممتدة التي تنتهي بالبحر ممتعا بعد مسيرتنا الطويلة بالسهوب المسطحة التي تشكل المدخل إلى الصحراء. بمساعدة اثنين من رجالنا تم استكشاف المكان مساحيا بشكل أولي ، وأصر السيد كوفمن البقاء هناك لعدة أيام؛ فقد بدا أن المنطقة تحتوي آثارا مهمة. اكتشفنا ثلاثة كهوف. نزلنا إلى هوة عميقة، ونزل اثنان من رجالنا، سار برفقتنا بغرض الحماية والمساعدة، هبطنا عموديا بسهولة بواسطة عمل حفر للأيدي والأقدام. منعتنا "الأرواح" من الدخول، وتركت لنا ثعبانا مستعدا لاستقبالنا في قاع البئر. ولأنه بطبيعة الحال تم اختبار هذه البقايا التحت أرضية خوفا من الغازات وغيرها، ولهذا السبب بعد مرور سنوات عديدة، استخدمنا "مصباح السراديب" الخاص بابن عمي، وهو وعاء معدني ذو مقبض وغطاء متحرك من أعلى به ثقب لعمود سميك من الشمع. تم تدلية شعلة بواسطة حبل لمعرفة ما إذا كان الهواء نقيا.

تمكنا بوضوح من تتبع خطوط إنشاء بنايات مختلفة على أرض المدخل، ولإحدى تلك البنايات شكل صليبي، ربما كانت كاتدرائية. وهناك أيضا ما يشير إلى أن التل كان محصنا ومؤمّنا بالجدران يوما ما. كان ابن عمي مقتنعا بأن قمة خشم العشي، والتي احتلت المنطقة بأكملها، كانت قلعة لمنشأة بيزنطية، قائمة على قاعدة رومانية، وربما ما هو أقدم من ذلك للعصر البطلمي عل سبيل المثال.

في الصباح الباكر من يوم ١٩ يونيو انتهى المعسكر بخشم العشي، وبحلول الخامسة صباحا كانت القافلة بالفعل تتابع مسيرها في تخوم مريوط ومرمريكا. في اليوم السابق ملأنا قِرب الماء من بير الحمَّام . اتجهنا إلى الجنوب الغربي خلال شجيرات السهل الرملي. ومع الغروب ورأينا أول قطيع للغزلان، وكان عبارة عن أربعة مخلوقات خجولة جميلة، تقفز بمرح وخفة.

دخلت سفن الصحراء سهل الحلفا، وهي منطقة ذات أهمية خاصة بالنسبة لعلماء الطبيعة، لأنه - وفقا للعرف - كان مصب ذراع نهر النيل في عصور ما قبل التاريخ. ولنتمكن من استكشاف الأرض بدقة، خطط الشيخ مفتاح أن يعرّج على أية خيمة عربية سنقابلها في طريقنا. بحلول وقت الظهيرة ارتفعت درجة الحرارة إلى ١١٣ درجة، وكنا سعداء للعثور على خيمة شيخ طيب للتخييم عندها. تكوّنت وجبة العشاء من الشوفان والسلمون المعلب، وللبدو رقائق الخبز الكريهة المخبوزة مع البصل على الحطب. في المساء تم ذبح خروف لونه أبيض وأسود ابتعناه من بدو حلفا مقابل إثنا عشرة شلن، وما كان محل تقدير أن ألقى الشيخ مفتاح صلواته مرتين تلك الليلة، وهو ما يفعله دوما كلما تناولنا لحم ضأن أو غزال مشوي.

يتجه خط سيرنا الآن جنوبا حيث الصحراء ذاتها. عبرنا طريق العرب الغربيين الذي تظهر فيه "الأعلام" بين الحين والآخر، وهي إشارات على شكل كومة صغيرة من الأحجار. ولكن ظهرت في الطريق هياكل عظمية بيضاء تحكي مصير أحد السابقين في تلك المناطق الخطرة. بدا وكأن شخصيات حراسنا تغيرت بمجرد دخولنا الصحراء الحقيقية، فقد اعتادوا من قبل على المسير وهم يرتجفون في ساعات الصباح الأولى، لا يخرق الصمت سوى نداءات حادي العيس، تلك الرتيبة أو التشجيعية. كان أبناء الشمس يرتجفوا في بُرنُسهم الصوفي الأبيض المشبع بندى الليل. بمجرد دخولنا للمنطقة الخالية من الغطاء النباتي اختلف كل شيء، فهناك، خارج حدود التحضر والمدنية، شعروا أنهم أولاد الأرض الحقيقيين.

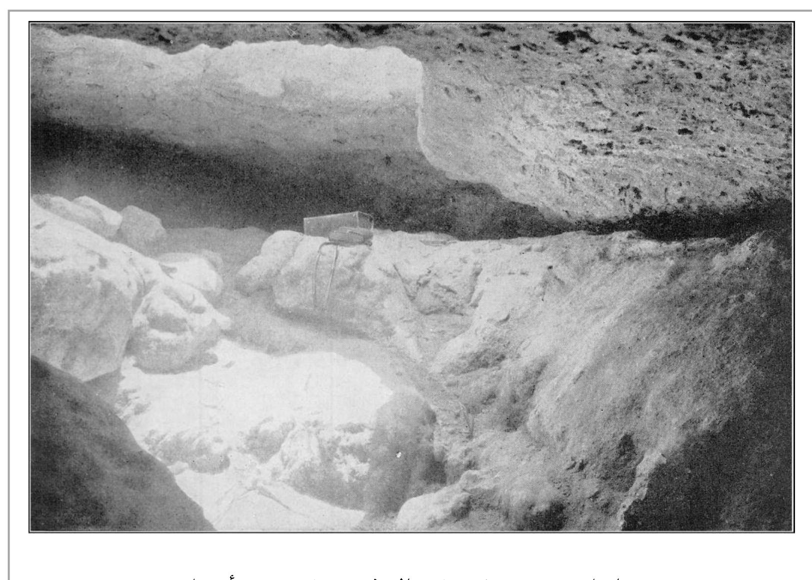


قافلة مسرعة في صحراء مُغرة

عندما أشرقت الشمس، صرخوا ابتهاجا وانضممنا إليهم بكل سرور. مفتاح وعلوان، اللذان كانا حريصين على البارود، اعتليا ظهور جمليهما وقفزا وأطلقا النار تحت رقاب دوابنا، التي لم تحرّك ساكنا، وتغنوا بأبيات مبهجة لم نسمعها من قبل. حتى بدا وكأن ستار مسرح عظيم يرتفع أمام أعيننا. كلما انجلى الضباب ظهرت الملامح أكثر وضوحا ودقة، واتسعت الصحراء، وعم ضوء الشمس في كل مكان. كان الباروميتر يدل على أننا نصعد دائما، واختفت آخر الآثار المظلمة للمشهد الطبيعي الذي تركناه.

ثم ظهر أمامنا جبل البوّيب وسط الصحراء الحجرية، وبعد ذلك في حوالي الثامنة صباحا رأينا وادي جريد اللبن من على بُعد، بسلسلة تلاله القصيرة شديدة الانحدار. بعد التاسعة صباحا مررنا خلالهم وصولا إلى يمين الوادي. في الحادية عشر صباحا مررنا ببقايا غابة حجرية صغيرة بلغ قُطر أسمك جذوعها ٩ أو ١٠ بوصات. وفي

نفس الوقت رأينا قطيعا من الغزلان وقررنا التخييم بالمنطقة. كانت درجة الحرارة مرتفعة وبحلول الثانية ظهرا وصلت إلى ٥٠ درجة مئوية. كان تعب المسير لمدة عشر ساعات مبررا كافيا ليكون العشاء لحما مشويا.



بداخل تجويف بئر خشم العشي، مشهد من أسفل.

بعد فترة بحث قصيرة وجد الشيخ مفتاح أرضا منخفضة حوضية الشكل به قليل من الغطاء النباتي تحيط بها كثبان رملية، واتخذها مكانا آمنا للتخييم. ورغم أن مفتاح من أفضل صيادي الغزلان بمريوط، وكذلك علواني، فلم يواتِ الحظ أي منهما في مطاردات دامت ساعتين. لقد كانت الأرض مسطحة، لذا كان يلمحهم أي غزال صحراوي رشيق من على بُعد ميل.

في الرابعة عصرا استقر مؤشر الترمومتر على ٤٦ درجة مئوية، وبحلول السادسة هبت نسمة خفيفة منعشة. وبعد ذلك امتطينا الدواب لأول نزهة ليلية.

في الليلة التالية كانت النجوم دليلنا، بالمعنى الحقيقي للكلمة. وإجابة على سؤالنا كيف أمكنه التأكد من العثور على الطريق الصحيح في البرية، والصحراء الصمّاء، أجاب الشيخ مفتاح بالإشارة إلى السماء، وكان يقصد النجم القطبي بشكل أساسي. اضطررنا إلى السير إلى أقرب بئر للحصول على الماء، فقد أصبح طعم الماء في القرب الجلدية سيئا للغاية، مشينا جنوبا إلى وادي مُغرة الذي يبعد عن تل علم الحلفا مسيرة نحو ثلاثة أيام. بما أننا لم نملأ قرب المياه منذ الليلة السابقة لرحيلنا من خشم العشي، فلم يتبق سوى كمية ضئيلة من الستة جالونات الأساسية. إذا قمنا بتقدير معدل التبخر كل ساعة أثناء الجزء الحار من اليوم، وستة أفراد يحتاجون المياه، واحتمالية وقوع أية حوادث عارضة كتأجيل غير متوقع، أو منحنى ضروري، فقد تنتهي الأمور بشكل مؤسف، وكذلك التغيّر الدائم لشكل الكثبان الرملية جعل من السهل أن نضل الطريق. وأيضا لم نضع في الحسبان احتمال أن تتلف إحدى قِرب الماء.

أدرك مفتاح حجم المسئولية التي يتحملها، وبغض النظر عن الجهد المبذول، فقد قرر مواصلة المسير بدون استراحة - مع فترة راحة قصيرة في منتصف الليل - حتى نصل إلى الآبار، فكانت رحلة متصلة مدتها اثني وعشرين ساعة، بدون احتساب أوقات الراحة.

اختفى للأسف الجانب الشاعري للنزهة بسبب الإجهاد الشديد. كان طعامنا الذي تناولناه على السروج مكونا من التمور والبرقوق المجفف. وضعناه في حاويات الماء التي كنا قد جلبناها من برلين، والتي تدلّت من معلّقات السرج، في تناغم تام مع وظيفتها الجديدة.

سارت الجمال، المربوطة في صف طويل، بسرعة أكبر. خيّمنا لعدة ساعات بالقرب من جريد اللبن بدون إنزال السروج. استلقى كل منا بجانب دابته ملفوفا في الأغطية، وفي الثانية صباحا أكملنا مسيرنا نحو الجنوب، رغم الإنهاك الشديد. أصبحنا

في حالة من اللامبالاة الشديدة. انتابت ابن عمي حالة قلق قوية، إذ كان يغفو باستمرار فوق جمله، وأصبح عُرضة للوقوع وربما القتل. ولذلك أعجب كل منا بالشيخ مفتاح، فهو الوحيد الذي أحسن التكيُف مع الموقف. كان يسير وكأنه راقصا على قدميه طوال الطريق بجانبنا، وسلاحه متدلٍ على كتفه، واخترع أطرف النكات لإبقائنا مستيقظين، واستمر على هذا المنوال حتى جدد ندى الصباح البارد نشاطنا. أثناء الليل عبرنا بحرص سلسلة من التلال متعددة الخشوم، بدت خلفنا بحلول السادسة صباحا في وضوح مبهر كسلسلة من الجبال. ثم ظهرت آثار الغابة المتحجرة ثانية، ومشينا لمدة نصف ساعة بين بقايا جذوع أشجار تلك الغابة.

استمرت الرياح الساخنة طوال اليوم،وفي حدود الساعة الخامسة مساء غامرنا فقط بالاستكشاف. أثناء العاصفة جاءت قافلة كبيرة من الجنوب، وتتوجه الآن إلى مُغرة.

ثأر منا تعب الأيام الفائتة، فلم ننم نوما هانئا في تلك الليالي. وبالإضافة إلى ذلك هاجمنا البعوض المتوحش القادم من البحيرة المالحة. نعم كان لدينا شبك واق من البعوض لكننا لم نتمكن من استخدامه سوى للرأس واليدين، فالخيمة المنخفضة لم تسمح لنا باستخدامها بشكل أفضل من ذلك.

قبل وجبة منتصف اليوم عرجنا معا إلى البحيرة المالحة. تكونت الأرض من كثبان رملية متموجة بارتفاع حوالي ثلاثة أقدام، نمَت بينها نبتة الطرفاء وبعض الأعلاف للجمال. نمت على شجيرات شوكية طويلة وحيدة ثمار حمراء صالحة للأكل، في حجم حبات المسبحة، والتي يسميها البدو "غردق"، وكذلك "عين الديب"، وهو مطابق لغرقد أشيرسن[15]. وجدنا بالقرب من مخيمنا مجموعة من الينابيع. عندما حفر البدو في هذا

---

[15] الغرقد الكليل (باللاتينية: *Nitraria retusa*) نوع من النباتات ينتمي إلى عائلة الغرقد. ينمو في المناطق الجافة. ذكره عالم النبات الألماني بول فريدريك أوجست أشيرسن Paul Friedrich August Ascherson في ملخص بعثته إلى الصحراء الليبية مع رولفس عامي ١٨٧٣ و ١٨٧٤ (المترجم).

المكان، وهو ما يفعلونه دوما بأيديهم العارية، وبعد نبش طبقة رملية، نادرا ما تكون أكثر من ستة أقدام، وجدوا سائلا طينيا. بعد قليل أصبح أنقى وتحول لونه إلى اللون الأصفر الخفيف، كان قابلا للشرب ولكنه مالح الطعم قليلا. بهذه الطريقة حفر عبدالعال وأبو سيف ينبوعا واسعا للغاية وبعدما مررنا وقفا عرايا في المياه الموحلة. في مثل هذه الأماكن تُملأ القِرب بسهولة بواسطة دلو، وتُستخدم الدلاء أو أواني الطبخ في سقاية الإبل، وهي عملية تحتاج إلى صبر ووقت طويل.

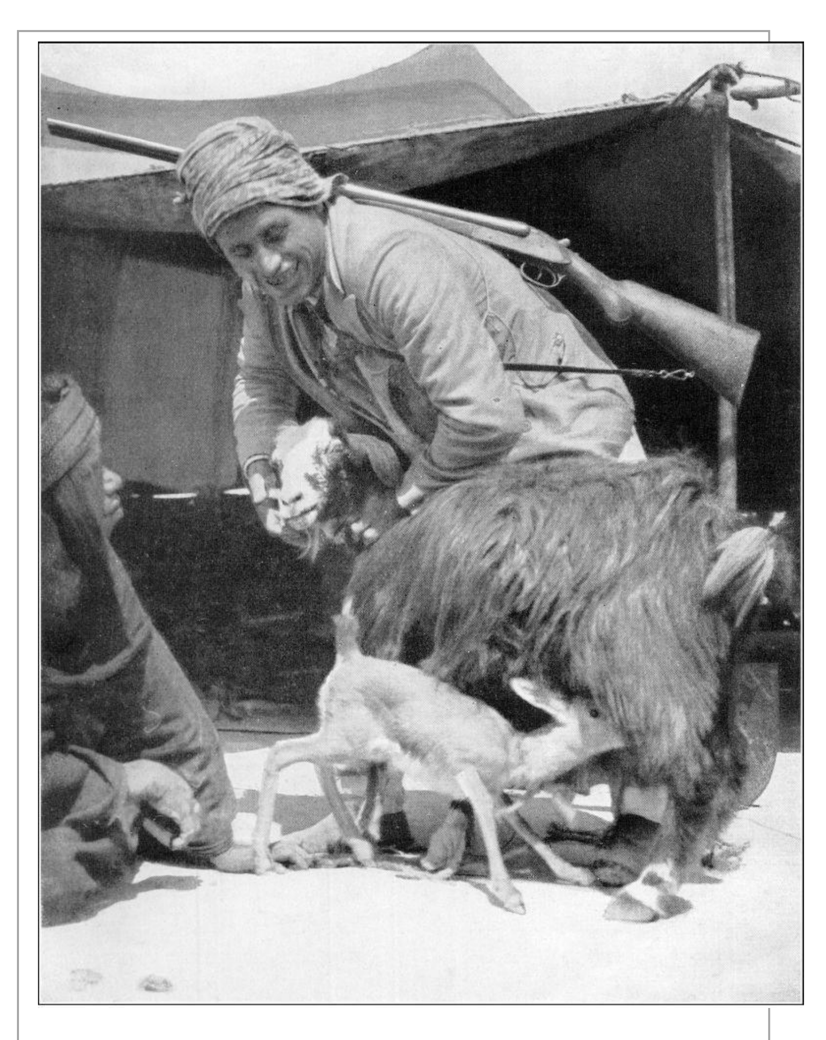
استغرق الأمر ساعة واحدة للوصول إلى البحيرة انطلاقا من المخيم. سقطت فجأة الكثبان الرملية إلى داخل الوادي الأخضر الغني بالمستنقعات النباتية، حيث كان يلمع سطح البحيرة المالحة تحت أشعة الشمس. فوق القشرة الطينية الجافة السوداء بلغنا أنا وابن عمي وعلواني المياه النقية. اندفع علواني إلى يمين بحر المستنقعات لمطاردة "الحمام "، وهي كلمة المقصود منها سرب من البط. نجح في اصطياد بعضهم. بينما انشغل علواني بما يفعل، دخلنا إلى الماء وحظينا باستحمام رائع.

بعد الصيد والاستحمام عدنا إلى الخيمة، فوجدناها مليئة بالجنود السودانيين. جاءت الكتيبة الصغيرة من أجل الحصول على وسيط إلى الأسكندرية، حتى أن أحد العساكر أهدى إلينا ماء نقية، وهي أجمل ما يُمكن أن يُهدى في الصحراء. تحدّث رئيسهم باللغة الإنجليزية وأظهر سعادة غامرة عندما عرضنا عليه التبغ والقليل من الويسكي. فقد ظل المسكين في موقعه لمدة عام كامل تواقا لمظاهر الترف الموجودة بمصر. أخبرنا هذا الجندي أن الوادي يعج بمئات الخيام البدوية في أوقات معينة من السنة، وأنه يتلقى الأوامر مرة أو مرتين شهريا من رئيسه، وهو ضابط ألماني بالخدمة العسكرية المصرية.

نصبنا خيمتنا في موقع يحظى بإطلالة فريدة على جبل رأس البقر، الذي يبدو في ضوء المساء كسلسلة شامخة من الجبال تمتد إلى الجنوب من طريق القوافل المتجه

إلى واحة البحرية. استلقينا في مقاعدنا القابلة للطي وتنشقنا هواء الليل المنعش. اختبأت الإبل تحت شجيرات الغرقد الكبيرة والتي يبلغ ارتفاعها تسعة أقدام. كانت الدواب تتناول الشعير المخلوط بالقش المطحون كإضافة مغذية للطعام. ألقى الشيخ مفتاح صلواته المسائية مرتين على ثالث غنم نذبحه منذ انطلاقنا في رحلتنا.

في ليلة الرابع والعشرين من يونيه امتلأت حاوياتنا وشربت جِمالنا ماء منعشا، وبعد الثانية صباحا بقليل تركت قافلتنا الوادي الصحراوي المهجور. سرنا في الصحراء الحجرية عبر وادي جبل سُمارة ، الذي يظهر شرق المُغرة أعلى السهل الليبي الكائن بجانب باب فرانكفورت. وبدلا من اختيار طريق القوافل المعهود إلى الوادي الفارغ ووادي النطرون، فضّلنا الذهاب مباشرة إلى بئر مسيلخ من خلال الهضبة الصحراوية، ومن هناك نتجه صوب وادي النطرون. وجدنا بالطريق بقايا غابة متحجرة. إن أهم سمة في رأيي هي كثبان الحصى التي يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار، وتسلقنا بعضها لجمع العينات، التي لا يختلف حصاها عن حصى الراين، وهو من الأحجار الصغيرة، معظمها دائري الشكل ولونه أصفر شفاف، وقطره نحو ١ سم. على مدار اليوم عبرنا سلسلة من الهضاب المنخفضة التي لم يكن لها اسم، وعند الظهر نصبنا الخيام شرق جبل الفار المجاور لجريد اللبن ، بعدما خُدعنا بسراب بحيرتين متموجتين. ظننا أنهما حقيقتين فعلا لوجود بحيرات مالحة بوادي النطرون، بينما وضح الشيخ مفتاح التفسير الصحيح بقوله "هذا هواء فقط، وليس ماء".



علواني مع ماعز ترضع غزالا

في المساء ظهر لنا بالمخيم طائر الذعرة(*) ليرحب بنا وسط الصحراء القاحلة. وكما اتضح فيما بعد، فقد رأينا هذا النوع من الطيور كل مساء. وفي الليل كان يعوي

(*) طائر الذعرة Wagtail (الاسم العلمي: *Motacilla*) ويُعرف أيضا بأبي فصادة، وله جسد صغير وذيل طويل يحركه كثيرا إلى أعلى وأسفل. سمي بالذعرة لأنه يبدو خائفا (المترجم).

دوما "ابن آوى". في اليوم التالى، وبعد مسيرة قصيرة، رأينا الأربعة جبال ذوات الشكل المخروطي، والتي بدت كمخاريط البراكين، كان هناك اثنان منها منفصلين، والآخرين ملتصقين. أطلق البدو على هذه المجموعة المميزة اسم العليجة El-Lischa. كنا نرتجف من ندى الصباح على الرغم من أن درجة الحرارة في الرابعة صباحا وصلت إلى ٢٢ درجة مئوية. بدت الشمس في الأفق بينما التمع نصف القمر في السماء، وفي صحبتنا طائر الذعرة. مررنا بجبل شرف الذي بدا قريبا جدا من حافة وادي النطرون على خريطة يونكر. وهو يتكون جزئيا من ألواح الميكا الضخمة، ثم طبقات من الرمل مرة أخرى، ويظهر البازلت أحيانا تحت الضوء. إن للمنطقة التي تقع بين جريد اللبن ومقصدنا في بير مسيلخ أهمية جيولوجية كبيرة. اختلطت رمال الصحراء بصخور وحقول الميكا، ونما غطاء نباتي خفيف فوق الأرضية الصخرية، وتكون الألواح المفردة أحيانا ذات حجم هائل، وفي أحيان أخرى متداخلة بشكل كبير حتى يبدو وكأنها من عمل الإنسان. لم تكن التلال مجرد كثبان رملية، بل هي ذات شكل مخروطي وبينها شقوق عميقة تشبه فوهة البركان.

في اليوم التالي بلغنا بير مسيلخ. يقع البئر الجاف على هضبة صخرية كبيرة، وللجبل اسم مشابه. يقود مدخل ذو فتحة مربعة إلى خزان متوسط الحجم على عمق ستة أمتار. تحركت القافلة من بير مسيلخ في الاتجاه الشمالي أولا، ثم اتجهت شرقا. بعد عدة ساعات من المسير على الرمال والصخور بدأت تظهر علامات الغطاء النباتي ما يدل على اقترابنا من النهاية الشمالية لحافة وادي النطرون. إن طبيعة الوادي هنا تشبه طبيعة الحطية، فقد ظهرت الغزلان بأعداد أكبر، وكذلك قطيع من الإبل.

دام المسير بالصحراء الليبية من مُغرة إلى خشم العشي ثلاثة أيام. في السابع والعشرين من يونيو وجدنا أنفسنا ثانية أمام موقع مدينة قديمة، وآخر رمز متبقي فيها هو مبنى صغير للعبادة، قصر القطاچي.

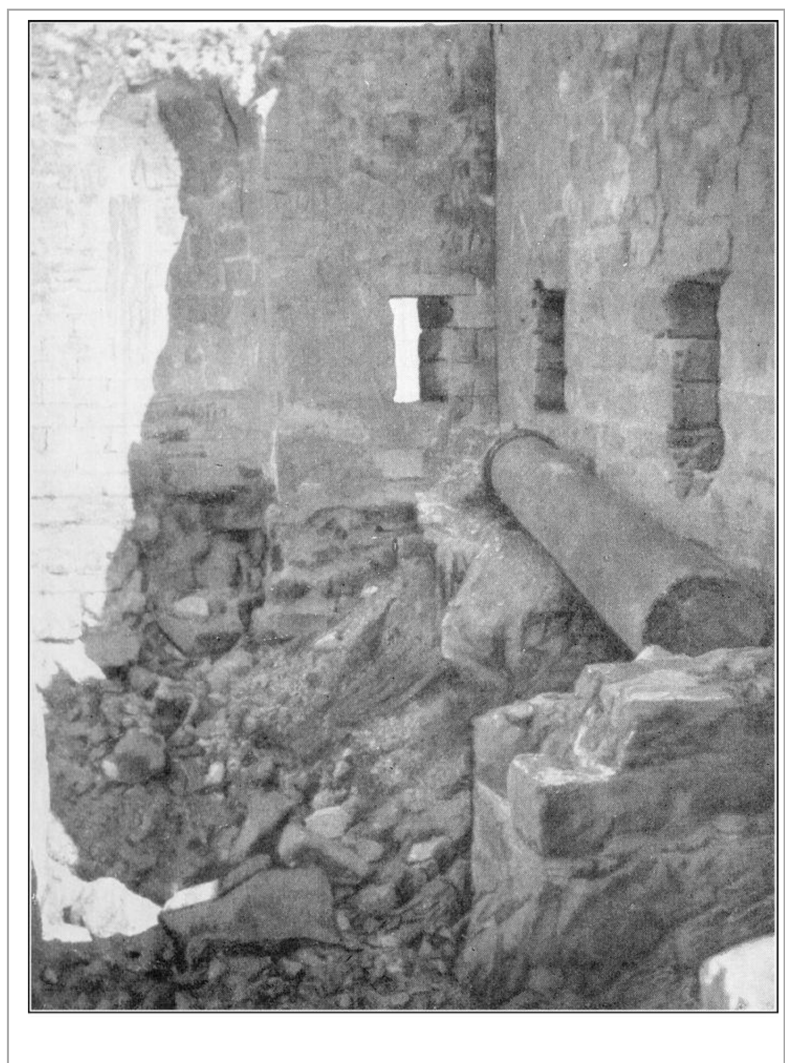


مشهد أمامي لقصر القطاجي مع مكتشفات رخامية في مقدمة الصورة

ساعدنا أبو سيف وعلواني طوال اليوم في أخذ القياسات ونبش الأطلال. تم الكشف بين أطلال عامود يبلغ طوله نحو ثمانية أقدام، وكذلك عُثر على كثير من القطع المعمارية المصنوعة من الرخام الأبيض الجميل. وكانت النقوش الوحيدة التي وُجدت بقصر القطاجي باللغة العربية المتأخرة، والقليل من الكتابات على الجدران لرحالة أوروبيين مثل: باشو(*)، وهو أول من زار هذا الموقع، وكذلك اسم دكتور جوتشليك

(*) جون ريموند باشو Jean-Raymond Pacho رحالة فرنسي ولد في مدينة "نيس" في جنوب فرنسا في ١٧٩٤ وتوفي شابا في باريس في ١٨٢٩. زار مصر وليبيا ورسم الآثار المسيحية في برقة ومرمريكا في ١٨٢٠ وقدم رسما دقيقا لعدة مناطق اندثرت اليوم وأهمها قصر القطاجي. كان ساحل مرمريكا قبل ألفي عام أكثر مطرا ووفرة في الزراعة والاستقرار كما كان طريقا للحجاج المسيحيين إلى المراكز المسيحية الشهيرة في المنطقة وأهمها مدينة القديس مينا (بو منا).(المحرر)

Gotschlick، وهو طبيب مشهور بالأسكندرية، وتعرفنا عليه في مكتب شيس باشا، وكذلك اسم دايفيد David، واسم آخر غير مقروء.



قصر القطاجي – عمود رخامي ومقصورة داخلية للصلاة

تبلغ مساحة قصر القطاچي الصغير نحو ستة أمتار طولا، وخمسة عرضا، وأربعة ارتفاعا، ويُتخذ في هذا العصر الحديث مسجدا. يمكن تمييز أساسات القبة، وكذلك المحراب.

الفصل الرابع

واحة بحيرات وادي النطرون

أو "ميزان القلوب"

في قلعة الرهبان بصحراء الملح [16]

[16] وهي المنطقة المحيطة بوادي النطرون، وغالبا ما يُطلق هذا الاسم على الجزء الذي تقع به أديرة المسيحية المبكرة، وتسمى هذه المنطقة باللغة القبطية صحراء شهيت *Šihēt*، وتعني "ميزان القلب" (المحرر).

إن وادي الملح، أو وادي النطرون، هو الرواية التي لا يتحقق منها سوى أولئك الذين قطعوا مسافة كبيرة بالمنخفض المحاط بالوديان والصحاري تحت شمس ليبيا الحارقة، الذي كان يحمل يوما اسم وادي الهبيب[17]. صباح الثامن والعشرين من يونيو وبعد مسيرة شاقة على القفار الصخرية، رأينا في الشجيرات البعيدة خيام سوداء اتضح أنها لبدو الجوابي[18]، ثم ظهر بعد ذلك أول بئر. هبّت نسمات لطيفة، وشعرنا بالانتعاش بين الغطاء النباتي الوفير.

وبعد تعب وبحث عاد عبدالعال إلى الحياة، وصدح بصوته الجميل على حافة الوادي متقدما القافلة، وهو يؤرجح بندقيته، وأنشد في إيقاع ثابت أبياته التى لا تنتهي[*]:

"حبك زي المنارة اللي نورها يضوي المدى،

زي النبع اللي تشوفه العين في الصحرا ويجلب مطر،

زي نهر فياض ما ينجو منه سبّاح،

زي النار اللي تأكل كل شي،

نشفت ينابيع الحب من زمان،

وما عادت تجري فيها الميه !"

---

[17] ذكره ياقوت الحموي في "معجم البلدان" باسم وادي هُبَيْب، نسبةً إلى "هبيب بن مغفل" وهو أحد عرب غفار من كنانة (هبيب بن حزام بن عفاف الغفاري وهو من عرب فزارة) وشهد فتح مكة، وقد هاجر إلى مصر في عهد الخليفة عثمان بن عفان لتجنب الفتنة، واستقر في وادي النطرون، فصارت المنطقة تُنسب إليه. أما المقريزي فذكره باسم وادي هَبِيب. (المحرر)

[18] عائلة الجوابي إحدى عوائل قبيلة الصناقرة المتفرعة من قبائل أولاد علي الأبيض، وتتمركز في مركز براني بمرسى مطروح. (المحرر)

[*] حرصنا على ترجمة هذه الأبيات بلهجة أقرب إلى لغة البدو ومفرداتهم (المحرر)

لا ينتمي وادي النطرون إلى الأماكن التاريخية المهمة بالصحراء الليبية فحسب، بل هو الأهم من الناحية الجيولوجية، فهو يتصل بواد متفرع منه إلى الجنوبي الغربي يسمى "الوادي الفارغ". يعتبر وادي النطرون أهم جزء في مصر عصر ما قبل التاريخ. وعلى الرغم من سهولة الدخول إليه، وتوافر أماكن جديرة باهتمام المتخصصين من كل المجالات، فقد أزالت بعثات صغيرة - ذات أهداف محدودة ومتواضعة - الغموض عن هذه الأرض الغنية بالمعطيات. سأذكر آخر الأبحاث التي أجرتها ألمانيا، والملاحظات الجغرافية والجيولوجية لبروفسور ستورمر Stromer من ريخنباخ، وكذلك النتائج التي يمكن الاطلاع عليها في دراسات جمعية سينكنبيرج Senckenberg للبحث الفيزيائي الموجودة بفرانكفورت. يذهب اهتمام معظم الزائرين إلى الأديرة القديمة ومباني شركة الملح. ولذا فهناك خرائط مفيدة مفقودة لحين تجاوز حدود البحيرات المالحة.

يقع مدخل وادي النطرون بالقرب من عاصمة الخليفة، بالقرب من أهرامات أبو رواش. بعد رحلة مدتها يوم كامل غربا على الصحراء والقفار الصخرية يتشعّب الوادي الفارغ ووادي النطرون، في البداية بشكل غير واضح ثم بعد ذلك بشكل أكثر وضوحا قرب دير الأنبا مقار. هبت الرياح على الجزء الشمالي الغربي من وادي النطرون ثم امتدت عرضا لأميال عديدة. إن أحواض الواحة المُحاطة بالصحراء تمنح، في تجاوب مع اتجاه الوادي، سلسلة من البحيرات يبلغ عددها أحيانا عشرة بحيرات، وذلك تبعا للفصل. تكاد تختفي جوانب الوادي ثانية في الهضبة المتبقية بالصحراء في الأماكن التى قمنا بزيارتها بخشم العشي، وبالقرب من قصر القطاجي، ويضيق الوادي بفعل البحر المتوسط. فهو يتحد مع الساحل عند وادي علم الحلفا، الذي كان يمثل نقطة البداية لرحلتنا إلى مُغرة.

يجب أن يُقارن الوادي المالح ككل بفرع نهري كان يُعد ذراعا ثالثا غربيا للنيل يوما ما انطلاقا من الدلتا بالقاهرة، وينتهي إلى البحر الأبيض المتوسط بين الأقاليم القديمة لمريوط ومرمريكا. إن ذكرى هذا النيل الذي كان موجودا في عصر ما قبل التاريخ

ما زالت حية في الصحراء. ليس فقط لأن مياه آباره تؤدى بالبدو إلى تكوين صلة مباشرة بـ"بحر النيل". يوجد بجنوب الوادي منخفض في الصحراء يحمل منذ دهور بعيدة اسم النهر الجدب، "بحر بلا ماء". في العهد الروماني كان يوجد نهر بالقرب من منطقة النطرون يُسمى ليكوس فلوفيوس Lycus Fluvius في المصادر الأصلية. فحتى لو كان هذا النهر مجرد قناة تستخدم لري الوادي وجزء من صحراء أولاد علي، فإن مسألة "بحر بلا ماء" (نيل ما قبل التاريخ) ما زالت يتعين حلها. وصلنا إلى الوادي لتحديد المسار المؤكد للنهر الجدب، والذي توجد به مجموعات من الأشجار المتحجرة.

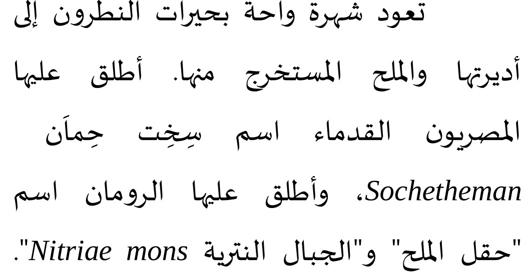
يعتقد بلانكنهورن ، الذي دوّن تاريخ النيل الليبي عصر ما قبل التاريخ، وعليه قام بدراسته ودراسة جيولوجية المنطقة، أن بقايا الغابات المتحجرة كانت الخشب الطمي للنيل القديم. في وقت لاحق، عام ١٩٠٦، عندما ذهبت إلى سيوة مع الخديوي مرّت قافلتنا بكثير من بقايا مخلوقات بحرية متحجرة، ومستعمرات من قنافذ البحر والمحار والشعاب المرجانية، وهي أشياء جذبت اهتمام الجغرافي القديم إيراتوستين. وأثبتت مثل هذه المصادر أن شمال الصحراء الليبية بالكامل كان عبارة عن قاع بحر في عصور ما قبل التاريخ. وفقا لبلانكنهورن، فإن المناطق (حيث يقع وادي النطرون، ومدينة القديس مينا، والأسكندرية) كانت بحارا داخلية في عصر البليوسين ، وظهرت منطقة غمر النيل الحالية فقط في العصر المسمى بالعصر المطير.

لقد حمل فحص بقايا العظام البحرية والنهرية من الشمال الغربي لليبيا نتيجة أوسع وغير متوقعة. يطيح عمل بلانكنهورن في هذا الاتجاه بالفرضيات القديمة القائلة بأن الثدييات الموجودة الآن بأفريقيا أخرجت الحيوانات البدائية من أفريقيا في فترة متأخرة، وأن أرض مدغشقر وحدها حافظت على عالم الحيوان الأصلي باعتبارها منطقة أفريقية منفصلة، وأن الظباء والفيلة وحيوانات وحيد القرن تجولت في عصر البليوسين من أوروبا إلى أفريقيا. لا أساس من الصحة لهذا كله الآن ولا يمكن الدفاع عنه بسبب العثور على عظام في منطقة النيل عصر ما قبل التاريخ ومصبه البحري، وهو ما يُظهر بما لا يدع مجالا للجدل أن أفريقيا هي الموطن الأصلي للحيوانات المعاصرة.



شاهد صخري منمنم للإله حورس

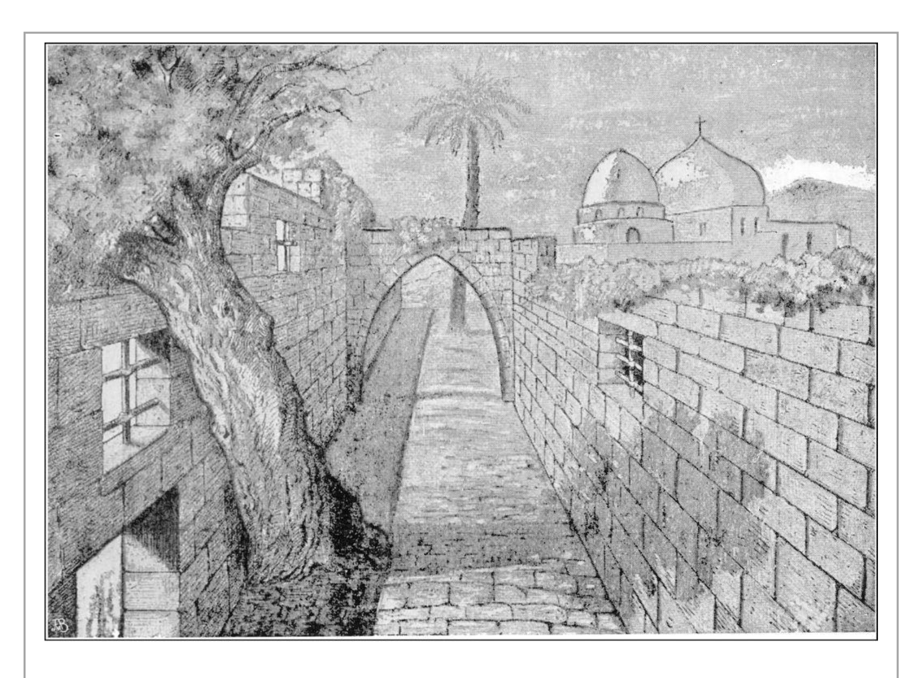
(من مدينة مينا)



تعود شهرة واحة بحيرات النطرون إلى أديرتها والملح المستخرج منها. أطلق عليها المصريون القدماء اسم سِخِت حِمَآن *Sochetheman*، وأطلق عليها الرومان اسم "حقل الملح" و"الجبال النترية *Nitriae mons*".

بدأت أديرة وصوامع العصر المسيحي تحل محل معابد الوثنيين. فتلك المنطقة الصحراوية الآن، والتي يدور فيها صراع مستمر مع الطبيعة بسبب الغطاء النباتي الضعيف، كانت في العصور المصرية القديمة أرضا خصبة تنتج ثمارا من كل الأصناف، منها الزيتون والكروم والحبوب. تسجل إحدى النقوش في المعبد الرئيسي بإدفو الآلهة التي تم تقديسها في واحة إقليم الملح، وتُذكر بها مدينة حورس، و"أقاليم إلهة الشجاعة"، و"مدينة الوادي"،

ومستوطنات أخرى لم يتبقَ منها الآن أى شيء بين الكثبان الرملية. كانت تقع مدينة حورس، ومعبدها والتمثال الرائع للإله حورس، في جبل أنوفر Unnofer الغامض، والذي كان يقصد به المصريون القدماء الأرض العالية في الصحراء.



دير السريان مع الشجرة المباركة للقديس أفرايم السوري

ولكن العصر الذهبي لتاريخ الوادي كان في فترة المسيحيين الأوائل. فقد نزح الكثيرون من وادي النيل إلى الصحراء تحت وطأة الاضطهاد، خاصة فترة اضطهاد المسيحيين في عهد الإمبراطور ديكيوس Decius (٢٤٩ - ٢٥١)، وهناك في الخفاء عاشوا حياة مقدسة. كان أهم رجلين في تاريخ الرهبنة لاجئين، وهما القديسين أمونيوس Amonius ومقَّار. كان القديس أمونيوس بطريرك الحياة الرهبانية المستقبلية بصحراء

وادي النطرون، كما كان يناظر أنطونيوس الناسك في صحراء طيبة(*). نشأ أمونيوس ثريا، وهجر زوجته بموافقتها من أجل تأسيس أول دير بالصحراء النترية، الذي عاش فيه الرهبان في صوامع منعزلة، وكانوا يجتمعون فقط من أجل العبادة والتأمل يوم الأحد (يوم الرب) وليلته. وفي الوقت نفسه عام ٣٣٠، لجأ القديس مقار إلى الصحراء حيث عاش وعلَّم بها الأتباع لمدة ستين عاما، وبنهاية القرن الرابع سجّلت هذه المجتمعات التي أنشأها رواد الرهبانية نحو خمسة آلاف شخص.

يتبقى فقط من "مئات الأديرة" التي ظهرت على مدار قرون من بعد هؤلاء الرواد أربعة أديرة، وهي: البراموس (دير الرومان)[19]، والدير السوري (دير السريان)، ودير الأنبا بيشوي، ودير القديس مقار. رأينا آثار بقية الأديرة، ودير ماريا للأحباش، ودير الأرمن. ذكر أحد الكُتاب العرب من العصر الوسيط من منطقة بعلبك، وكان يدعى المقريزي[20]، تسعة أديرة من بينهم دير القديس إلياس، ودير القديس جون كولوبوس، ودير الأنبا نوب. فإذا كان الرقم الذي أعطى الوادي اسم "وادي المائة دير" مبالغا فيه، فربما كان خروج ستين ألف راهب قبطي بسعف النخيل لاستقبال القائد عمرو بن العاص كافيا لإعطاء الانطباع الموحي بقوة الأديرة. وهنا على أية حال - وتتفق في ذلك جميع التقارير - كانت

(*) أي صحراء مصر الشرقية، ويقع الدير على المنحدرات الشمالية لهضبة الجلالة القبلية مطلا على وادي عربة الذي ينتهي إلى منطقة الزعفرانة على البحر الأحمر (المحرر)

(19) والمقصود بالرومان الأخوان القديسان مكسيموس (مؤسس الدير) ودوماديوس، وكلاهما ابنا الإمبراطور الروماني. (المحرر)

(20) أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين المقريزي. يعود أصل عائلته إلى بعلبك (وهي مدينة لبنانية تقع في قلب سهل البقاع بلبنان) ونسبته إلى حارة المقارزة (من حارات بعلبك في أيامه). ولد ونشأ ومات في القاهرة. من مؤلفاته التي زادت عن المئتين: تاريخ الأقباط، ورسائل المقريزي. ولد المقريزي وتوفي في القاهرة (٧٦٤ هـ ٨٤٥ هـ) (١٣٦٤م - ١٤٤٢م) (المترجم).

المستوطنات الرهبانية على امتداد كبير، ومن أسف أن سيوف المحمديين دمرت كل آثار مجدهم القديم(*).

لسوء الحظ كدنا نفقد شيخنا مفتاح في الليلة التي تسبق وصولنا إلى الوادي الفعلي. لقد ذهب وحيدا لاصطياد غزال، وتأخر كثيرا في تلك الصحراء الحصوية (المعروفة باسم السرير). كانت خيمتنا المنخفضة ونيراننا الهزيلة بالكاد مرئية في الليل، بسبب افتقارنا للوقود المكون فقط من روث الإبل الذي جمعناه أثناء المسير وجففناه في الشمس بعد مسيرة آلاف الخطوات. حاولنا إشعال النيران كي ملفت انتباه مفتاح ليتعرف على موقعنا، ورغم التضحية بالكثير من الأوراق فشلت أبسط الوسائل المتبعة في تلك الحالات، وهي إطلاق نيران البندقية عموديا، التي تجمع بين فائدتي رؤية وابل النيران الصاعدة، والصوت الحادث الذي يمكن سماعه من على بُعد. كان من المنتظر أن يجيب مفتاح، المزوّد بذخيرة، على أول طلقة. حين حلّ الظلام ولم يعُد الشيخ بعد ساورنا بعض القلق.

تشاورنا فيما يجب فعله ورجحنا أن يكون قد ضلّ الطريق مستبعدين فكرة أن يكون قد باغته أحد أعراب قبيلة الجوابي. وجد علواني، الذي يعرف كل شيء وأثبت ذلك باستمرار، مخرجا من هذا المأزق. طلب كمية كبيرة من ورق الجرائد الذي كنا نأخذه معنا لنستخدمه يوميا كمناديل ومفارش للمائدة وللتغليف. وبعد ذلك سار بجمله بعيدا في الصحراء قدر ما يستطيع دون أن يفقد طريقه، وتركني ممسكا بالجمل، ثم صعد فوقه وأطلق رصاصة في الهواء، وعندما لم يتلقَ إجابة، ألحقها برصاصة ثانية. انتظرنا كثيرا في صمت مطبق وظلام شديد بلا جدوى. والآن جاء دور ورق الجرائد. قام علواني

(*) يخلط المؤلف هنا بين "المسلمين" الذين يسميهم المحمديين وبين الأعراب البدو الذين كانوا يغيرون على الأديرة طمعا لما فيها من خيرات يفتقرون إليها في الصحراء القاحلة. وكانت غارات هؤلاء الأعراب لا تقدس حجاجا مسلمين عبر الصحراء إلى مكة ولا أديرة مسيحية في الصحراء. (المحرر)

بتثبيت حزمة كبيرة من الأوراق في فوهة بندقيته، ثم أشعل فيها النار، وحرّك الشعلة ببطء عاليا في الهواء في نصف دوائر عريضة. انتظرنا في صمت وترقب، ولكن مفتاح دوبان لم يستجب. كان علوان هادئا. بينما اعترانا نحن القلق أن تسبب هذه العوارض خطرا على بعثتنا، فقد ظل معتليا تمثاله الحي ملوحا بشعلته، وأطلق النار كل خمسة دقائق. وبعد الرصاصة الخامسة عشر جاءنا رد من مسافة بعيدة. فقد سمعنا مفتاح، وبفضل هذه الإشارات المفيدة، عاد إلى المخيم بعد ساعة تقريبا، ولكن بدون أية غنائم.

بعد مسيرة ست ساعات، خيّمنا قرب خيام الجوابي التي سبق ذكرها. بالقرب من بئر لا يزيد عمقه عن حفرة مليئة بالمياه، تشبه تلك الموجودة في المغرة حيث نمت بعض الشجيرات وقليل من الكلأ للإبل. كانت المياه الموجودة بالبئر غير صالحة للشرب تقريبا. كان ابن عمي منهكا، ومستلقيا بالخيمة التي بالكاد وفرت حماية من الرياح التي حرّكت الرمال الناعمة. قمت بزيارة إلى الخيام السوداء، وهو ما يعتبره "الحريم" حدثا. وللتعرف على الشخص الغريب، قاموا بإحضار الأطفال المرضى إليه، وفي النهاية أحضروا طفلا معافىً عاريا وطفلة صغيرة. واشتريت منهم بتسعة شلنات غنمًا لابن عمي، الذي كان يعاني في الوادي أعراض الزحار[21].

بينما كنا جلوس أمام الخيمة - التي يمكن منها رؤية جبل الحديد الممتد من الشرق إلى الغرب - أحضرت لنا سيدة بدوية ولدها، وبلا اعتناء وضعته على ركبتيّ وقالت: "يا فندي، داويه !". فقد كان يعاني من القئ منذ عدة أيام ولكن درجة حرارته كانت مطمئنة. استعنا كثيرا بالأدوية التي أحضرناها من الإسكندرية، وفرح الطفل بعلبة صفيح فارغة كانت معنا. عمّت في المساء فرحة عارمة بين خيام الجوابي لتوقف قيء الطفل،

---

[21] أو يُطلق عليه اسم ديزنتاريا Dysentery، وهو التهاب واضطراب في الأمعاء، خاصة في القولون، يؤدي إلى إسهال شديد مصحوب بالدم والمخاط في البراز (المترجم).

فجاء الشيخ أبو ريش ومعه بقية القبيلة لشكرنا. وأحضر لنا هديتين ثمينتين هما الحطب، ولبن ماعز طازج.

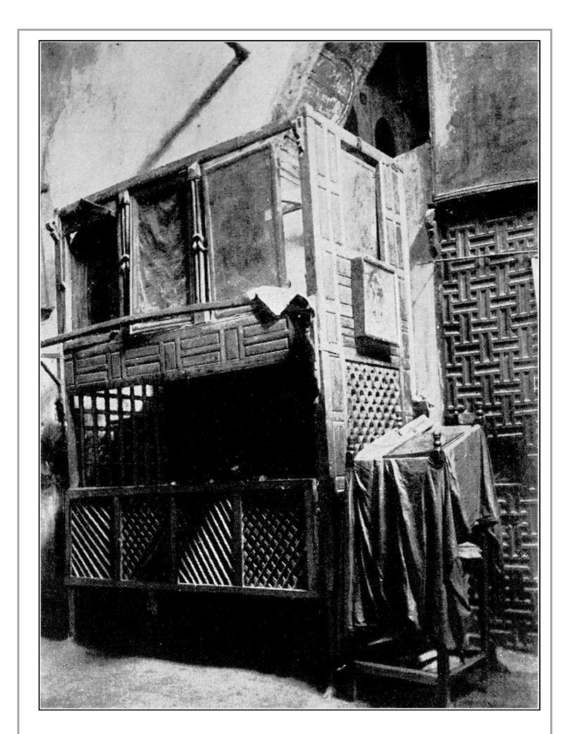
بعدما قضينا ليلة عصيبة (لأن أي منا لم يفكر في قرب المسافة بيننا وبين البحيرة المالحة وبعوضها المفترس الذي عذّبنا بوحشية) هبّت عاصفة رملية شديدة حوالي الساعة الثالثة صباحا، دامت لعدة ساعات، وجعلتنا نستحم مبكرا في البئر - الذي يبلغ عمقه نحو خمسة أقدام ولا يزيد قُطره عن عمقه- قبل أن يقلدنا رجالنا.

وبعد ذلك قضيت أنا وابن عمي عدة ساعات في استكشاف المنطقة المحيطة. انتشر خبر وجودنا، وعندما حان وقت انطلاقنا بحلول الحادية عشر تقريبا، ظهرت مجموعة غريبة من البدو بصحبة مرضاهم بقيادة الشيخ أبو ريش، وبينهم أكثر الحالات غرابة. أظهرت امرأة يدها اليمنى المنزوية، والتى بدت وكأنها جزء من مومياء، وبدا أنها ستنكسر لو لُمست. دهن ابن عمى مرهما على تلك اليد السوداء الضامرة، وواسى المسكينة التي لا سبيل إلى شفائها، وكما اعتاد أن يفعل مع الشباب والأطفال، فقد لمس جبين المرأة النصف محجبة ورسم فوقها رمز الصليب. شعرنا بالأسف الشديد أننا لسنا أطباء. وكذلك لم نستطع فعل أي شيء للمرأة التي كان يُعاني ابنها من إعتام عدسة العين.

في النهاية تركنا المخيم على نغمة طلقات الرصاص ونسمة شمالية غربية، كنا بصحبة الشيخ أبو ريش بينما فتّش الأولاد في الرمال بحثا عن الأشياء الرائعة التي خلّفناها كالعبوات الفارغة وغيرها، وكذلك أعقاب السجائر. سبقنا عبدالعال لنقل تحيتنا لبعض الخيام.

وبعد ذلك في الثلاثين من يونيو وصلنا إلى جبل منعزل يُسمي عين الحِد والذي يظن كوفمن أنه المكان الذي كان فيه دير الأنبا برنودي Mont Pernudj الذي تشير إليه

المصادر القبطية. قبلها بعدة ساعات مررنا بزاوية جماعة السنوسية العدوانية بالقرب من خيام "الحنيشات"، ثم ظهرت أولى البحيرات المالحة، والآن نمر بمباني "الشركة": أي شركة الملح في بير هوكر.

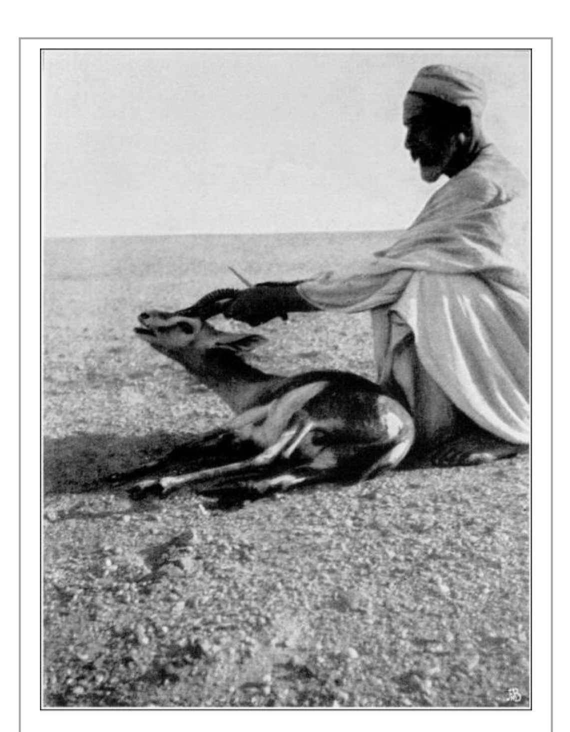


ضريح الأميرين (دير البراموس)

كانت السابعة مساء عندما خيمنا هناك على الحدود العليا للصحراء. ألقى علينا البدو التحية بالطريقة المعتادة. بجانب العلم الألماني، رفعنا العلم المصري الذي جلبناه معنا، وهو عبارة عن هلال ونجمة في خلفية حمراء، إرضاءً لمدير الشركة "بن سليم"، الذي حملنا له خطابات ودية تعريفية. لم نتوقع أننا قد ننكس تلك الأعلام بهذه السرعة. زُرتُ في المساء مكاتب شركة الملاحات (شركة سالين Saline)، والتي وجدناها مغلقة. كان المدير هو رئيس الشركة، وكبير مسئولي المنطقة.

وهنا استقبلنا أخبارا محزنة، فالسيد بن سيلم، المسئول الذي تحترمه المحافظة كلها، وافته المنية في اليوم السابق متأثرا بالزحار، وقد كان جثمانه بالفعل في طريقه إلى الأسكندرية. "صرخت باسمه في الصحراء، ولكنه لم يسمعني" كما يقولون في المرثية العربية.

في اليوم التالي بدأنا بزيارة دير البراموس، وهو أكبر وأهم أديرة النطرون، بصحبة شيخنا مفتاح دوبان، بينما انتظرنا الباقون لرعاية المؤن وسقاية الإبل.



الشيخ مفتاح يذبح غزالا

مررنا بالأبنية الحديثة الواسعة لمصنع الملح، وبعد ذلك قادنا الطريق مباشرة إلى سور السكة الحديد لخط الفرع الصغير، وهو مبني من قشرة الملح الصلب، ومثُبت بأكياس الرمل. كان السطح البرّاق يلمع كبلورات جليدية ناصعة، وتباينت أحواض الماء ذات اللون الأحمر القاني مع الأعشاب الخضراء العملاقة التي كست الضفاف. مررنا بالثكنات التي يسكنها البدو المشاركون في أعمال الملاَّحة وأطلال مسجد وضع الخديوي حجر أساسه وسط احتفالية كبيرة منذ خمس سنوات، وبقى على هذا الحال منذ ذاك الحين، وبعد مسيرة قصيرة عدنا ثانية إلى الصحراء.

بلغ اتساع وادي النطرون في هذه النقطة نحو ١٠٠٠ متر. يعيش في هذا الوادي - الوسيع المثير للاهتمام ببحيراته العشر والتي يجف بعضها بسبب حرارة شمس منتصف الصيف – ٥٠٠ نسمة، أغلبهم من العرب والبدو، و ١٢ أوروبيا فقط. بجانب تسميته بالوادي المالح، فإنه معروف أيضا باسم "ميزان القلوب"، أو "وادي الجفار"؛ لأنه حيث

تؤخذ الإبل لمعالجتها من مرض الجفار، أو سهل شهيت والإسقيط وغيره. ويحمل ذلك الجزء من الصحراء الليبية الشاسعة، والذي يقع بالقرب من حدودها، اسم الصحراء النترية.

في دير البراموس

بعد مسيرة ثلاث ساعات تقريبا وصلنا إلى دير البراموس. كنا بالفعل نرى في الأفق جدران قلعة الرهبان العملاقة من على بُعد. توقفنا بعيدا عن الدير بضع مئات الأمتار لتنزيل أسلحتنا، وهو ما نتج عنه سوء تفاهم غريب. راقبنا حرّاس الدير لفترة طويلة من خلال ثغرة في الأسوار، وزادت شكوكهم نحونا بعد إجراء تنزيل الأسلحة. بحلول الثانية عشر دق جرس البوابة الحديدية الصغيرة المبنية في عمق الجدار العملاق، سمعنا أصواتا كثيرة تتحدث اللغة العربية خلف البوابة. سلّمتُ أوراقنا من خلال فتحة، وقلت بالعربية أنه يجب إعطاؤهم لرئيس الدير. قالوا "من أنت؟"، بينما تم إرسال راهب يتحدث الإنجليزية قليلا. أجاب ابن عمي: "كاهن ومُدرس، جاءوكم من ألمانيا البعيدة، يرغبون في نيل بركاتكم، ومشاهدة الدير الشهير."، أجاب آخر: "لا نستقبل الزوار في الصيف"، وأضاف آخر بسرعة: "إن معكم عربيّ، ماذا يريد؟" بعدما نالوا ردا مُرضيا، وافقوا على إخبار رئيسهم بوصولنا.

وبعد ذلك انزلق مصراعا عاليا في الجدار وحدّثنا المتحدث باللغة الإنجليزية وسأل عدة أسئلة أخرى، وعلمنا فيما بعد أنه الراهب المبتدئ الذي داوم بالمدرسة الإنجليزية بالقاهرة. كان لديه تساؤلين ليقبل دخولنا، أولهما شأن تنزيل الأسلحة، وثانيهما الموسم غير الاعتيادي للزيارة. وفي النهاية نلنا موافقة رئيس الدير.

انفتحت البوابة الثقيلة، واستقبلونا بنظرات متفحصة من وجوه ملتحية، والتحية العربية المعتادة، والتي تخللتها اعتذاراتنا والعديد من الأسئلة الفضولية. قمنا

بتسليم كل أسلحتنا لأحد الرهبان وتبعناه إلى المندرة (غرفة الاستقبال)، والتي وصلنا إليها من خلال حديقة نخيل غنّاء. وعلى الرغم من الإجراءات الأمنية وتأثرهم بواقعة العربي الذي أطلق النار على راهب منذ عدة أسابيع، فيجب عليّ أن أعترف أن المعاملة الطيبة التي عوملنا بها في دير البراموس كانت تعويضا جيدا.

خُيل إليّ أن أديرة الأقباط أنصار الطبيعة الواحدة كانت أسوأ حالا. ويظل دير البراموس استثناء. ومن بين ثلاثين راهبا في الوادي يفهم القليل منهم لغة أخرى بجانب اللغة العربية. فمثلا الأنبا جابريل، رئيس الكهنة أو رئيس الدير، يعلم اللغة القبطية جيدا، ولم يميز نفسه كثيرا عندما ثبتت معرفته بالمخطوطات اليونانية والقبطية للرهبان. إن اللغة القبطية هي لغة الطقوس عند الأقباط، ولكن حتى الكهنة يفهمونها فقط بمساعدة ترجمة باللغة العربية المكتوبة بجانبها.

منذ عدة قرون أصبحت اللغة العربية لغة حديث الرهبان في وادي النطرون وفي أماكن أخرى. قادونا إلى المقاعد بغرفة الاستقبال، وجلسنا على الطريقة العربية، واحتسينا القهوة المعتادة، وتبادلنا التحيات مع الأنبا جابريل، الرئيس الشاب لجماعة الرهبان. لن أذكر وجبة العشاء التي قدّمها لنا، والمكونة من كل المقبلات وألذ أطباق المطبخ العربي، وتناولناها بالطريقة العربية، أي بالأصابع بدلا من الشوكة والسكين. انضم إلينا الأنبا، على الرغم من صومه، وانتظرنا الرهبان المبتدئون على الطاولة وأبعدوا عنا الذباب بالمراوح اليدوية. يتكون طعام الراهب بشكل عام من الخبز والعدس والبصل والتمور ، تماما كطعام البدو. وما لا توفره الأراضي يمكن شراؤه من وقت لآخر من قرى وادي النيل.

أثناء استكشافنا للدير، وهي جولة استمرت لمدة أربع ساعات، أحسن الأنبا جابريل معاملتنا. سمحوا لنا بمشاهدة أشياء كان من المعتاد إغلاقها في أوجه الزائرين. ردد الرهبان مرارا: "نحن الأقباط أقرب إليكم فيما يخص القداس وطقوس الكنيسة

الأصلية". ردًا على تساؤل عن عدم انضمامهم إلى كنيسة روما كما فعل كثير من إخوانهم على مر العقود الأخيرة، قالوا: "ماذا سيحل بممتلكاتنا وممتلكات أبينا بالأسكندرية؟". كانوا يقصدون البطريرك الذي يحمل لقب "البابا المقدس وبطريرك مدينة الأسكندرية وكل مدن مصر والقدس والنوبة والحبشة والمدن الخمس، وجميع الأراضي التي بشّر فيها القديس مرقص". ويتم اختياره غالبا من إحدى أديرة صحراء الملح.

حمل الرهبان المبتدئون أوعيتنا وآلات التصوير بلا كلل. تمكنا من الدخول إلى أنقاض مكتبة كانت ذات قيمة فيما مضى، وبقدوم المساء جهزوا لنا الحمَّام، وهو ما رفضنا استخدامه عندما فوجئنا بأنهم أحضروا جرن المعمودية لنستعمله.

أوضح الرهبان أن البراموس هو الدير الأكثر ثراءً من بين الأربعة أديرة القبطية الأخرى الموجودة بصحراء النطرون والتي صمدت وحدها من بين عدد كبير من الأديرة. يحيط الغموض بأصلها. اشتق الرهبان اسم الدير من أبو موسى، وكان لصا زنجيا قويا، بربري النسب، واعتنق المسيحية بعدما قتل مائة رجل، وألّف عدة كتب بصفته راهبا. كان ممن يصومون الأربعين يوما بدون تناول أي أطعمة. واشتق آخرون اسم هذا الحصن الرهباني من با Ba - أو پا Pa - روميوس Romeôs، وأنشئ كدير للقديسين "الرومان": مكسيموس ودوماديوس.

يبلغ طول الجدار الخارجي المكوّن من ثلاث طبقات، والمرتكز على أعمدة داخلية عالية، نحو ٥٠ مترا، وكذلك يبلغ عرضه تقريبا. توجد شرفة المراقبة وكذلك فتحات التجسس تحت الأسوار، يؤدي السير من مناطق معينة إلى شرفة خاصة. وبذلك وصلنا إلى القصر بطرق مختلفة، فصعدنا سلالم، وعبرنا جسرا متحركا، وكان القصر عبارة عن برج حصين به العديد من الغرف والزنازين. من بين العديد من الغرف، توجد كنيسة مكرسة للقديس ميخائيل. في سياق زياراتنا اكتشفنا أن الأديرة النترية الأخرى فضّلت وضع كنائس القديس ميخائيل في أماكن عالية من المباني. لم يتبق سوى عدد قليل جدا

من جملة بقايا المخطوطات التي رآها بتلر Butler في إحدى الغرف المجاورة، والتي احتوت أجزاءً من أعمال عديمة القيمة باللغتين العربية والقبطية المتأخرة. أحضر لنا الرهبان قنديلا من الفخار المصقول، الذي بدا قيّما وقديما، حتى أننا فكرنا في شرائه. وفي غرفة ثالثة تحت الأرض كان يتم تخزين فواكه مجففة، والتي تشبه البازلاء، لتستخدم كطعام في حالات الضرورة القصوى: كالمجاعة، وأوقات الخطر.

من شرفة البرج العظيم انبسط أمام العين بحر الصحراء اللامنتهي. كم اقتربنا من مواطن جمال هذا البحر، وكذلك من مواقع أخطاره، وقد حمل لنا دوما ألغازا جديدة! قطعنا تلك الصحراء في ليال باردة تحت ضوء البدر، وسط عواء الذئاب الجائعة والضباع الجبانة وابن آوى، وتحممنا تحت أشعة الشمس القوية في درجة حرارة عالية، وجرّ الرجال أنفسهم والدواب وهم في غاية الإنهاك عبر السهل الممتد للوصول إلى البئر التالي. وقد كنا على دراية بموجات رياح السموم[22] الغامضة، وكذلك بالعواصف الباردة لبحيرات الواحة الخادعة المحاطة بالنباتات. وتحدث إلينا تاريخها، تاريخ الصحراء منذ آلاف وآلاف السنين، حكى لنا عن تفاصيل تمتد من المنحدر الحاد لأودية سُمارة، بتلالها المثيرة للفضول وأشجار غاباتها المتحجرة العملاقة، إلى العظام البيضاء لأرقى حيواناتها، والتي فقط غالبا ما وضحت الطريق الذي مرّ به آخر من سبقونا. وهنا تماما على سطح البراموس، ألم يمر جزء صغير من تاريخ الأرض والبشرية أمامنا حيث نظرنا على امتداد السهل الرملي؟ هناك بالأسفل، في اتجاه الوادي، كان يفيض فرع مهم للنيل في عصور ما قبل التاريخ، وهناك، كانت تمتد طرق القوافل في عصر ما قبل التاريخ، وفي وقت لاحق كانت طرق حج الشعب الفرعوني العظيم. وهناك ظهر لأول مرة الزاهد الغريب، المتدثر برداء الفقر والحكمة، الذي بنى الجدران فوق الأسوار مع مسيحيين أجلاء

[22] السموم أو رياح السموم رياح عنيفة حارة قد تتجاوز حرارتها ٥٤°، وهي كذلك جافة حيث تقل رطوبة الهواء عن ١٠ % (المترجم).

ناكرين لذواتهم حيثما وقفنا. ولكن الصحراء انتصرت على الحكام العتاة أيضا، كما لم تسمح لأعظم حُكام العصر الحديث، ذلك القرصان الجرئ الذي قاتل في معركة بوادي النطرون، بالبقاء هناك. إن الصحراء صورة للخلود، وهو ما لا يتغير في رأي الفيلسوف.

عزز الرهبان الكرماء مخيلتنا بلفت انتباهنا إلى البهاء الخفي، وأثروا معرفتنا بقصص غريبة ذات صلة. قال رئيس الدير الصالح: "إن أرضنا قاسية"، ولكن تعبيرات وجهه كانت لطيفة ومهذبة. منعت الشمس الرجل من كل رغباته بالتفلسف، فهو لم يكل أبدا من التعبير عما تفعله به الرغبة المؤلمة بالعودة إلى أهله. لقد أخفى دير البراموس رجلا، ما زال غريبا وحيدا بين أشخاص اجتماعيين في هذا الوسط المنقطع عن العالم. فهو هادئ منعزل في هذا السكون! حكيم وسط اضطراب الصحراء! قديس موهوب وسط الرهبان قليلي الفكر والاهتمام. يا لها من شخصية طموحة ينقصها الشغف، شخصية قوية متفردة لرجل نبيل!

دخلنا الكنيسة الرئيسية قبل أن يأخذنا الكهنة والأخوة إلى سطح القصر. لم يكن رئيس الدير موجودا. شرح لنا نفس الراهب المبتدئ بإنجليزية متواضعة المعلومات الضرورية. كنا بانتظار الكاهن الأعلى بجناح الكنيسة المقابل للهيكل[23]. دخل علينا مرتديا حلة جديدة. قال لنا بطريقة مدهشة إن القس قادم، ويود أن يراكم.

حين تجمّع الرهبان في نصف دائرة تقدم رئيس الدير والضيوف فعمّ صمت عميق. توجهت كل الأعين إلى الباب، إلى العتبة التي ظهر عليها ذلك الشخص المدهش، مرتديا عباءة بنية فضفاضة، وعمامة سوداء على رأسه. بدا وكأن القس يجسّد أكثر الرموز إخلاصا وإبهارا في تاريخ المسيحية المبكرة، والذي منحته الشمس الأفريقية نبلا ولطفا وطاقة وحب غير مشروط للإنسانية. كان ليعثر فيه أي رسّام على نموذج مثالي

[23] حيث يقع المذبح الأعلى (المؤلف).

للسيد المسيح. عندما جلس استقبله الرهبان بحفاوة. علمنا منهم فيما بعد أن الأنبا جون، سليل عائلة كريمة أرستقراطية من الأسكندرية، وكان قسا بالحبشة لسنوات عدة، وارتبط هنا بدراسة التقشف وسجل القديسين. ونتوسم فيه أنه ربما يكون البطريرك المستقبلي للكنيسة القبطية.

تتكون الكنيسة الرئيسية، من صحن وممرات، تتحول في الهيكل إلى ثلاثة مذابح مزخرفة. تفصلهم الأبواب المنطبقة عن الكنيسة ذاتها، وبالقرب من مدخل الدير يوجد صندوق الذخائر[24]، وكذلك جسدي القديسين مكسيموس ودوماديوس. كان هذان الرومانيان، كما كان يُطلق عليهما، أبناء الإمبراطور اليوناني ليونتيوس Leontius[*]. إن قصة اختيار مكسيموس، الذي عاش حياة تقية للغاية، ليكون بابا روما مشهورة، وكذلك تخليه عن هذا الشرف وذهابه هو وأخوه دوماديوس للإبحار وتكريس حياتهما للرهبنة بالصحراء الليبية. يذكر السنكسار القبطي[25] قصة وصولهما، وحياتهما، ووفاتهما بوادي النطرون في السابع عشر من طوبة على النحو التالي:

"لقد جاءوا هنا إلى القديس مقار وأخبروه برغبتهم في الإقامة معه. ولما رأى أنهم من أصل أرستقراطي ظن أنهم لن يستطيعوا تحمل الإقامة بالصحراء، وشرح لهم صعوبة الحياة بهذا المكان. ولكن أجابوه بقولهم: " إن لم نستطع البقاء معك يا أبانا، فسنمضي إلى مكان آخر" ثم أرشدهم في طرق التلال الرملية، وأراهم أحد الأودية، وعلّمهم كيف يبنوا لأنفسهم كهفا، وأرشدهم لمن يشتروا منه الخبز ومن يبيعوه أعمالهم".

---

[24] صندوق لحفظ رفات ومتعلقات القديسين (المترجم).

[*] توفي في عام ٤٨٨ م. (المحرر)

[25] كتاب يحوي سير الآباء القديسين والشهداء وتذكارات الأعياد وأيام الصوم، مرتبة حسب أيام السنة، ويُقرأ منه في الصلوات اليومية، ويستخدم فيه التقويم القبطي والشهور القبطية (ثلاثة عشر شهرًا) (المترجم).



صورة رئيس الدير (أسفل يسار الصورة) وكهنة الدير القبطي لدير

قضوا هناك ثلاثة أعوام دون مخالطة أحد. ذهبوا إلى الكنيسة للاحتفال بالقربان المقدس[26]، ولكنهم التزموا الصمت طوال الوقت. تعجّب البابا أبو مقار من بقائهم بمعزل عنه طوال هذه المدة، وتمنى من الرب أن يريه تفسير فعلهم. صعد إليهم وقضى معهم الليلة. عندما استيقظ بمنتصف الليل رأى القديسين استيقظا للصلاة. وكأن حبلا مقدسا يصل بين فيهما والسماء، وأحاطت بهما الشياطين كالذئاب الجشعة، ولكن ملاك الرب أبعدهم بسيف من نار. وبمجرد طلوع النهار ألبسهم الرداء المقدس،

[26] سر الإفخارستيا أو سر التناول Eucharist، وهو أحد الأسرار الكنسية السبعة. وكلمة إفخارستيا تعنى شكر وهى تنقسم لمقطعين إف + خارستيا. "إف" تعنى جيد وحلو و"خاريس" تعنى نعمة (المترجم).

وودّعهم وطلب منهم الدعاء. انحنوا له في توقير وتبجيل دون النطق بأية كلمة. عندما انتهت رحلتهم هنا، وأراد الرب أن يتركوا هذا العالم ويستقروا في الراحة الأبدية، مرِض الأخ الأكبر. أرسل إلى أبو مقار وطلب حضوره. عندما وصل إليه وجده محموما، فأراحه وهدأ روعه. ثم رأى البابا أبو مقار مجموعة القديسين والأنبياء والحواريين، من بينهم يوحنا المعمدان والإمبراطور قسطنطين تنزلّوا وأحاطوا بالقديس حتى فاضت روحه في شرف وفخر. بكى القديس أبو مقار وقال: "طوبى لك يا مكسيموس!". بكى دوماديوس بكاءً شديدا، وطلب من القديس أبو مقار أن يتوسل السيد المسيح ليجمعه بمكسيموس، ومرض دوماديوس بعد وفاة أخيه بثلاثة أيام. أخبروا القديس أبو مقار، وبينما هو في طريقه إليه شاهد مجموعة القديسين التي ظهرت عند ارتقاء روح أخيه مكسيموس، فقد أخذوا الآن روح دوماديوس واصطحبوها بالمدائح والترانيم إلى السماء. عندما وصل إلى الكهف وجد أن دوماديوس قد توفّي، فدفنه بجانب أخيه. انتقل مكسيموس في الرابع عشر من طوبة، ولحقه دوماديوس في السابع عشر من نفس الشهر. أمر القديس أبو مقار بإطلاق اسميهما على الدير، ولذلك فهو يُسمى كذلك إلى الآن، وستخلد ذكراهم إلى الأبد في السماء والأرض كلها." وانتهت الرواية في سجل القديسين.

يزين ضريح القديسين لوحات متنوعة مرسومة بطريقة الصبغ[27]. على الجانب يوجد مدخل الهيكل، ومكتب للقراءة. كان المذبح المربع العالي بالمحراب الكبير لقدس الأقداس مكشوفا، وأرانا الرهبان ما يُسمى بالخشب المقدس، وهي لوحة خشبية قائمة الزاوية منقوش عليها صلبان وكتابات، محفورة على الجزء العلوي من المذبح[28]، واقرضهم إياها بطاركة الأسكندرية.

---

[27] الرسم بالطلاء Tempera، وفيه يتم استخدام مواد زلالية (مثل صفار البيض) بدلا من الزيت (المترجم).

[28] خاصة الطاولة المركزية mensa التي يوضع عليها أدوات وعناصر سر الإفخارستيا (المترجم).

كان يوجد قبة فوق كل محراب. عثرنا في أجزاء مختلفة من الدير على آثار من العصور الرومانية، كتيجان الأعمدة وعتبات الأبواب. أما جرن المعمودية الذي سبق ذكره فقد كان برواق الكنيسة. أرانا الأنبا جابريل الزجاجة الكبيرة التي تحتوي النبيذ المقدس المعصور بيد الرهبان، وهي موجودة بقبوٍ ملك للكنيسة. وكان من أحد الكنوز القيّمة بالدير زجاجة أمفورا تحتوي نبيذا عمره نحو خمسين عاما، الذي عرضوا علينا القليل منه لنتذوقه. ذكّرنا ذلك بنبيذ مالاجا Malaga العتيق. وفي نفس الغرفة احتفظوا بزيت الميرون المقدس مخبئا في كوة بالحائط. وبعد ذلك زرنا أهم غرفة طعام بالدير، وغرفة إعداد الخبز المقدس وغير ذلك من المخبوزات، والكنيستين الصغيرتين اللتين تحملان اسم مار جرجس والأمير تواضرس.

كان هناك مشاهد مثيرة للاهتمام عندما التقطنا صورا للمجموعات المقيمة بالدير في ظل بستان النخيل. أضاف اختلاط اضطراب وغرور الشباب، بالجدية المفرطة ومظاهر تحمل المسئولية لدى من هم أكبر سنا شعورا بامتزاج السعادة والحزن في الصور. دُعينا إلى تصوير حظيرة الدير، واندهشوا كثيرا عندما وجدنا أن أكثر ما يثير اهتمام المقيمين، ونادرا ما يكون موجودا في الصحراء، لا يستحق أن تتناوله آلة التصوير. عندما استعجل الشيخ عودتنا، اعتذرنا عن قبول دعوتهم بقضاء الليلة رغبة في بلوغ مخيمنا المكشوف، رافقتنا المجموعة بأكملها إلى خارج البوابة تدعو لنا بالبركات. كان الوقت قد تأخر كثيرا عندما وصلنا إلى المخيم.

في دير السريان

بعد المسير عدة ساعات جنوب شرق دير البراموس، وبجانب إحدى البحيرات المالحة المسماة بحيرة رازونيا Rasunia(*)، يوجد دير ماريا، المعروف عالميا باسم دير السريان والذي اشتهر بالعثور فيه على مخطوطات سورية وحبشية قيّمة.

في عام عام ١٨٤٢ أخذ اللورد كورزن(*) Curzon من هنا نحو ١٠٠٠ مخطوطة أودعها المتحف البريطاني. وقبل كورزون بأكثر من قرن نجح أسيماني Aseemani (أمين مكتبة الفاتيكان الشهير) في شراء مخطوطات ومنسوخات من أديرة هذا المكان.

بعد فوات الأوان أدرك الرهبان مقدار الخسارة الرهيب والتي تسبب فيها أمثال كورزن وأسيماني بل وهنري تاتم Henry Tattam الباحث القبطي الإنجليزي. بعد ذلك حظرت البطريركية القبطية عملية بيع المخطوطات، وشددت العقوبة على ذلك، وأحضرت ما تبقى من مخطوطات قيّمة إلى القاهرة.

يُذكرنا اسم دير "السُريان" بجماعة الرهبان السوريين التي استقرت هنا في النصف الأول من القرن العاشر، وهي أكثر الفترات ازدهارا. في تلك الأثناء قامت حركة إصلاح على يد موسى النصيبيني[29].

في منتصف جدار الدير تقف زاهرة شجرة القديس أفرام، وهي شجرة تمرهندي خلابة يتخطى سُمك جذعها الثلاثة أقدام، نبتت من عصا موسى النصيبيني مطران

(*) يطلق عليها اليوم أهل النطرون اسم "روزيتا" بمعنى الحمراء. وهو اللون الذي تتخذه البحيرة في مرحلة من مراحل تبللور الأملاح. (المحرر)

(*) جورج كورزون (١٨٥٩-١٩٢٥) سياسي بريطاني شهير عمل حاكما عاما على الهند نيابة عن الملك وشغل منصب وزير خارجية بلاده وله دور كبير في تأسيس القدرات الإمبراطورية البريطانية. (المحرر)

(29) نصيبين مدينة تاريخية في الجزيرة الفراتية العليا ومنطقة إدارية تقع حاليًا ضمن حدود تركيا (المترجم).

الكنيسة السوري العظيم، كان قد تركها عن دون قصد عند باب الدير فاستحالت إلى شجرة مثمرة. في المساء، وتحت هذه الشجرة، يتلو الرهبان صلواتهم.

تفتقر الأديرة الأربع في الصحراء النترية إلى أعمال فنية، باستثناء بعض أثار ملفتة هنا في دير السُريان مثل الكنيسة القديمة المؤلفة من كاتدرائية طولها ٣٠ مترا، وعرضها ١٣ مترا، وبها ثلاثة ممرات وقباب. ربما كانت صليبية الشكل في الأصل.

هنا في هذا الدير يفصل الخورس[30] والدير عن بقية الكنيسة جدار سميك به باب منطبق. يوجد بصحن الكنيسة حوض رخاميّ مربع الشكل لغسيل القدمين. وكما في دير البراموس، يتدلى من السقف بالسلاسل طوقين برونزيين. وفقا لمعلومات كوفمن الأثرية، فقد كانتا من الثريات القديمة التي حُفظ منها نوعان على أرض قبطية، كان لإحداهما إطار عميق، وأذرع ممتدة تحمل في نهاياتها قناديل الزيت الزجاجية، والأخرى مُسطحة ذات أُطر مثقوبة، وبها فتحات مُعدّة للأوعية الزجاجية. تشبه هذه الثريات ما هو مستخدم في كاتدرائية القديس بطرس التاريخية في روما.

لفت انتباهنا أعمال التارسيا[*] الموجودة على الأبواب[31] التي تفصل صحن الكنيسة والخورس في جهة والجانب الآخر للخورس وهيكل كنيسة الحضرة. كان الأول

---

[30] في القرن السابع الميلادي جاء أول ذكر واضح له كجزء من صحن الكنيسة ، وتميَّز عن الصحن فيما بعد بوجود حاجز منخفض يفصل بينهما. أما في أديرة وادي النطرون بمصر فينفصل الخورس عن صحن الكنيسة انفصالًا كاملًا بحائط مرتفع بارتفاع البناء، ويتصل بالصحن إما عن طرق ممر واحد فقط في الوسط في أغلب الحالات، أو بثلاثة ممرات كما في كنيسة الأنبا مقار. الخورس حاليًا هو المكان المخصص لجوقة المرتلين في الكنيسة، ويوجد أمام الهيكل مباشرة وعلى جانبيه (المترجم).

[*] تارسيا Tarsia مصطلح معماري استخدم في إيطاليا منذ القرن الرابع عشر ويشير إلى أسلوب الموزايك (الفسيفساء) لتعشيق شرائح رقيقة من الخشب ليعطي أشكالا هندسية أو تصويرية. وقد انسحب المصطلح لاحقا ليشمل نفس الأعمال المستخدم فيها الرخام والأحجار الكريمة. (المحرر)

منقسم إلى أربعة أجزاء، وستة لوحات، والصفوف الأولى فيها تمثل المسيح والسيدة العذراء والقديس بطرس والقديس مرقص. كُتبت الأسماء باللغة اليونانية، وغالبا بالحرف القبطي. ذكّرتنا لوحة السيد المسيح بنماذج في الفترة المسيحية المبكرة من القرن الخامس إلى القرن الثامن. يظهر السيد المسيح في هالة الصليب النورانية، ورمح يخترق الثعبان والأسد.

توجد مخطوطة سريانية على العتبة تشرح كيف قام موسى النصيبيني بتلك الأعمال الفنية في عام ١٢٣٨ (وفقا للتقويم اليوناني) تقول:

"من أجل جلالة الثالوث المقدس تم تصميم هذا الباب في عام ألف ومئتين وثمانية وثلاثين، في عهد البطريرك المبارك القديس كوسماس والقديس باسيليوس، نفّذها ورعاها القديس موسى النصيبيني، رئيس الدير. أدعو الرب تقدس اسمه أن يكافئ كل من يشارك بصلاته التقية".

ينقسم الباب المنطبق الموجود بين جناح الكنيسة والهيكل إلى ستة أجزاء، وفي ستة صفوف تظهر سبع لوحات من صلبان وزخارف، في الصفوف العليا نقوش للقديسين وأسمائهم باللغة اليونانية، في المشهد الأمامي يظهر ديوسكوروس Dioskoros (البطريرك من عام ٤٤٣ م وحتى ٤٥٨ م) ومارك Mark وإيمانويل Emmanuel وماريا Maria وإيجناتيوس Ignatius وسيفيروس Severus (من ٥١٨ حتى ٥٢١ م).

تقول النقوش السريانية الغائرة بحروف خشنة في عتبة الباب:

---

(31) لا يمكن أبدا تعويض الخسائر التي عانتها الأديرة النترية من خلال سرقات الأجانب، وكذلك بسبب الأعمال التدميرية التي قام بها بعض الرهبان الجهلاء الذين سمحوا بنزع قطع من أعمال التارسيا عن الأبواب وأخذها كتذكار (المؤلف).

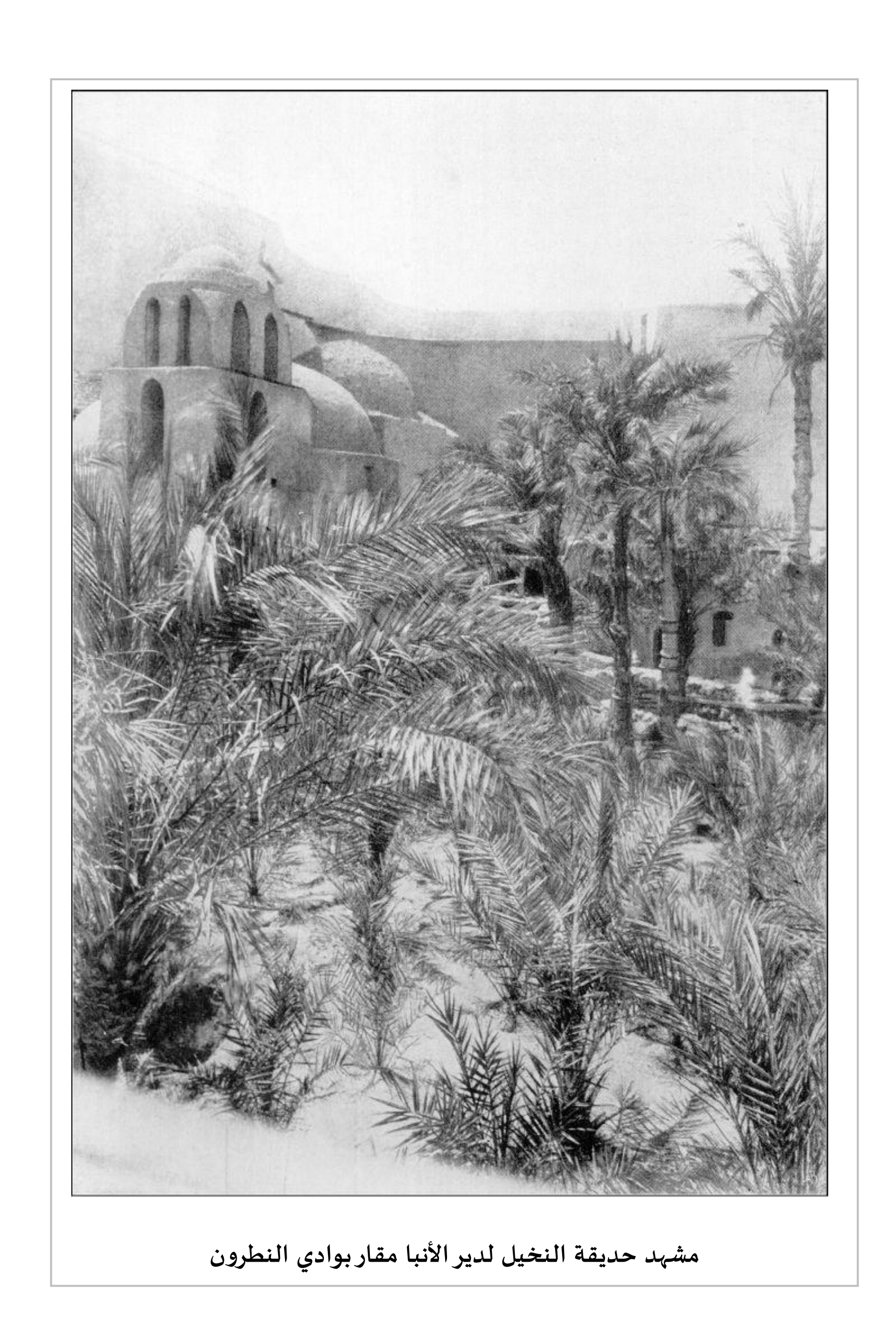
"من أجل قداسة وجلال وتمجيد الثالوث المقدس، والذي له كل المجد في السموات، ومن أجل كنيسة الأم العذراء، قام موسى، رئيس الدير في عهد البطاركة القديس جابريل والقديس يوحنا (يوانس Joannes)، بتشييد هذا المذبح في في الخامس من مايو من عام ١٢٢٥ بالتقويم اليوناني (يقابل ٩١٣ – ٩١٤ م) ، ليكون آية في الجمال تشير لكل مؤمن مهتم بهذا المذبح والدير المقدس، من أجل الحفاظ على حياتهم وحمايتهم، من أجل العفو عن موتاهم والصفح عن خطاياهم".

وكان البروفسور جوزيف سترزيجوفسكي Joseph Strzygovski، وهو أحد أعضاء لجنة الآثار القبطية والعربية بمصر، أول من لفت الأنظار إلى هذه النقوش المهمة، وأيضا إلى زخارف الهيكل القيّمة.

إن اللوحات ذات الخلفية الزرقاء القاتمة الموجودة بمحاريب الهيكل والممرات تمثل زخارف فريدة من نوعها. فهي تصور مشاهد من حياة السيدة العذراء: بشارة الملاك للعذراء، وميلاد السيد المسيح، ومشهد الصعود، والوفاة، وهي المشاهد التي يبدو أنها تنتمي إلى فترة ما بعد الفتح العربي. ويمكن تمييز رسومات قديمة أخرى أسفلهم عن الأحداث ذاتها. ربما رسم الأب موسى النصيبيني هذه اللوحات أيضا كما رسم التارسيا الموجودة على الأبواب، بما أن النقوش تشير إلى أنه المؤلف.

أما بالنسبة للبقية، فإن مخطط الهيكل والمذابح والمظهر الخارجي للدير يشبه كثيرا دير البراموس.

يمتلك دير السريان صفة أخرى مميزه، فهو أصغر حجما بكثير، ومربع الشكل تقريبا، وبلا ممرات. لا يحتوي شيئا ذا أهمية كبيرة سوى بعض المقاعد الرخامية المريحة ومدخر ومكتب ذو أرجل عاجية، ولكنهم للأسف في حالة يُرثى لها. لا تستحق بقايا اللوحات الموجودة بحجرة الطعام اهتماما خاصا.



مشهد حديقة النخيل لدير الأنبا مقار بوادي النطرون

يمتد وادي النطرون والصحراء في مشهد جميل من فوق برج الدير، حيث توجد كنيسة صغيرة مخصصة للقديس ميخائيل، والمكتبة التي اشتهرت يوما ما.

كان هناك عدد من الأديرة في محيط دير السريان، واختفت كلها الآن، أو يمكن ملاحظتها من خلال بعض أطلال مندثرة، مثل كنيسة الأرمن، ودير إلياس للحبش. وأحدثهم أنشئ في "دير العذراء" من بو يوأنس، حيث كان يقع دير الأنبا نوب، ودير الأنبا بشوي، وما زال ثالثهم موجودا حتى الآن. وكما علمنا من "حياة" القديس مقار، أن الرجال لم يفدوا فقط من مصر ليصبحوا رهبانا وقديسين، بل من "أسبانيا وليبيا والمدن الخمس وكبادوكيا وبيزنطة وإيطاليا ومقدونيا وآسيا وسوريا وفلسطين وغلاطية".

تذكر إحدى مخطوطات الفترة القبطية المتأخرة الموجودة بمكتبة كروفورد Earl of Crawford[32] ستة أديرة مشهورة بالصحراء النترية، بجانب تلك التي ما زالت موجودة، وتوجد أديرة موسى ويوحنا الزنجي (ربما المقصود به أبو موسى، الذي سبق وذكرنا أن منه تُشتق تسمية البراموس) الذي كان إثيوبيا أو حبشيا، ويُنسب لقبه إلى نسبه.

في دير الأنبا بيشوي

يتميز دير الأنبا بيشوي، المجاور لدير السريان، باحتوائه على أفضل مياه في الأديرة النترية كلها. وهو كذلك يُعتبر الأكبر حجما، فمساحته تزيد على ١٥٠ مترا مربعا. توجد مضخة المياه في الساحة الثالثة، وتضخ ما يكفي من المياه لري الحديقة الغنية بالخضروات، والتي يفتخر بها الرهبان كثيرا. لو جرّب المرء طعم المياه الكريهة في بقية وادي النطرون، لقدّر كثيرا بئر كهذا.

ولكن على الرغم من تلك الخاصية المميزة، فيبدو لي أن دير الأنبا بيشوي في حالة متأخرة مقارنة بدير مقار. من المدهش رؤية الأديرة القبطية، التي يتمتع ساكنوها

[32] مكتبة لجمع أمهات الكتب والمخطوطات. أنشأها إيرل كروفورد جيمس ليندساي James Lindsay بين عامي ١٨٩٨ و١٩١٣ (المترجم).

بالإعفاء الضريبي وكذلك من الخدمة العسكرية. بجانب الأديرة النترية، التي يتمتع البعض منها بأهمية. من أديرة الصحاري المصرية الأخرى دير الأنبا أنطونيو ودير الأنبا بولا في الصحراء الصخرية شرق وادي النيل، ودير المحرق الغني في مصر الوسطى، وبه نحو مائة راهب. أما الأديرة المحصنة كالقلاع في سوهاج، تلك "البيضاء" و"الحمراء" الموحدة تحت اسم شنودة، فهي مأوى للعائلات بدلا من الرهبان. ولذلك فإن المراقبة متساهلة إلى حد كبير في الوقت الحالى. ويبدو أن لوائح تنظيم الدخول لدير الأنبا أنطونيو، والتي طُبعت باللغة العربية في القاهرة عام ١٨٩٩، لم تكن مؤثرة.

خضعت أبنية دير الأنبا بيشوي للكثير من الترميمات في بداية القرن الماضي، ولذا فمن الصعب تعقب آثار المبني الأصلي للدير عكس الأديرة الأخرى. فلم يتبقَ أي شيء تقريبا من المكتبة القديمة. كانت تقع في القصر واحتوت الكثير من الكتب التنويرية، والمتبقي منها غالبا ما يستخدم في الطقوس ونسخ متوارثة للكتب المقدسة. لقد قرأنا بنهاية كتاب سجل سير القديسين (الذي كان يُقرأ بصوت عالٍ لتهذيب الرهبان)، التهديد التالي:

"هذا الكتاب إرث أبدي للاحتفاظ به في كنيسة القديس العظيم والكامل الأنبا بيشوي، بديره الكائن في صحراء شهيت، بالإسقيط في وادي هبيب، "ميزان القلوب". فليس لأحدٍ، مهما كانت خلفيته، الحق في أخذ هذا الإرث من الدير المذكور، ومن يفعل عكس ذلك، فسوف يواجه نفس العذاب والموت الذي واجهه ديوكليس الملحد، وهيرود Herod المرتد، وسيمون Simeon الساحر، ويهوذا الخائن، ولتتنزل نعم وعطايا الرب الأبدية على المُطيع! ....آمين! آمين! آمين!"

إن الكنيسة الأم بالدير، تلك المخصصة للقديس صاحب اللقب، تلميذ الأب أموي Abba Amoi، عبارة عن كاتدرائية مقببة على الطراز الشرقي، وبها كل خصائص المخطط القبطي. يعلو السقف والممرات القباب ولستة مساحات أخرى أسطح مقببة،

وإكليل مخصوص في المقدمة مصنوع من الطوب الناعم البارز. تم سدّ نوافذ الممرات الآن. وجدنا هنا أيضا ذلك الانفصال الغامض بين صحن الكنيسة وجناحها، الذي غالبا ما يطلق عليه اسم الخورس، بجدران عملاقة وأبواب تظهر عليها أيضا النقوش المنحوتة. تتدلي بيضات النعام المألوفة، وإكليل برونزي جميل من سقف الخورس. يوجد في المقدمة باب يقود إلى كنيسة العذراء، وتحتوي مدخر به عظام القديس الملقب. أما الكنيسة الجنوبية المخصصة للقديس أبسخيرون Abu Iskarun فلها قبة مدهشة. وتستحق المنصة الموجودة بالهيكل الاهتمام. فالعرش الذي كان من المعتاد وجوده في منتصف الجدار الخلفي لم يعد موجودا. توجد ستة سلمات مغطاة بالرخام، وتمتد آخرهن بعرض الهيكل، وتتخذ الثلاث سلمات الأولى اللاتي يعلونها شكلا نصف دائري، يؤدوا إلى محراب العرش، الذي يمكن فيه مشاهدة بقايا من أعمال الفسيفساء المذهلة. لم يتبق سوى القليل من اللوحات التي زيّنت الأجزاء المختلفة، خاصة قدس الأقداس. إن زخرفة قبة الهيكل جديرة حقا بالملاحظة، حيث تلتف أعمال الأرابيسك[33] الرائعة في أطر متحدة المركز حول الصليب بالمنتصف، وكذلك بقية صورة للقديس جرجس بجناح الكنيسة.

وفّرت الصحراء أهم أدوات البناء للكنيسة، وكذلك لكل الأديرة الموجودة بالوادي، إنه ذلك الحجر الجيري ذو اللون الخفيف، سهل التشكيل. كان يتم استدعاء الحمولات الثقيلة من وادي النيل فقط عند طلب الطوب الضروري لبناء القباب والأسقف المعقودة الأخرى.

في دير الأنبا بيشوي فاجأنا الاهتمام المتدني بتجهيزات القداس الإلهي. كانت الأوعية المقدسة متهالكة وتسبب الأذى، انغمس القداس في خدمة احتفالية بحتة بدون

---

[33] اسم أطلقه الأوروبيون على الزخارف النباتية الشائعة في الفن الإسلامي ما يميزها عن غيرها من الفنون الأخرى (المترجم).

أي إدراك حقيقي لمعنى الإجراءات. يتركز الاهتمام على القمص، وهو الكاهن الذي يتلو الصلوات للرب والذي، وفقا لما يراه الراهبون، يملك قوة سحرية غامضة. لا تُراعى النظافة في الكنائس الرهبانية بوادي النطرون، ولكن رغم ذلك يجد الزائر كثيرا مما يسترعي اهتمامه.

يشعر الزائر أنه على اتصال وثيق بزمن ماضٍ أكثر من أي مكان آخر. فالرهبان في قلاعهم و خلواتهم، بخوفهم من المدنية وكذلك من العربان، وطريقة إدارتهم للدير، وقدّاسهم، كلها أشياء ما زالت على حالها كما هي منذ خمسمائة سنة. يجد المؤرخون هنا مصادر وفيرة وثرية. سررنا حين وجدنا التزاما بالعهد القديم، حتى لو ظاهريا فقط، من أجل تلك الصراعات القوية التي خاضها رهبان الوادي. باستثناء هرطقة مذهب الطبيعة الواحدة والامتياز البابوي لبطريرك الأسكندرية، فإن الطائفة الكاثوليكية القديمة ما زالت تعيش هناك. ما زالوا ملتزمين بالمقدسات السبعة بحزم، خاصة فيما يخص حضور المسيح بذاته في القربان المقدس. يسبق التعميدَ التطهر الروحي، ولكن ليس على خلفية دينية. لم يكن المرهم يُستخدم فقط في أمراض الجسد بل في أمراض الروح والنفس أيضا. تعارض امتناع الرهبان عن الزواج، واحترامهم الشديد للاستدعاء الكهنوتي، تعارضا كبيرا مع الطلاق بسهولة. تم الحفاظ بصرامة على الأربع فترات صيام العظمى. لقى تمجيد السيدة العذراء والقديسين والصلوات للأموات ترحيبا لدى الأقباط.

ولكن ما يمد القداس القبطي بشخصيته الفريدة الحقيقية – رغم تمسكه الشديد بالشكليات، وما يكشفه العاملون المحبون به من جوهر أصيل واحتفاظهم بمسحة من المسيحية الأولى – هو كثرة الصلوات الأولى والاحتفالات. فبينما يعود قداسنا في ألمانيا إلى القديس جريجوريوس العظيم، يستخدم القبط اثنين: قداس القديس باسيل Basil وقداس القديس كيرلوس Cyril، فقداس جريجوريوس قائم على الصوم العادي وصيام الأيام المقدسة، ويكون في الأعياد الكبرى، أما في قداس كيرلوس فهناك

الصيام الكبير وأيام الصيام في ديسمبر. إن خطوات إعداد المذبح*altaris praeparatio* للقداس مشتركة بين كل الطقوس، وهي ما يطلق عليه الرومان الكاثوليك اسم صلاة التمهيد *prefatio*. أما الجزء الثاني من القداس القبطي فيتمثل في التناول *anaphora*[34] مع صلاة التمهيد، وترنيمة قدوس *sanctus*، وقرابين الخبز والخمر، وطقس تقسيم الخبز *fractio* والقداس، فهو متشابه بالأساس لكنه مختلف بالتسمية فقط.

لرهبان دير الأنبا بيشوي، وكذلك رهبان بقية الأديرة، طقوس بشأن "النهر الجدب" (بحر بلا ماء). إذ استقر النسّاك بجانب هضبة "حجر النسر"على ضفة مجرى النهر، وكانوا معرضين دوما لهجمات قراصنة النهر ، إلى أن جدبت مياه هذا النهر واختفت إلى الأبد بسبب دعوة النسّاك.

أشار أحد الرهبان إلى جزء في الفصل التاسع عشر من سِفر إشعيا في التوراة يتحدث عن "روح مصر" التي تتطابق مع النيل العظيم. "وسوف تنتهي روح مصر، وسأدمر كل الخير الآتي منه، وسيسعون إلى الأوثان والأصنام، ويلجأون إلى السحرة والمشعوذين، وستجف المياه في البحر، وستنتهي مياه هذا النيل. ستتعفن الأنهار، وتجف كل فيضانات وجداول مصر وتختفي: سيذبل القصب والسوسن البري، وكذلك كل المروج المحيطة بالنيل، لن يكون هناك وجود لكل ما يحيط بالنيل."

في طريق العودة من دير الأنبا بيشوي مررنا بأعمال استخراج الملح المستأنفة. بُنيت العديد من أكوام الملح التي تبلغ مساحتها اثنين أو ثلاثة ياردات مكعبة، وبدت أهرامات الملح الطازج المتبلور ذات لون أحمر قاني. استطاع الرجال العمل فقط من الرابعة فجرا إلى العاشرة صباحا، بسبب درجة الحرارة العالية، وكذلك كان يتم استغلال

---

[34] وهو الجزء الأهم في القداس الإلهي حيث يتم تقديم الخبز والخمر كجسد ودم المسيح (المترجم).

الليالي التي يكتمل فيها القمر في عملية الاستخراج بشكل كبير. كان لمشهد تلك الأجسام السمراء المكدة في العمل سحرا خاصا.

على حافة البحيرة المالحة انتظرت عربة سكة حديد عينها لنا مندوب المدير، جاهزة لرحلة العودة. مشينا بخطوات بطيئة على أرض النطرون السوداء عبر أعشاب وعيدان قصب طولها يُقارب طول الإنسان. توقفنا لرؤية البحيرة التي تجمعت فيها مياها نقية، وتبعد بضعة ياردات عن موقع استخراج الملح، ويتغير منسوبها تبعا لحالة النيل. بالحفر في تلك المنطقة تظهر أولا المياه النقية، وفي العمق أسفلها توجد المياه المالحة. وصلنا بعد قليل إلى المصنع ثانية حيث أعاد رئيس الستة مجندين الموضوعين تحت تصرف المدير إلقاء التحية علينا مرة أخرى. يشغل "الرئيس" في الوقت نفسه منصب محافظ بير هوكر.

في بير هوكر

في عام ١٨٩٠ وعلى يد رجل إنجليزي يُدعى هوكر Hooker تأسست منطقة استخراج الملح، ومدخنتها التي يزيد ارتفاعها عن ٥٢ مترا، ومركز الإشارة بها لمنطقة البحيرة المالحة بأكملها، والذي سُمى البئر باسم الرجل، وكذلك مستعمرة الموظفين والعمال الصغيرة. حصل على حق احتكار الملح من الحكومة الخديوية.

في عام ١٨٩٦ تحوّلت إدارة المكان إلى سويس Swiss، وبعدها بأربعة سنوات تولّت شركة إنجليزية مساهمة إدارة المكان، وهو الآن يوفّر الملح لمصر كلها. تستمر أعمال الاستخراج من شهر يونيه إلى شهر أغسطس، وتنتج نحو ٦٠ ألف طن من الملح الممتاز، الذي يكوّن قشرة – يجب انتزاعها – سميكة تشبه الجليد على سطح البحيرة. تتم عملية النقل عبر ثلاثة خطوط سكة حديد صغيرة، وخط سريع أطول، يبلغ طوله ٤٥ ميل.

يُنتج المصنع ٣٠ طنا من الصودا يوميا، و٢٠٠ طن من الملح المعبأ، وبين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف عبوة من ملح الطعام، وهذا الأخير يقوم بتعبئته ثمانية صبيان من البدو. يُنتج المصنع أيضا نترات الصوديوم القاتمة والفاتحة وكذلك الجبس. تشير الإحصائيات إلى أنه بالرغم من الآلات وخطوط السكة الحديد إلا أن كمية الإنتاج لم تزد بقدر ملحوظ. في عهد الرحالة الألماني فانسليب[*] (منتصف القرن السابع عشر) أنتجت "بحيرات الملح الصخري" نحو تسعين ألف هندردويت[35] من الملح سنويا، وهو ما تُقدر قيمته بـ 2,400 جنيها.

كانت البحيرات من أهم مصادر دخل النبلاء، وكان الملح يُحمل على ظهور الإبل إلى بلدة "طرانة" (في جنوب غرب الدلتا) ليتم نقله منها إلى القاهرة. من بين ممتلكات المصنع الحديث، الذي تُستخدم فيه آلات ألمانية الصنع، عربة ذات أهمية تاريخية، فهي من ذات النوع الذي استخدمته الإمبراطورة الفرنسية أوجيني أثناء الموكب التشريفي في افتتاح قناة السويس. لقد اشتراها هوكر من الإسطبلات الخديوية بهدف الحصول على وسائل نقل تجذب الزوار إلى الوادي، وقد استولى عليها أحد البشوات. مع وجود السكة الحديد وتحت إدارة "سويس"، أُستخدمت العربة كسيارة إسعاف، وهي الآن معروضة كأثر قيّم.

بدأنا رحلتنا في ضوء الفجر الأحمر إلى الدير الصحراوي للأنبا مقَّار. تقدّمت الإبل بخطوات بطيئة ومترددة، وتطلب الأمر الكثير من النداءات، التي تنفسها الشيخ مفتاح أكثر مما نطق بها لتحميسهم وحثهم. أصبح بير هوكر خلفنا عندما سرنا فوق منحدرات سلسلة التلال الكائنة بجنوب الوادي.

---

[*] يوحنا ميخائيل فانسليب Johann Michael Vansleb (١٦٣٥-١٦٧٩م) عالم لاهوت وعالم لغويات ورحالة. زار مصر وسعى لزيارة الحبشة لأهداف دينية. (المحرر)

[35] الهندردويت: وحدة قياس أوزان، تختلف قيمتها حسب الأمكنة. يساوي ١٠٠ رَطْل فِي مصر (المترجم).

حين هبطنا الوادي لبضع وثمانين مترا في عمق الصحراء، رأينا مركبة غامضة تتحرك على حافة البحيرات المالحة، وكانت عبارة عن عربة سكة حديد يجرها زوج من الجاموس. يتسبب في هذا المزيج الغريب إما نقص الوقود، أو جهل بآلية عمل محركات البخار.

تشبعت ملابسنا لدرجة كبيرة بندى الليل، وكذلك الملابس الموجودة بالخيمة. زال التعب بحلول السابعة صباحا عندما زادت حدة الشمس، وكذلك بعد رؤية غزال مار بعيدا على حافة الجبل. أدى بنا هذا المشهد إلى تغيير خطة اليوم، إذ لم نتناول لحما طازجا منذ وقت طويل، وكنا نتضور جوعا، فمنذ وصولنا بير هوكر والمنطقة المحيطة لم نجد غنما أو طيرا لنشتريه بأي ثمن. كانت القطعان ترعى بعيدا على مسافة يوم كامل. إن فترة منتصف الصيف فترة صعبة. يجب ألا يفلت منا ذلك الغزال، الذي اتضح فيما بعد أنه ذكر قوي. أنزلنا الأحمال، وتخفيّنا في الجمال، واتبعنا الشيخ بحرص حتى اقتربنا من حافة أحد المنخفضات. لا تكترث الحيوانات الذكية لرؤية الإبل، بينما إذا رأوا إنسانا، حتى لو من على بُعد، يفرون هربا. كان من المعتاد أن نظهر لهم بهذه الطريقة، خاصة عندما تكون الرياح ملائمة. لذلك فقد استطعنا رؤية الحيوان من زاوية قريبة. فاجأناه في المنخفض الذي نزل إليه بعدما رأى به جِمالنا لفترة طويلة. للأسف تسببت حركة غير مدروسة منا في ألا يستطيع مفتاح إطلاق النار عليه في اللحظة المناسبة، ففر الغزال في الضوضاء إلى التلال. بعد ذلك قسّمنا أنفسنا، فكانت مهمة الشيخ مفتاح تأمين اللحم الشهي، ونحن سرنا جنوبا ببطء في صحراء مقار. بعد عدة ساعات سمعنا صوت طلقتين، وصل إلينا الشيخ قبيل وقت الظهيرة. فقد أطلق النار على الغزال، ولكنه لم يستطع قتله إلا في اليوم التالى، يا لها من غنيمة جميلة، على الرغم من الثلاثين عاما التي شهدت عليها قرون الغزال.

في النهاية، وصلنا في وقت متأخر إلى وجهتنا في الصحراء القاحلة، دير الأنبا مقار، ذي الجدران البيضاء الذي صعُب تمييزها عن الصحراء ذاتها. بلغ مقياس الضغط الجوي أقصاه، وأظهر ترمومتر الجيب درجة حرارة تقارب ٦٠ درجة مئوية. لم نواجه درجة حرارة أعلى من هذه سوى في جنوب مُغرة. لقد كنا منهكين، فنزلنا عن جِمالنا باحثين عن مأوى يحمينا من تلك الشمس الحارقة في ظل بوابة الدير. كنا في غاية التعب والإرهاق حتى قررنا بعد تردد طويل أن نقرع الجرس ونعلن عن وصول الغرباء. كان الاستقبال أقل إثارة للجلبة من بقية الأديرة. بدا وكأن الرهبان لم يساورهم الشك فينا برغم أننا كنا مسلحين. واكتشفنا لاحقا أن كل تفكيرهم كان مُنصبًا على الهدايا التي سيتلقونها منا.

استنكر دكتور يونكر انعدام لباقة هؤلاء الرهبان في وصفه لرحلته خلال وادي النطرون. فهم مهذبون ومؤدبون على العكس من ساكني دير البراموس! لقد رد الخمسة وعشرون راهبا بدير الأنبا مقار اعتبار القديس العظيم الذي يحمل الدير اسمه. فقد اعتزلوا الرذائل والظلم الذي لطالما سعى القديس مقار للتغلب والقضاء عليه. ويجب ألا ننسى أن ساكني الأديرة المنفردة يتغيرون من وقت إلى آخر. تلى علينا الرهبان قصة الإنشاء الأول للدير، وكانت كالتالي:

"ولد القديس مقار في صعيد مصر عام ٣٠٠، وانعزل العالم مبكرا. قادته التوبة عن ماض سُرق منه إلى ريادة حياة تقية وزهد صارم، مع صلاة دائمة لا تنقطع في مكان منعزل. جذب سلوكه اهتمام من يعيشون بقربه. فاتهموه بالنفاق والادعاء، وكانوا يخشونه كذئب في ثياب حمل. أغرته امرأة عزباء، ولكن بعد ذلك، وبعدما تم تعذيب القديس جسديا ونفسيا، بادرت المرأة واعترفت ببراءته. ثم رأى الناس الحقيقة. لقد أحبوا في القديس قوة إرادته وتضحيته بنفسه، الذي تبرع بجزء مما يجنيه للمرأة المسكينة. هرب القديس إلى الصحراء النترية، حيث أمضى آخر ستين عاما بحياته، للابتعاد عن التمجيد والإجلال الذي يعامله به رجال هذه المنطقة. جذبت إليه سُمعته

الطيبة وفضائله العديد من التلاميذ، الذين نشروا مذهبه وسلوكه في كل محافظات مصر. أوصاهم بالصمت والصلاة والإخلاص والتواضع وكبح الشهوات. قامت أربعة كنائس في منطقة النسّاك تحت إدارته. لم يوف تلاميذه حق وصف أدبه وصبره. بل نسبوا إليه أيضا الكرامات ومعجزات الأنبياء.



استخراج الملح في وادي النطرون

اضطر القديس مقار دوما لمواجهة الضلالات التي يأتي الملحدون لينشروها بين النساك. توسم فيه هيراسيتس Hieracites وأريانس Arians أن يكون محاميا بارعا عن مذهب الآباء المقدسين في نيقيا. أرانا الرهبان مكان إقامته الأول بالوادي بجانب دير البراموس، بينما هنا حيثما دُفن، فيوجد دير وخلوات للرهبان. إن دير مقار في هيئته الحالية، مع العديد من بقايا الأديرة الأخرى في محيطه القريب، هو أكثر الأديرة كشفا من

حيث الموقع في الصحراء النترية. وأستطيع أن أصفه أيضا بأنه الأفقر، ولكني أشك أن الرهبان يُدركون مدى فقره. تظهر على المكان بأكمله علامات التدهور الشديد.

في هذا الدير تضفي الحديقة المشهد الأخضر على الصحراء. تحظى فقط باهتمام ضروري لزراعة الخضروات بشكل أساسي. كان منظرها بديعا من نوافذ المندرة. تعود عمارة الدير لعصور مختلفة. لم يكن بالكنيسة الأساسية القاتمة شيئا لم نره في حالة أفضل مما وجدنا في أديرة أخرى، عدا زخارف الهيكل والمدخر - الذي سبق ذكره - وأجساد القديسين الثلاثة بدير القديس مقار. توجد لوحات من الخشب المنقوش منزوعة بأكملها. تزين أسماء الزائرين الأجانب صحن الكنيسة، بل إن الرهبان هم من يطلبون من الضيوف تخليد وجودهم هنا بهذه الطريقة. بدا تحت الرمال جزء من تمثال وكأنه قطعة من حجرة مذبح أو منبر من بواكير الفترة المسيحية. وقف برج الأجراس المكون من طابقين بلونه الأبيض الساطع بمواجهة النخيل ذو اللون الأخضر القاتم.

تقع "كنيسة الشيوخ"، أي كنيسة القديسين، بمواجهة البرج، وهي دير آخر وتعود تسميته بهذا الاسم إلى الشهداء المدفونين به. يحيط بالخورس ثلاثة أعمدة يصل فيما بينها خزنات خشبية. يوجد غرفة تحت أرضية مغلقة مخصصة لتكون قبرا للرهبان الشهداء. إن قصة التسع وأربعين "شيخا"، كما ذُكرت في كتب الأقباط المقدسة، لافتة للنظر بشكل كاف لتذكر هنا كمثال للتقاليد الرهبانية المبنية على واقعة تاريخية. فالسبب في استشهادهم هو أن ثيودوسيوس، ابن الإمبراطور أركاديوس – والذي حدث ذلك في عهده – لم يكن له ولد. فأرسل الرُسل إلى كبار صحراء شهيت (الصحراء النترية) يطلب منهم أن يسألوا الرب ليرزقه ولدا. كان من بين الكبار من يُدعى إيزيدور Isidore، الذي كتب إلى الإمبراطور وأخبره: "لا يرغب الرب في نسل منك، حتى لا يتحالف معه الملاحدة من بعد موتك". عندما تلقى الإمبراطور هذه الرسالة شكر الرب وظل صامتا. بينما نصحه بعض مرضى النفوس، من بينهم أخته بولشيريا Pulcheria، بالزواج من

امرأة أخرى لتلد له طفلا يرث الحكم. فأجابهم: "لن أفعل شيئا يعارض إرادة الشيوخ في الصحراء المصرية، لأن سمعتهم الطيبة انتشرت في الجزء الأكبر من العالم"، ثم أرسل رسولا للحصول على إذن من الشيوخ. أنجب السفير ولدا طلب منه أن يرافقه، فأخذه معه لتلقي البركات من الشيوخ. عندما وصلوا إليهم وقرأوا لهم خطاب الإمبراطور (في ذلك الوقت كان الأنبا إيزيدور قد تنيح)، قادوا الرسول إلى جثمان القديس وقالوا له: "جاءنا هذا الخطاب من الإمبراطور، ونحن لا ندري بم نرد عليه"، فوقف القديس من مرقده وقال: "ألم أخبركم وأخبر الإمبراطور أن الرب لن يعطيه ولدا قد يُفسد نفسه بمذاهب باطلة، فلن ينجب لو تزوج عشرة نساء"، ثم استلقى مرة أخرى. فكتب الرهبان الرد للمبعوث، وبمجرد رحيله جاء البدو. ظهر شيخ طاعن في السن وقال للأخوة: "انظروا! لقد جاء البدو، وما لهم غرض سوى قتلنا. فليبق معي من يتمنى الشهادة، وعلى الخائف أن يتوجه إلى البرج." هرع البعض، وتبقّى مع الشيخ ثمانية وأربعين فردا، ثم جاء البدو وذبحوهم. التفت ابن المبعوث، الذي كان قد ذهب في طريقه بالفعل، ورأى الملائكة وهي تتوّج الشيوخ الذين استشهدوا. كان الشاب يُدعى ديونيسيوس Dionysius. ثم قال لوالده: "أرى هناك مجموعة من الأرواح تتوّج الشيوخ الكبار، الآن يمكنني الذهاب لأحصل على تاج مثلهم"، فأجابه والده: " سأذهب معك أيضا يا ولدي العزيز". عادوا أدراجهم وواجهوا البدو فقتلوهم، ونالوا الشهادة. بعدما انسحب البدو، نزل الرهبان من البرج، وحملوا الجثث، ووضعوها في كهف. لقد صلوا من أجلهم، وأنشدوا لهم الترانيم كل ليلة، وطلبوا منهم البركة. ثم جاءت جماعة من الباتانوم El-Bathanum، وسرقوا جثة الأنبا يوحنا وأخذوها إلى الباتانوم. ظلّت هناك لفترة من الزمن حتى أعادها الشيوخ ثانية إلى مكانها. أخذت مجموعة أخرى من الفيوم جسد الشاب الصغير، وعندما وصلوا إلى بحيرة مويرس[36]، أخذه ملاك الرب، وأعاده إلى حيث يرقد جثمان والده. فصل

---

[36] بحيرة قارون حاليا. (المحرر)

الرهبان بين جثماني الشاب ووالده عدة مرات وعندما يأتون في اليوم التالي يجدونه بجانب والده، إلى أن راود أحد الشيوخ حلمٌ، وكأن أحدهم يقول له: "تقدست يارب، طالما لم تفترق أجسادنا حال حياتنا، وكذلك لم نبتعد عن المسيح، فلماذا ستفصلون أنتم بيننا؟" منذ ذلك اليوم لم تُبذل أية محاولات أخرى لفصلهم، وعندما تم تدمير المكان بزحف رمال الصحراء، وانتاب الناس القلق بشأن الرفات، تم نقلهم وإحضارهم إلى جانب كنيسة القديس مقار. بُني كهف خصيصا لهم، وفي عهد البطريرك ثيودوسيوس تم بناء كنيسة لهم.

تقع ثالث كنيسة بدير مقار إلى الجنوب، وهي مخصصة للشهيد أبسخيرون السكندري. يقع الدير في الجهة الشرقية، ويعلو الخورس قبتان. توجد أديرة أخرى بالقصر، الذي يحميه جسر خشبي متحرك، منها كنيسة العذراء (الحضرة)، التي يوجد بالخورس الخاص بها كومة من الأجزاء الممزقة من المخطوطات العربية والقبطية والتي تمثل مكتبة دير مقار. كان ابن عمي يبحث عن تذكار، لكنه وجد القليل الذي يعود تاريخه إلى ما قبل القرن السابع عشر. نظر الرهبان مبتسمون.

اصطحبونا لمشاهدة "بئر مقار" الذي يقع خلف الكنيسة الرئيسية. وهو عبارة عن ساقية يدور فيها ثور، وتوفر مياهًا جيدة صالحة للشرب. كانت الساقية كبيرة نسبيا، وبدلا من الدلو، رفعنا المياه النقية – هدية الرب الثمينة – بالأوعية الفخارية من عمق أقل من عشرة أمتار. غطى التراب والقذارة الدير، ولم تترك حالة الغرف والخلوات انطباعا جيدا. تشير الحوائط التي تم تبييضها إلى القبور المغطاة، فلا يوجد هناك ما يلفت النظر. فلو أن رهبان الوادي ليسوا على قدر كبير من التحضر والثقافة، فإن رهبان صحراء مقار هم المثال الأسوأ لـ "نبلاء الشعب المصري"، كما كان يطلق عليهم في عهد الأنبا شنودة. يبدو أن إدراك حالة التدني التي انتابت هؤلاء الرهبان قد وصلت إلى العربان الذين يسكنون بعيدا. قبل زيارتنا للدير، وصفه لنا شيخنا - الذي كان مواطنا

من مريوط - بهذا النعت المختصر "بطّال"، والتي تعني أنه سئ. ولكن منذ قبِلنا ضيافتهم، لا يمكن أن أشير كم كان محقا. لقد اعترانا إحساس عميق بالحزن. ما الذي حلّ بهذا الموقع التاريخي، الذي ازدهر فيما مضى، والآن أصبح مهجورا كئيبا؟ تلك السلسلة الطويلة من الشخصيات المبجلة التي أقامت يوما في قداسة هذا المكان، والذين لم تُذكر أسماؤهم فقط في سجل القديسين القبط والشرق، ولكن أيضا في كتابات الكنيسة الأم، يستحقون بالتأكيد تخليدا أفضل من ذلك لذكراهم.

بالقرب من دير مقار تؤدي آثار أقدام الضباع والذئاب إلى آثار المكان الذي يسميه العربان "قصر البنات"، أي قصر العذراوات. قيل لنا أنه كان "خلوة". لم تكن تلك هي الآثار الوحيدة الموجودة بالمنطقة. يمكن العثور على نحو إثني عشرة موقعا، أو أقل أو أكثر من ذلك بقليل، لأنقاض أديرة في محيط صحراء مقار، على مسافة يستغرق قطعها بضع ساعات، أنقاض متهدمة ومدفونة بالرمال. قد نتعلم من تقرير المبشر الفرنسي بير سيكار Père Sicard مدى سرعة أمواج الرمل الليبي في تأدية عملها، الذي قد يصل حتى إلى ابتلاع أنقاض أثرية. يذكر كيف أنه رأى في عام ١٧٠١، في هذه المنطقة، على بُعد ثلاث أو أربع ساعات من دير مقار، "خمسون ديرا يسهل تمييزها عن بعضها، ولكن كلها مهجورة وعبارة عن أنقاض تقريبا." وحين سألت كوفمن عن مشروع استكشافي هنا قال سيكون بلا قيمة تماما.

أشير في دفتري إلى العودة من دير مقار بصليب صغير. كنا منهكين للغاية. أرغمتنا الحرارة الحارقة على محاولة الاحتماء والراحة في ظل الإبل مرتين، ولكننا كنا نتخلى عن الفكرة في كل مرة لأن حرارة الرمال اخترقت الأردية الرفيعة، وكانت لا تُحتمل حتى أننا فضّلنا إكمال المسير. بلغنا بير هوكر ليلا. عندما ظهرت نار المخيم أخيرا، ورأينا الأجسام البيضاء للفضوليين العرب رابضة بجوارنا، علمنا أن مرحلة الإنهاك والتعب قد انتهت.

الفصل الخامس

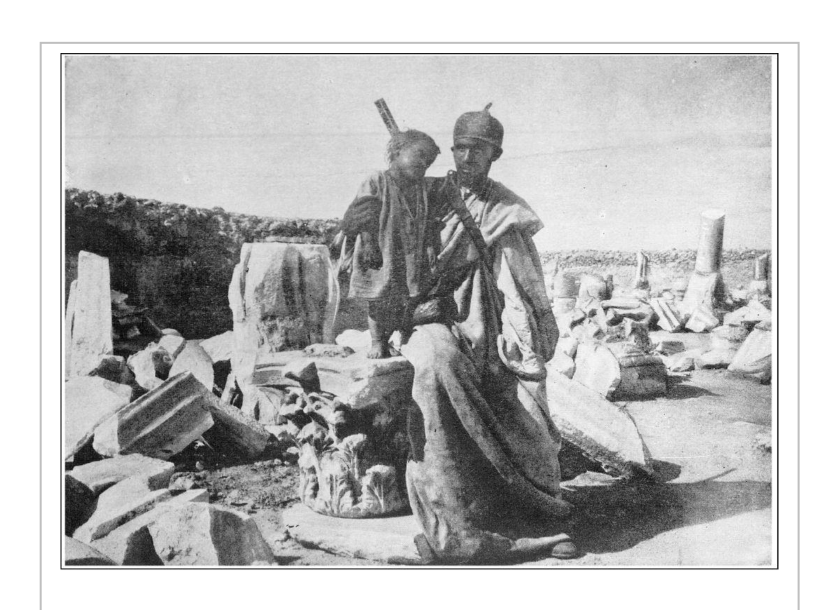
في أرض أولاد علي

اكتشاف معبد مينا "فخر ليبيا بأكملها"

انطلقنا في الثالث من يوليو إلى صحراء أولاد علي، في ذلك اليوم عبرت القافلة الحافة الشمالية الشرقية لوادى النطرون، وتجمع من كل مكان معلومات عن الآثار. خيّمنا مبكرا ونجحنا في التغلب على الإنهاك الشديد ببقايا حساء الغزال وبعض النبيذ الأحمر شديد التأثير مع البيض. كان علواني هو بطل ذلك اليوم إذ أحضر لنا غزالا صحيحا معافى بعد مطاردة قصيرة. حتى ذلك الحين حافظنا على ذخيرتنا، وبإمكاننا الآن أن نمرح قليلا. لذا أقمنا مباراة تصويب للبدو في المساء. غرستُ زجاجة فارغة منكسة في الرمال على مسافة بعيدة ووضعت فوقها ليمونة كعلامة للشيخ وعلواني، بينما كنا أحيانا نصيب صندوق البسكويت الصفيحى الذى وضُع كعلامة لعبدالعال. استلقى الرماة على بطونهم وانطلق في الصحراء دوي الطلقات، التي تكونت بفعلها دوامة خفيفة.

في ذلك اليوم الممتع أظهر الشيخ مفتاح، مرشدنا الجسور غير المبالى بتعب، بعض علامات الضعف البشرى لأول مرة. ففى أحلك المواقف، التى بإمكان كأس ويسكى أن يعيد النشاط والقوة، فقد كان يعتبر حقا علاجا بسيطا، كان الشيخ مفتاح يرفضه دوما بفزع كبير. بل كان يمنع ذلك السائل المحرم من الله أن يكون محمولا على ظهر جمله إذا علم بوجودها في أحد الأمتعة. مساء في حفلة السمر التفت ذلك المسلم التقي إلى ابن عمى قائلا: "كوفمن أفندى، أعاني من آلام في ظهري وأكتافي". قيل له أن عليه أخذ قسطا من النوم لينتهي هذا الألم ويعود معافى كما كان. في الاستراحة القصيرة التي أخذناها قال مفتاح لابن عمى "إن الأدوية التى دلكت بها ذلك الصبي المريض في الصحراء ستجدي نفعا معي، فأنا متأكد من ذلك كثقتي في وجود الله" طلب منه ابن عمى فيما بعد أن يجلس بجوار مقاعدنا المطوية وأمر علواني بأن يدهن ظهره بالويسكى وأن يدلك المناطق التي تؤلمه. أشرنا إلى علواني، الذى أخذ الأمر على عاتقه بألا يهدر قوته وأنه على الشيخ أن يتحمل قليلا. وكان ذلك بلا فائدة.

وعندما استمر الألم فترة، التفت مفتاح إلى ابن عمى قائلا: "إن الألم ليس في الجلد ولكن في الداخل! سأدلك نفسي بانتظام لعدة أيام". أعطيناه ما تبقى من الويسكي بالزجاجة، وكان هذا بدون علم علواني الذي كان يراقب الشيخ سرا في المساء، وكان واضحا أن نشاطه الزائد كان بسبب ذلك "العلاج الداخلي" الذي التزم به ابن الصحراء.



بدوي وطفل وسط رخاميات المدينة المقدسة

تطلبت الأيام التالية القوة إذ بلغت الحرارة أعلى درجاتها منذ وصولنا إلى هنا، ففى المساء هبطت درجة الحرارة الصغرى على الترمومتر إلى نصف درجة مئوية ، وفي أحد الأيام وصلت درجة الحرارة العظمى في الواحدة والنصف ظهرا إلى ٤٦ درجة مئوية في الظل وأكثر من ٦٠ درجة مئوية في الشمس، بينما وقت شروق الشمس بلغت ٢٩ درجة مئوية. لم يكن لتلك الحرارة الشديدة أي تأثير على درجة حرارة أجسامنا، وساعدنا جفاف الهواء للتغلب على كل الصعوبات. فبدون الجفاف لكانت

الحرارة لا تُطاق، فهى بذلك تطابق درجة حرارة غرفة محرك سفينة حربية أثناء رحلتها في البحر الأحمر حيث يكون تغيير المداخن كل ساعتين شيئا ضروريا.

يقي البدو أنفسهم بأس الحرارة بلباس لا يألفه أبناء الشمال. بينما كنا نستعد في تلك الحرارة لخلع معاطف الكاك وإكمال السير مرتدين فقط سراويلنا التحتية والرداء التونسى الأبيض، فبمجرد شروق الشمس لف أبناء الصحراء أنفسهم بأثواب صوفية سميكة وأخفوا رؤسهم في عمامة من ثماني إلى عشر طيات سميكة، فما يظهر منهم سوى أنوفهم وأعينهم الحادة. لاحقا وأثناء عمليات التنقيب علمتنا التجربة ضرورة هذه الطريقة الغريبة لإبعاد حرارة الشمس الحارقة، حتى أنني أتعجب إلى الآن كيف لم نصب أنا وابن عمى بضربة شمس.

كنا نسير على مقربة من منحدرات جبل الند El-Ned على حافة وادي النطرون لزيارة أطلال مدينة الكفاري Medina Kiffari التي قام المستكشف الأفريقي الدكتور يونكر بدراستها من قبل. فعلى خريطته التى نشرت في جريدة *Petermanns geographischen Mitteilungen*[37] عام ١٨٨٠، تمركزت تلك الأطلال شمال شرق قصر القطاجي، حيث استغرق يونكر حوالى يوم في رحلته بين تلك الأطلال والقصر. ومن الغريب أن الشيخ مفتاح وعلواني الذين برعوا في صيد الغزلان بكل أنحاء صحراء أولاد علي تقريبا لم يعرفوا تلك "المدينة القديمة" ولم يسمعوا حتى اسمها من قبل.

لم يكن لدى ساكنى الخيام التي مررنا بها مصادفة علما بهذه المدينة، بل أعلنوا جميعا أن اسم الكفارى ليس بدويا، فبات واضحاً أن هذا المكان يحمل اسما

---

[37] أقدم جريدة ألمانية متخصصة في علم الجغرافيا. أنشأها أوجست هاينريك بيترمان عام ١٨٥٥. نُشرت بها أهم الاكتشافات الجغرافية في القرنين التاسع عشر والعشرين (المترجم).

آخر. لابد أن رسامي خريطة يونكر، التي رسموها اعتمادا على الملاحظات التي دوّنها ذلك المستكشف في مذكراته، قد أخطأوا، فبعد البحث الدقيق لتلك المنطقة نجد فقط بعض الأطلال غير المترابطة لعصر قديم.

لكن أثناء تلك الأبحاث سمعنا عن وجود منطقة كبيرة من الأطلال تقع شمال شرق البقعة المُحددة كمدينة كفاري، يُزعم أنها الأكبر في مريوط. قررنا أن نبحث عنها في وقت لاحق، وأن نكمل سيرنا في تلك اللحظة متجهين شرقا في خط مستقيم عبر صحراء أولاد علي، أملاً في اكتشاف آثار طريق القوافل القديم الذي قيل عنه ذات مرة أنه يصل بين الأسكندرية وأديرة وادى النطرون. أما عن معبد ميناس، فإن لم يكن على هذا الطريق، فلابد أنه في مكان مجاور، ولهذا كان من المهم تحديد مواقع الآبار القديمة. رغم ذلك كان اجتياز صحراء أولاد علي بلا فائدة. لم نعثر على أية خيمة، والأسوء من ذلك عدم العثور على بئر لإعادة ملء القِرب بماء صافي، بعدما أصبح مذاق ما فيها كريها. قادنا الطريق أحيانا إلى أجزاء من الصحراء تكاد تخلو من الغطاء الأخضر.

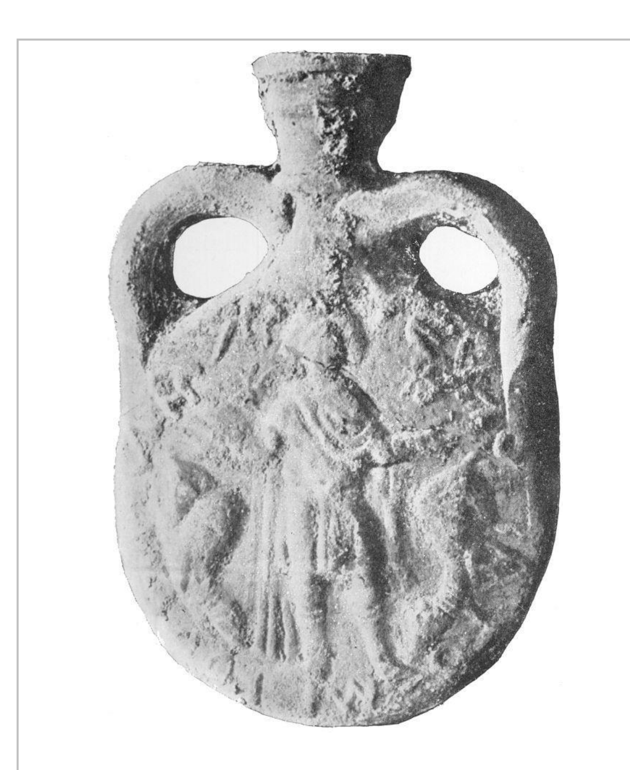
أخيراً وصلنا إلى معسكر مكون من ٢٣ خيمة في كوم مرغب، وقد اصطفوا بدقة ملازمين لسلسة الهضاب الصفراء التي تشبه قرية سوداء صغيرة. قدّموا لنا من مياه النيل التي ملأنا منها الزمزمية، وهي الزجاجة الدائرية المتدلية على جانب السرج. يعيش هؤلاء البدو في منطقة الدلتا، ويحصلون على المياه كل عدة أيام من إحدى قنوات الدلتا التي تتشعب أذرعها الخصبة في المنطقة الصحراوية. رأينا من منتصف الطريق صعودا للحافة منظر السراب مرتين متتاليتين. وفي الأفق امتدت بقعة متلألئة من بحيرة، وظننا أنها بحيرة مريوط، ولكنها اختفت خلال ساعات قليلة. انخدعت الإبل أيضا بهذا الظهور المميز للسراب، المُسمى "مياه الشيطان".

وعن هذه الظاهرة تداول البدو حكاية ممتعة في حلقاتهم، وقد ذكر شيخ قبيلة كوم مرغب أسماء الأشخاص المعنيين. تحكى القصة عن باشا سافر منذ أعوام في أنحاء المنطقة، وقد رأى أعجوبة تشبه تلك الموجودة في كوم مرغب. بينما كان يقوم بدراسة في إقليم مقاطعة البحيرة المجاور لاستصلاح السهوب، فرأى المياه من مكان أقرب كثيرا مما رأيناها نحن، وسأل شيخ تلك المنطقة وأراد أن يعطيه حق احتكار المكان مقابل مبلغ يتفق عليه الطرفان، وأن يسمح للمعسكر بالبقاء هناك إلى الأبد. تم تحديد اجتماع في دمنهور من أجل الوصول إلى اتفاق بهذا الشأن، فقبل شيخ أولاد على الماكر الصفقة بشكل جدي، وتم الاتفاق مقابل حفنة من الجنيهات الذهبية الإنجليزية. عندما علم الباشا فيما بعد بأنه قد تم خداعه بمياه الشيطان تلك تقبل الأمر بصدر رحب، بل ظل صديقا مميزا لأولاد علي.

راودني طيف في ذلك اليوم وما اعتبرته إلا مخيلة رجل مريض و قد صدقته في بادئ الأمر عندما أسرع إليّ علواني وقادني بعيدا قائلاً في فزع أنه لم يجرؤ رجل على النظر إليه. رأيت حينها ظلا عملاقا لشخص يركب جمل على قمة تل حجري يشبه مبنى قديم إلى حد ما. ظهر ذلك الظل معتدلا وليس معكوسا وكانت أبعاده تشبه أبعاد شبح بروكين[38] Brocken spectre .

[38] يُطلق عليه أيضا اسم قوس بروكين أو شبح الجبل. وهو ظهور ظل هائل للمشاهد ماثل فوق الأسطح العليا للسُحب. يظهر الشبح عندما تشرق الشمس من خلف المشاهد الذي ينظر لأسفل من فوق تل أو قمة على ضباب (المترجم).

وقد ذُكر مرة أخرى في كوم مرغب، على الأقل في أحاديث مساعدينا البدو، اسم شخصية غامضة لم نستطع أن نتبين مكانتها. فمن حين لآخر أثناء المسيرة الطويلة كان البدو يروون قصصا طويلة. لم يكل علواني وكان يكمل تلك الحكايات في الأمسيات بجانب نار المخيم، محاطا بحلقة من البدو الغرباء متلهفين لسماعه. لم نفهم الكثير من تلك القصص، ولم نتمكن أبدا من ربطها ببعض. لكن ما كان جليًّا هو تكرار اسم "مولانا". كانوا شديدي التعلق به.



قارورة مياه (أمبولا) القديس مينا (القرن الرابع الميلادي) وعليها تصوير لراعي صحراء ليبيا بين جملين، مع نقوش يونانية

أثار فضولنا تكرار ذكر القصص حول ذلك الشيخ المهم. عندما سُئل مفتاح لأول مرة عن ذلك المدعو "سيدي مولانا" الذي يتحدث عنه الجميع، توقف الحديث تماما ذلك اليوم. رغم أنهم لم يوضحوا الأمر إلا أنه تأكد لدينا أن ذلك الشيخ الغامض كان إحدى الشخصيات المشكوك فيها، ربما قائد إحدى حركات الشغب البدوية الكبرى أو أحد السياسيين المتواطئين. استمرت سيرة "سيدي مولانا" في الظهور إلى أن استسلم الشيخ مفتاح

وعلواني لأسئلتنا اللحوحة عنه واعترفوا أنه كان شيخا كبيرا من شيوخ أولاد علي، وقد وافته المنية. بالتأكيد أخبرونا بذلك للتخلص من إلحاحنا. لم تختف سيرته وتمكنا من جمع قليل من المعلومات عن تلك الشخصية الأسطورية، فقد بدا وكأن شخصه محاط بستار من الخرافات كأبطال قصص ألف ليلة وليلة. نتج عن تلك الأسئلة المتكررة ابتسامات واسعة من الرجال، كأننا ألقينا مزحة مضحكة. عزمنا على العثور فيما بعد على شيء أكثر تحديدا عن تلك الشخصية الغامضة وإبلاغ مأمور المركز أو البلدية في الأسكندرية. ولكن لحسن الحظ تم تفسير الأمر في كوم مرغب. فبعد مُواجهة جادة مع علواني - الذي أدرك أننا لسنا من يمكن العبث معه - اعترف أن "سيدى مولانا" ليس له وجود في الأصل ولم يكن حتى بطلا أسطوريا. كانت قصص مفتاح وعلواني في الحقيقة أساطير وحكايات خيالية مشهورة في العالم العربى باسم "حكايات أبو زيد الهلالى"، واتضح أن "سيدي مولانا" ليست إلا "لازمة" بدوية لا معنى لها، كتلك الجملة التي قد يقولها أي قاص بعد فاصل طويل "هذه هي الحكاية"، أو كما اعتاد بعض الأشخاص أن يقولوا فلان وفلان دون أن يقصدوا شخصا بعينه. و لكننا ظللنا متشككين فيه ولم نصدق هذا التفسير إلى أن تم تأكيده بعد فترة. كان الكشف عن ذلك الماكر "سيدي مولانا" أمرا مثيرا للاهتمام.

غادرنا كوم مرغب ليلة السابع من يوليو لنستكمل استكشاف صحراء أولاد علي، ولكن من الشرق إلى الغرب هذه المرة. وصلنا إلى الأطلال التي يسميها البدو كرم أبومنا بعد رحلة شاقة للغاية عبر السهب الذي كان نصفه صحراء والنصف الآخر حطية.

شعرنا بالأمل عندما بلغت القافلة الإقليم الذي يطلق عليه البدو المجاورون اسم كرم أبوم وبومنا في وقت متأخر من ظهيرة السابع من يوليو. لم يكن الشيخ مفتاح ليخيم هناك تحت أي ظرف حيث امتلأ المكان باللصوص والأعداء. ولكن ابن

عمى كان منهكا بشدة واحتاج يوما من الراحة، ولم يفقد طاقته حتى أصر على نصب الخيام بالكرم، بالقرب من أنقاض وأحجار مدينة قديمة. وبمجرد أن نصب البدو الخيمة استلقى على كرسي قابل للطي، منهكا ونبضه بطئ. طلب مني أن أعد له كمادات براندي، بينما كان يبحث مفتاح عن لبن، ولكن بلا جدوى، وأسرع علواني وعبدالعال إلى بئر عسيلي، ليجلب منه أحدهما الماء بأسرع ما يمكن، والآخر ليسقي الإبل. ظل ابن عمي على هذه الحالة طوال الليل ولم يواته النوم. أراحته كمادات البراندي قليلا، وفي إحدى اللحظات ظننتُ أنه يموت، ولأن نفس المخاوف ساورته، لم يدعني أنطلق إلى الأسكندرية لإحضار طبيب. ساءت حالته كثيرا عندما أحضر مفتاح بعض اللبن من إحدى الخيام، وكان للأسف محفوظا بقربة من جلد الماعز، الذي أدى طعمه الرهيب والمقرف إلى القئ.

عندما ساءت الأمور إلى أقصى درجة، جاء علواني مسرعا من الكرم الشمالي ومعه قربتين من الماء. يُعتبر بئر عسيلي أحد أفضل الآبار في مريوط، ولكن للأسف قبل وصول رجالنا مكث هناك قطيع من مائة جمل تقريبا لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، وكانت المياه التي أحضرها كدرة ومالحة بعض الشيء. ولكنها لم تكن عفنة تماما، ولم يكن بها طعم القربة الكريه الذي يثير الغثيان، والذي يُذكرنا برائحة المقصورات الصغيرة عديمة التهوئة بالسفن عابرة المحيطات عندما أجبرنا بوسيدون Poseidon[39] أن ندفع له إكرامية.

على الرغم من مرضه، فقد ظل شغف عالِم الآثار متحكما بابن عمي كوفمن، وكذلك الأمل الضئيل بأنقاض هذه المنطقة، وأصرّ على القيام بمسح. كانت الخيمة منصوبة على كوم مسطح أصفر، بالقرب من المنطقة التي أُقيمت عليها فيما

[39] إله البحار والزلازل في الميثولوجيا الإغريقية (المترجم).

بعد مباني التنقيب. لم يُر منها بحر الأنقاض المذكور بالأعلى، وقد يتصور القارئ حماستي عندما رأيت فجأة، في جولتي الأولى فوق سلسلة الأكوام، تلك الفوضى من كتل الحجر الجيري مبعثرة بلا ترتيب، فلا يوجد حجر فوق الآخر. كان مرتَفعا خطرا، كنتُ مدججا بالسلاح خوفا من اللصوص - الذين تعرّفتُ عليهم لاحقا ووجدت أنهم رجالا شجعان، تورّطوا بعد ذلك في نزاع مع عائلة شيخنا - مما أعاق حركتي في كل خطوة. وبذلك تسلقته لإيجاد أنقاض مبنى أو بعض الآثار لإشباع الفضول والتشويق. ولكني لم أجد شيئا.

على مدار القرون العديدة قامت كلٌ من يد الإنسان والصحراء بتدمير كل شيء، وهو ما كان منظره رهيبا ومهيبا. وبالقرب كانت هناك سلسلة من التلال القاحلة، والتي يُطلق عليها اسم الأكوام، والتي تغطى سطحها بالقطع الأثرية. في مسيراتنا الطويلة عبر الصحراء استطعنا غالبا تحديد عُمر طبقات الأرض العليا والعصر الذي تعود إليه، مما وجدناه عليها من قطع فخارية وأواني، واعتادت العين سريعا على التقاط، من بين مئات القطع، تلك التي تميزت بالقليل من الزخرفة، أو ظهرت عليها آثار الصنعة.

والآن حالفني الحظ لأجد على إحدى هذه الأكوام قطعة عليها بقايا تصميم، وآخرين عليهم علامات واضحة لدمغة مختومة. أنهت المسألة قطعة صغيرة من إطار عليها رأس جَمَل. رأيتُ في متحف القاهرة وعينات شيس باشا ما يُطلق عليه قارورات ميناس، والتي يظهر عليها القديس راعي الصحراء الليبية بين جملين راكعين. ساورني الشك أن ما عثرت عليه كان قطعة من تلك الأمبولات، فرقصت فرحا. تمالكت نفسي بسرعة، وبدون خوف من الغرف الأرضية أو أعداء مفتاح، ركضت بسرعة وصولا إلى المخيم لتوصيل الأخبار.

في اليوم نفسه أحضر لنا ابن شوكان "أنتيكة"، هديته الشخصية؛ لأننا قدمنا لأمه مقعدا زائدا عن حاجتنا، وبعض البن المطحون، وكمية جيدة من السكر. وضع الفتى على ركبتي ابن عمي زجاجة سليمة لأحد الحجاج، وعليها صورة القديس مينا، والجمل كرمز للصحراء، وكتابة لاتينية تقول: "نصب تذكاري في تمجيد القديس مينا." بدا الإناء الطيني جديدا ونظيفا كما لو أنه تم الانتهاء من صنعه حالا. لابد أنه كان محفوظا في مكان آمن تحت الأرض، ولذلك استفسر أخي عن المنطقة التي وجد بها، وكافأ الصبي بمقدار قبضة من مكعبات السكر. قال: "هذا من أجل أمي"، ولحسن حظ أسنانه الجميلة فقد منعه جهله البدوي من معرفة مايفعله الأولاد بالسكر، ورد الصبي قائلا: "يمكنك أخذ الكمية التي تريدها منهم (آثار الفترة المسيحية المبكرة) هنا بالقرب من متناول اليد."

كان لقطعة الآثار الصغيرة مفعول الدواء على كوفمن الذي انتفض قائلا: "يجب علينا الذهاب فورا إلى المنطقة". رافقنا، وتأكدنا تقريبا مما كان حتى اليوم مجرد تخمين. بعد عملية حفر بسيطة قام بها ابن شوكان بواسطة الفأس ويديه البنيتين، وصلنا إلى ثقب عمودي، دائري الشكل بالأعلى، والذي استخرجنا منه أباريق صغيرة واحدا تلو الآخر، وقارورات الأمبولا، وبعض القناديل، وكلهم من مادة طينية صفراء خفيفة (تيراكوتا)، ومحفوظين جيدا كما لو أنهم تُركوا بالأمس، وليس منذ أكثر من ألف عام. تأكدنا أكثر بعد العثور على فرن فخاري كامل. على الرغم من عدم سماح الظروف بذلك، فقد أراد ابن عمي مسح حقل الآثار القديمة. لقد كان متأكدا أن لهم طابع الفترة المسيحية المبكرة. بالمنتصف كان يوجد كومة من الحجر المنحوت، والتي قال الشيخ مفتاح أنها تعود لأحد القصور القديمة للخليفة، ظهر بموقع الكتل المحطمة قبة عملاقة.

صاح كوفمن: "يجب أن ننقب هنا، لا بد أن هذه هي قبة معبد ميناس." إن موهبة كوفمن على التنبؤ لم تخذله. حيثما قد يرى الآخرون فوضى من كتل الحجر المنحوت، فقد عثرنا نحن بالفعل على نهاية الكاتدرائية العظيمة للإمبراطور أركاديوس، وهي ملحق لمقبرة راعي الصحراء الليبية. الشك الوحيد الذي راود ابن عمي كان بخصوص الحجم والمساحة غير المتوقعين لمنطقة الأنقاض، واللذان يشيران إلى مدينة كاملة.

لم نكن أول من يأتي من المستكشفين إلى "بومنا" أو كرم "أبو مينا". ولكن لم يتنبأ أحد بالأهمية العظمى التي تمثلها تلك الآثار للتاريخ. كان الشاب الشجاع باشو ، الذي ما زال أبناؤه يعيشون بالأسكندرية، أول من أدلى بمعلومات عن بومنا في كتابه المعنون "تدوين أحداث رحلة في إقليم مرمريكا *Relation d'un voyage dans la Marmarique*" الذي نشر في باريس عام ١٨٢٧. كنا نكنّ لباشو احتراما عظيما، فهو من وضع أساسات البحث ببرقة، وستُخلد دوما ذكرى موته المبكر والمأساوي. مرّ ببومنا عام ١٨٢٥ - والتي وصفها بـ "المدينة الرومانية *Bourg romain*" - آتيا من أبو صير، في طريقه إلى قصر القطاجي، حيث قرأت اسمه بكل أسى على جدران القلعة. وكذلك يونكر، الرحالة في الأراضي الأفريقية، الذي كان مرشدا ممتازا لنا بطرق عدة، ربما رأى آثار بومنا أثناء عبور صحراء أولاد علي في ١٨٧٥. على الأقل أنا أميل لوجهة النظر هذه. لا يمكن لمدينة الكفاري بخريطته، التي بحثنا عن موقعها القديم بلا جدوى، إلا أن تكون كرم أبو مينا. ومن الجدير بالذكر أنه وصف كتل جرانيتية في المنطقة، حيث الأنقاض مصنوعة بالتأكيد من الحجر الجيري. قد يقع المار بهذه المنطقة دون تدقيق النظر في خطأ كهذا بسهولة.



بدوي وسط أطلال مدينة مينا وقت اكتشاف المدينة الأثرية

عندما كنت أقوم بتجهيز إصدار كتابي "أغاني البدو" في ١٩٠٧ كان مُعلمنا الثالث بالمعنى الحرفي، البروفسور هارتمان Hartmann من برلين. كان قد سافر قبلنا بعدة سنوات إلى منطقة بومنا في رحلة صغيرة بالصحراء لجمع مواد لغوية وشعرية.

كانت قبائل البدو المستقرة هنا – إذا أمكننا قول إن للبدو سكن مستقر – هي أول من أعطانا معلومات بخصوص أصل كلمة الاسم العربي "بومنا". منذ وقت طويل تنصب قبيلة ثرية ومعروفة – أطلق عليها الأجداد القدماء اسم "أبو الدير" – خيامها لعدة أشهر كل عام بالقرب من الكرم. أعطانا هذا مفتاح معنى اسم كرم أبو مينا.

وهكذا فإن مدينة ميناس تعيش في حكايات السيرة الهلالية من الأساطير العربية باسم "كرم الأب ميناس"، والتي في بعض الحكايات ينتسب إليها أبو زيد

الهلالي. لم نكن نعرف ذلك حينها، ولكننا كنا على اطلاع بمصدر عربي أقوى، والذي احتل المكانة الرئيسية في المادة العلمية التي قام ابن عمي بتجميعها للحملة. أقصد وصف دير ميناس في وقت تدهوره، والذي قام عالم الآثار الفرنسي كواترمير Quatremère[41] بنشره في ١٨١٠، والذي ما زال محفوظا في إحدى المخطوطات الباريسية، وهي عمل أحد الرحالة العرب.

ربما اعتبرت القصة المشوقة عن "أبو زيد الهلالي" ذلك الذي عاش مرتحلا في عام ١٠٠٠ تقريبا من إنتاج الخيال الشرقي حتى أكّدت التنقيبات صحة وجودها.

في الترجمة الموجودة في بحث كوفمن الأول عن تنقيبات ميناس العظيمة يقول الآتي: "تركت طرانولي Terenouli، وهي مدينة قبطية أسقفية بالجزء الجنوبي الغربي من دلتا النيل (والمقصود قرية طرانة الحالية)، وأكملت الطريق إلى برقة، وبذلك وصلت إلى مينا، التي تتكون من المدن المهجورة وسط الصحراء الرملية، والتي ما زالت مبانيها موجودة. يختبئ العربان بها لقطع الطريق على المسافرين. يمكن رؤية قصور رائعة البنيان محاطة بجدران قوية، وهم محاطون في العموم بأقبية مسقوفة تصلح بعضها كصوامع للرهبان. ما زال هناك القليل من عيون المياه العذبة، ولكنها نادرة. وهكذا فإنك تأتي إلى كنيسة القديس ميناس، وهي مبنى ضخم مزين بالتماثيل، واللوحات رائعة الجمال، حيث تشتعل القناديل باستمرار ليلا ونهارا. في نهاية المبنى توجد مقبرة رخامية كبيرة وجملان رخاميان، وفوقهما رجل يضع قدما فوق كلا الجملين، وإحدى قبضتيه مغلقة والأخرى مفتوحة. هذا التمثال، وهو من الرخام أيضا، يُقال أنه يمثل القديس ميناس.

---

[41] أنطوان كريسيستوم كواترمير دو كوينسي Antoine-Chrysostome Quatremère de Quincy (١٧٥٥ – ١٨٤٩) عالم آثار فرنسي الجنسية. شارك بنظرياته في علوم الهندسة المعمارية والفنون (المترجم).

في نفس الكنيسة يوجد لوحات ليوحنا وزكريا وعيسى على الجهة الداخلية لعامود رخامي كبير على يمين المدخل. أمام التماثيل يوجد باب يظل مغلقا. يمكن رؤية بساط يغطي تمثال العذراء مريم، وتماثيل لكل الأنبياء.

على الجدار الخارجي للمبنى يوجد تماثيل لكل أنواع الحيوانات ورجال من مختلف الحِرف. من بينهم يمكن تمييز أحد تجار العبيد وبيده حقيبة. بمنتصف الكنيسة يوجد بناء مقبب بأسفله ثمانية تماثيل، إذا كان ما اطلعت عليه صحيحا، فهي تمثل الملائكة. يوجد بجوار الكنيسة مسجد يتجه محرابه إلى الجنوب، حيث يأتي المسلمون للصلاة.

تُزرع كل الأراضي المحيطة بالمبنى بأشجار الفواكه، وبشكل أساسي أشجار اللوز والخروب، الذي يُصنع الحساء من ثمارها الحلوة الطرية. يمكن أيضا رؤية العديد من الكروم، التي تُنقل أعنابها ونبيذها إلى القاهرة."

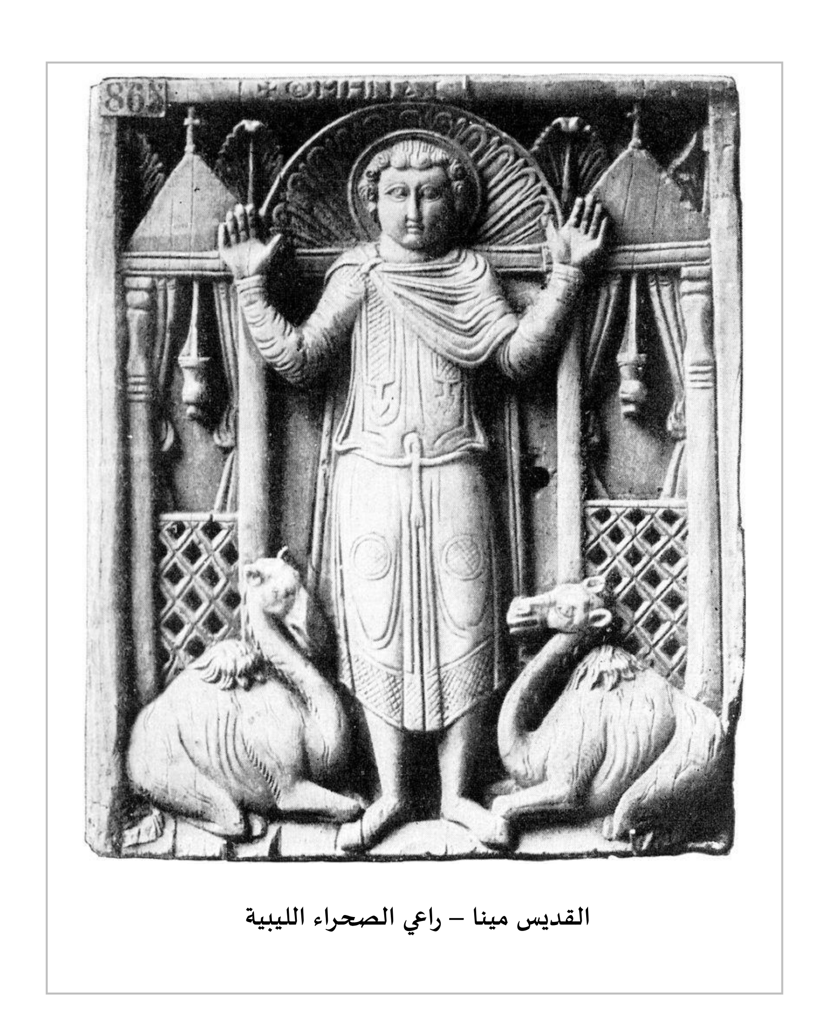
لو أن هذا الوصف ذو صلة بمشهد الأنقاض التي رأيناها لأول مرة، فإنه يُظهر بطريقة مذهلة ما ابتلعته الصحراء تماما، ومدى الدمار الذي طال القصور الأبية للمدينة القديمة وملحقاتها الغنية بالغطاء الأخضر الوفير والنخيل الشامخ. ما الذي تبقى من "فخر ليبيا بأكملها"، وهو الاسم الذي أطلقه سوفرونيوس[42] على معبد ميناس؟ وحيث لم يبق حجر على حاله، هل كان من المحتمل أن تبقى بعض الآثار محفوظة في باطن الأرض، والتي قد تُعطى للأجيال القادمة فكرة عن ماضيها المدهش؟

---

[42] سوفرونيوس Sophronius (٥٦٠ – ٦٣٨) بطريرك القدس منذ ٦٣٤ حتى عام وفاته، يعتبر قديسا عند الكنائس الشرقية والكاثوليكية. سلك سوفرونيوس طريق الرهبنة في مصر حوالي عام ٥٨٠ (المترجم).

من هو القديس ميناس ؟

يجدر بنا هنا قول كلمة عن القديس القومي المصري وراعي الصحراء، ووصفه بشكل أدق عما يبدو تحت ستار الأسطورة. من كان ميناس؟ ذلك الذي خصص من أجله أحد أفضل الأديرة في تاريخ الفترة المسيحية المبكرة، الذي سافرت إلى ضريحه بالواحة جماعات من الحجاج، الذي دعم معبده أشهر شخصيات العصر المسيحي المبكر مثل أثناسيوس وقسطنطين ؟



القديس مينا – راعي الصحراء الليبية

توفر النصوص الأثيوبية التي اكتشفها كوفمن المعلومة الأولى الكاملة. بجانب القصة المأساوية لاستشهاد ميناس، فإنها تقدم حقائق كثيرة ذات أهمية تاريخية.

كان القديس ميناس، الذي يحتفل بذكراه الرومان الكاثوليك والكنائس اليونانية في الحادي عشر من نوفمبر، وتحتفل الكنيسة الشرقية في الخامس عشر من الشهر القبطي هاتور، ضابطا مصريا في القوات الرومانية. كانت أمه تُدعى إيوفيميا Euphemia، وكان والده عقيدا في البجيش، وهكذا تم ترقيته ليكون محافظ

فريجيا[43]بآسيا الصغرى. لم يكن ميناس الشاب، الذي قام والداه بتعليمه تعليما مسيحيا جيدا، منجذبا نحو المهنة العسكرية، ولكن وريث والده في الحكم (والذي أحب الشاب) اضطر لإلحاقه ليصير جنديا. لذا انضم ميناس إلى الوحدة العسكرية ضد إرادته، وسار كل شيء على ما يُرام إلى أن وقع اضطهاد المسيحيين بآسيا الصغرى على يد دقلديانوس Diocletian، الذي واصل قبضته القاسية ضد المسيحيين في الفرق الريفية. وصل الأمر إلى كوتايون Kotyaion (حاليا كوتاهية) Kutahia[44] والتي أبرم فيها محمد علي حاكم مصر معاهدة سلام مع تركيا في ١٨٣٣.

كانت كوتايون هي الحامية التي تمركز فيها ميناس فيما بعد. وبما أنه كان ممتعضا من الخدمة العسكرية، فقد هرب إلى أطراف الصحراء، وعاش هناك فلاحا في حياة من إنكار الذات والعمل الشاق. راودته هناك رؤية حثّته على الاستشهاد، ونبّأته بأهمية ديره المستقبلي. "سيكون استشهادك أعظم من استشهاد حشد من شهداء الدم، وسيتقدس اسمك، وستأتي جماعات الناس من كل بقاع الأرض؛ لتحتمي في ديرك، الذي سيقام بأرض مصر، وستعبّر قوتك عن نفسها وستحدث الكرامات الأخرى والإشارات، وسيتحقق الشفاء من خلال جسدك المقدس."

وكنتيجة لهذه الرؤيا بالصحراء، فقد تحدى الضابط السلطات في ظروف غير اعتيادية. كان يوم مهرجان الفرسان في ملعب كوتايون. تجمهرت جماعة ريف فريجيا، وكذلك ساكني البلدة، مع أعيان المجتمع، واستقر الجيش في أماكنه، محيطين بالحاكم بيروس Pyrrhus. كانت الألعاب على وشك البدء، عندما تقدم

---

[43] فريجيا Phrygia كانت قديما مملكة في الجزء الغربي المركزي بالأناضول. تعرف حاليا باسم تركيا الآسيوية (المترجم).

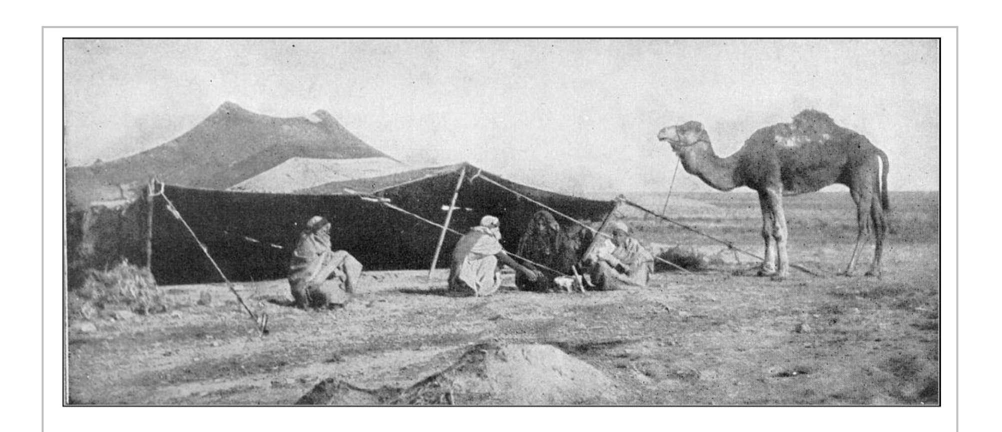
[44] مدينة بغرب تركيا تطل على نهر بورسوك. يوجد بإقليم كوتاهية مساحات واسعة من المنحدرات المعتدلة والأراضي الزراعية تصل إلى قمم الجبال شمالا وغربا (المترجم).

ضابط شاب إلى الحلبة، وأعلن عن نفسه بصوت عالٍ وواضحٍ للقوات المسلحة كنصير للدين المحظور. كان هذا الرجل هو ميناس. اضطر الحاكم إلى تنفيذ قوانين روما عليه. سُجن ميناس. عاملوه جيدا من أجل عائلته، ولأنه كان محبوبا كضابط. ولم يُجد ذلك نفعا، فقد أعلن إيمانه بالمسيح في كل جلسة سماع، وباءت كل محاولات إجباره على الامتثال للأمر الإمبراطوري بالفشل. كان على الحاكم بعد ذلك أن يتناول الأمر بشكل جدي. بدأ بالتهديدات، ولكنها لم تسفر عن أي شيء، فاضطر إلى اتخاذ خطوات أكثر حزما. مارست محاكم التفتيش الرومانية الإمبراطورية فظائعها، فلم يكسر التعذيب الشرس أو نزع اللحم بالكماشات الحديدية شجاعة ذلك المؤمن، وفي النهاية قُطعت رأسه بالسيف في عام ٢٩٦ بعد الميلاد.

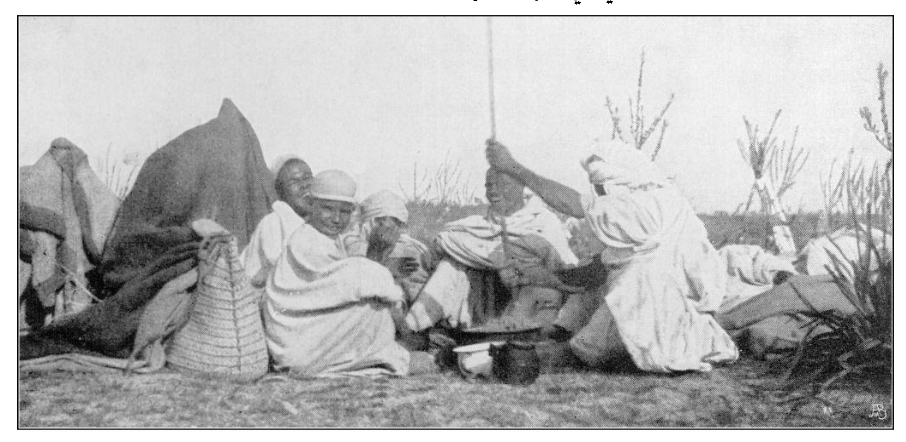
أثناء عملية التعذيب أشار الشهيد برغبته بأن يُدفن بأرض بلاده بمصر، لقد تجاوزوا كثيرا إلى حد إحراق جثته. عندما غادر الجلادون (تم تنفيذ حكم الإعدام أمام بوابات البلدة) اختطف بعض المسيحيين الصالحين جثة الشهيد من ألسنة اللهب، وحفظوها في نعش خشبي.

بعد فترة تم إرسال جزء من القوات الفريجية إلى برقة، وتم تسليم القيادة إلى ضابط مسيحي يُسمى أثناسيوس Athanasius. أراد أن يُلبي رغبة القديس سرا، وأيضا ليضمن حماية أكبر لجيشه، ولهذه الأسباب أخذ الجثة في حملته العسكرية. دارت معركة عظيمة في بحيرة مريوط، وهي أول محطة توقف بين الأسكندرية وبرقة، وانتصر فيها أثناسيوس، وعندما حان وقت العودة تمنى أن يأخذ جثة ميناس، تميمة الحرب خاصته، ولكن الجمل رفض أن يحمل الصندوق الخشبي أكثر من ذلك، وبذلك دُفن القديس بهذه المنطقة.

سرعان ما أصبح مكان الدفن معروفا. فقد رأى طفل مريض ضوءا لامعا فوقه، وشُفي هناك، وأعلن أحد الرعاة في كل مكان أن قطيع حيواناته المريضة الذي زحف على أرض هذا المكان ثم في الماء، شُفي فجأة. "وجاء إلى القبر كل من عانى من أمراض مختلفة، وهنا تم شفاؤه بالكامل." الأميرة البيزنطية المجذومة والنسوة العاقرات ومن يعاني من داء الفيل، ومختلو العقل، وذوو أمراض أخرى، نالوا كلهم الصحة والنجاة من ينبوع الشباب في مدينة ميناس.



خيمة بدوية في الأرض الزراعية القديمة لمدينة ميناس



بدو يطهون الطعام باستخدام أعواد من نباتات المروج العشبية

بُنيت كنيسة فوق القبر فيما بعد في عهد أثناسيوس بطريرك الأسكندرية، "بمساعدة الملك تاوس Taos الذي يخشى الرب"، أي قسطنطين العظيم. شاركت مصر كلها بكهنتها وأساقفتها بسعادة في تقديس دير ميناس. سرعان ما ضاقت مساحة الكنيسة على وفود الزائرين، فتم توسعتها بمبنى الكاتدرائية العظيم للإمبراطور أركاديوس. بنى الإمبراطور زينو مدينة وشيّد قصرا لنفسه بالقرب من المعبد، وأنشأ

حامية كبيرة ضد البدو. نظّم نقل المرضى إلى الدير، يُقال عنه في نهاية النص الإثيوبي: "وصلت شهرة كراماته إلى حدود كل الأراضي."

العودة إلى الإسكندرية

بعد ظُهر العاشر من يوليو عام ١٩٠٥ عدنا إلى الإسكندرية قاصدين كازينو المكس، وهي الضاحية المشمسة في الأسكندرية . تخلينا من أجل عبد العال عن رحلة على خط السكة الحديد الخديوي من العامرية إلى الأسكندرية. كان الشاب البدوي متشوقا لرؤية "إسكندرية"، للسير في شوارع مدينة حقيقية، وليبدي إعجابه بالسيدات البيضاوات غير المحجبات، واللائي سمع عنهن قصصا كثيرة في الخيام العربية.

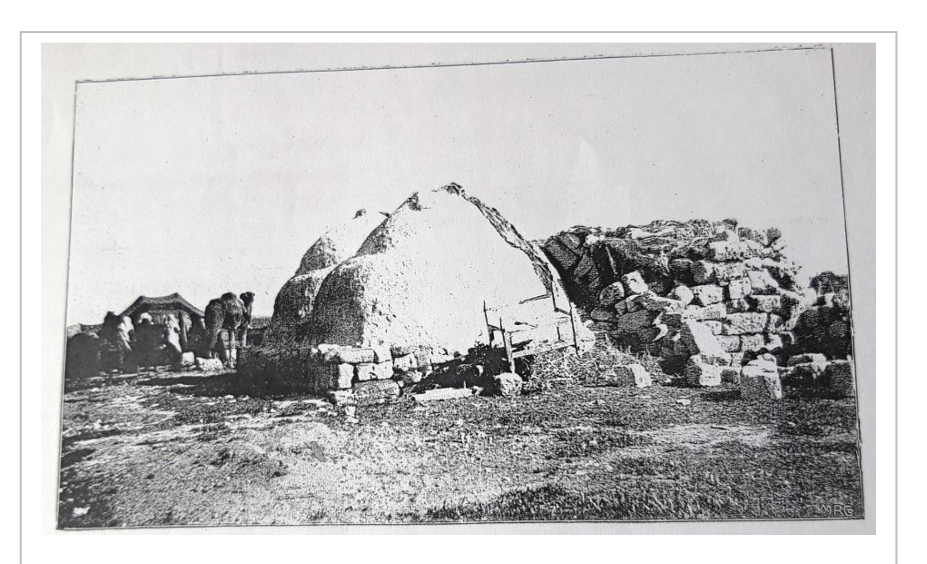
بينما أبهجنا منظر البحر بعد رحلة طويلة بالصحراء، فقد شعرنا بالسعادة عندما رأينا الكازينو بمساحته واتساعه الكبير. وجدنا هنا خبزا - لم يكن لدينا لأسابيع - والمياه الصافية الشفافة، والملاهي المصرية. لم نصرخ طلبا لأي شيء سوى "شيئا صالحا للأكل!" أي شيء سيكون أجمل مذاقا من البزموت[45]والمورفين والكينين، غير أننا لولا الأخير ما كنا لنتخطى أي من هذا. ولكني لا أعني بهذا أن هالة الروعة الأخيرة التي دام حضورها في رحلتنا خلال الصحراء تلاشت واختفت. ساعة واحدة قبل أن يسحرنا السير فوق السد الضيق لبحيرة مريوط، وشارك ابن عمي، الذي كان وما زال مريضا، الحماسة والدهشة الصامتة لعبد العال عندما رأى الشاب البدوي لأول مرة، من فوق مرتفعات عبدالقادر، المنظر البعيد لمدينة الأسكندرية المحاطة بالبحر والبحيرة، ومآذنها الرفيعة ومناراتها، التي ظنّ أنها "عواميد" مبنية بدقة لدرجة أنها آيلة في كل لحظة للسقوط.

---

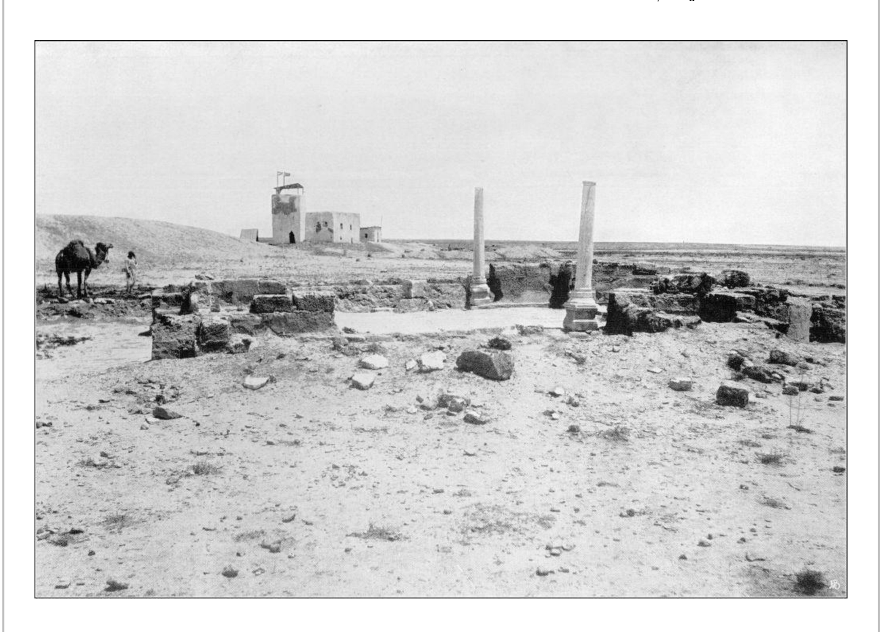
[45] مادة كيميائية تُستخدم مركباتها كدواء لمنع الإسهال ولعدوى العيون (المترجم).

استمتع أولاد الصحراء المندهشين بالتجربة في كازينو المكس. غير أن منظر البدو لم يكن جديدا على الزوار. فالكثير منهم يُرى يوميا في الأسواق، وفي مقاهي يونانية ومحلية معينة بالأسكندرية. ولكن الدخول بهم إلى الكازينو كان حدثا جللا. ولأن واحدا منهم كان عليه البقاء مع الجِمال، فقد أخذ الشيخ مفتاح المناوبة الأولى. كان المطعم خاليا تقريبا، فقد استلقى الناس في الهواء الطلق على الشاطئ أو كانوا يشاهدوا السباحين، ولكنهم سرعان ما أصبحوا مركز الاهتمام والفضول. جلسنا على إحدى الطاولات على جانبي الشيخ، الذي لم يشعر بالارتياح في كرسي الحضارة الغربية. لحسن الحظ فقد اعتاد على الجلوس بالطريقة العامة، لأننا في الصحراء كنا غالبا ما ندعه يجلس على كرسينا الثالث للحصول على بعض المتعة، وبعدها بعشرة دقائق كان يرفع رجليه سرا ويقرفص على الكرسي، كما يفعل على الأرض الرملية. لم تسمح كراسي الكازينو بذلك. تحمل مفتاح الموقف بجلد كبير. أزعجنا المارة الفضوليون أكثر مما أزعجوه، كما لم تُقدم في هذه الساعة سوى الأطباق الباردة، فقد مرت الوجبة بسلاسة. بالطبع استخدم أصابعه، بعد محاولة استخدام الشوكة التي جعلته مرتابا من أسنانها الحادة. تناولنا المياه الغازية المثلجة فقط، واستقبل صوت فرقعة الفلين عندما تم فتح الزجاجات بسعادة كبيرة. صرخ في كل مرة "رصاص"، والمقصود بها "طلقة!" تنافس النوادل فيما بينهم لخدمتنا، وأشك كثيرا ما إذا كان البدو هم من أثاروا اهتمامهم أم الأوروبيين المتسخين والمحترقين من الشمس. سأل أحدهم إذا كنا ضباطا أتراك وأتينا من برقة. أجاب المونسينيور كوفمن: "نحن ألمان، ومكثنا شهرا بالصحراء". عندما غادرنا تقدّم نحونا أول مراسل. كان وداع مفتاح وعبد العال مؤثرا. لم يتوقف الأخير عن تقبيل أيدينا، وقال الشيخ، والدموع في عيني الصقر، وهو يعانقنا: "أنتما أبنائي، وأنا والدكما".

نظرنا لبعض الوقت على أصدقائنا خلف غيمات الأتربة التي خلّفتها عربتنا.



بيت بدوي تم بناؤه من أحجار كاتدرائية الكنيسة – من مكتشفات البعثة



بقايا كنيسة ظاهرة في مقدمة الصورة وفي الخلفية غرف حملة التنقيب في قصر أبومنا

الفصل السادس

كيف استكشف البدو المدينة المصرية المقدسة[46]

في حملة مدتها سنتين

[46] العنوان الأصلي الذي استخدمه المؤلف هنا هو "كيف اكتشف البدو مدينة لورديس". ولورديس Lourdes مدينة فرنسية تقع في الجهة الجنوبية الغربية قرب الحدود مع إسبانيا بجانب جبال بيرنيز. يبلغ عدد سكانها ١٧,٠٠٠ نسمة. في منتصف القرن التاسع عشر أصبحت محجّا ومركزا للسياحة الدينية لوجود دير السيدة مريم العذراء والذي يحمل عنوان سيدة لورديس Sanctuary of Our Lady of Lourdes وتشتهر بكونها مزارا للرومان الكاثوليك يقصدونها للاستشفاء من الأمراض العضوية (المترجم).

في الحادي عشر من يوليه عام ١٩٠٥، بعد أربعة أيام من الاكتشاف، نشر في "الصحيفة الفرانكفورتية[47] "The Frankfurter Zeitung خبر العثور على "مدينة تعود لبواكير الفترة المسيحية بالصحراء الليبية، مع كل ما يشير إلى أنها دير ميناس الذي طال بحثنا عنه". سافرنا عدة أيام إلى منطقة الفيوم الجميلة، حيث استغرق كوفمن ثانية مع تجار الآثار والأنتيكات، وسرعان ما استعاد عافيته، وأبعدنا عن الصحفيين.

نصحنا شيس باشا بألا نُدلي بأية معلومات عن هذا الاكتشاف الرائع حتى نحصل على إذن بالتنقيب من الحكومة المصرية. أصر ابن عمي على تنقيب دير ميناس، على الرغم من أن أدواتنا قليلة وبالكاد تسمح برحلة العودة إلى الديار.

تلقينا وعودا من بروجش باشا Brugsch نائب مدير المتحف المصري، وماسبيرو Maspero المدير المسئول وعالِم المصريات الشهير، والمدير العام لهيئة "خدمة الآثار" بدعم الطلب الرسمي، وحددت الوزارة شهر نوفمبر من عام ١٩٠٥ للحصول على الإذن بشكل مؤكد. ولكن ما كان ينقصنا هو المال.

وحده رجل ذو حيوية وعزيمة قوية يستطيع أن يستمر بخطة ويُتم أهدافها العظيمة مثلما فعل كوفمن على مدار السنوات التالية. فقد اضطر لمواجهة صعوبات عدة، منها: نقص الأموال والعداء والغيرة، فقد كان عليه أن يحيا حياة تقشفية على حافة الصحراء الكبرى، وهو أصعب ما أمكننا التغلب عليه بسبب الإجهاد العقلي

---

[47] جريدة ألمانية ظهرت بفرانكفورت في الفترة بين عامي ١٨٥٦ إلى ١٩٤٣. تُعتبر الصحيفة الوحيدة التي لم تقع بالكامل تحت سيطرة وزارة الرايخ للتنوير والدعاية العامة في العهد النازي. قام بشرائها الكاتب والسياسي الألماني ليوبولد سونمن Leopold Sonnemann. كانت الصحيفة تعنى بالأخبار والتعليقات السياسية (المترجم).

الدائم والانتباه اللذين ارتبطا بالمخاوف الأخرى. فأنا اعتبر أن مصاحبتي له في الصحراء كانت أكبر ثروة حصلت عليها في حياتي. فأنا لم أدخل مدرسة ثانوية قد تؤهلني إلى الدخول إلى أواسط العالم القديم، وإلى سحر أفريقيا، وهو ما كنت متحمسا له كطالب! فلو أن كل شيء ظل على حاله، فإني لم أطمح - ومازلت - سوى أن أكون مُعلما قرويا متواضعا، وهي رغبة بُنيت أساسا على المتعة والرضا التي يبعثها بداخلي هذا النداء، ويتضاعف هذا الرضا إذ أني كشاب حظيت بكل تلك التجارب القيّمة.

عدنا إلى ديارنا في ألمانيا صيفا للحصول على المال من جهة، وللتحضير لحملة استكشافية كبرى من جهة أخرى. ولكننا عدنا ثانية إلى أراضٍ مصرية في الثامن عشر من أكتوبر.

لن ينعقد مجلس "الإدارة العامة للآثار" قبل نوفمبر، ويجب علينا أن ننتظر حتى ذلك الحين للحصول على موافقتهم بالتنقيب. في تلك الأثناء سمح السيد جاستون ماسبيرو Gaston Maspero متفضلًا لابن عمي أن يقوم بالتنقيب مؤقتا، ولذلك لم يكن هناك سبب يمنعنا من بدء العمل. وبفضل لُطف دكتور بود Bode، مدير متحف برلين، توفر لنا المال. كنا التقينا قد في فيينا بالسيد بود خلال مسار رحلتنا - وهو أحد أعظم رجال الفن - في منزل السفير فريهير فون توتشر Freiherr von Tucher، وقد بدأنا العمل بأمان، وهي الخطوة الأصعب التي تطلّبت جرأة كبيرة.

أثناء هذه البداية، لم يفكر أي منا في التدوين بالمذكرة، أو ما يطلق عليه علماء الآثار "الدورية". كانت هذه هي الفترة الوحيدة التي تجاهلنا فيها الكتابة. كان هناك الكثير من الزيارات للقيام بها، والكثير من المفاوضات مع محافظ الأسكندرية، الذي لحسن الحظ أوضح لنا أن أرض كرم أبو مينا أرضا حكومية (وكنا قد استعدينا

لعمليات الابتزاز من البدو)، وأشياء أخرى كثيرة لم تدع لنا أي وقت فراغ. بعد الظهر في أحد الأيام الحارة ببداية شهر نوفمبر، عدنا ثانية إلى مأمور مركز مربوط بالعامرية ومعنا خطاب من القائد هوبكنسن باشا، بعد مسيرة عدة ساعات بالحمار.

اختيار العمال

ثم حان وقت جزء مهم من الخطة: مهمة اختيار عُمّالنا، وشراء الخيول. بعد استقبال قصير، أحضر لنا المأمور كراسي، وجلسنا أمام المقر الرسمي. جلس كل البدو والعرب الذين تم استدعائهم على الأرض حولنا. استمرت المفاوضات باللغة الإنجليزية والعربية. تحدّث إلينا المأمور محمود بأفضل إنجليزية لديه، وتعامل مع العرب بالعربية، وسمعنا كثيرا عبارة "يالله، يا كلب!" أو ما يشبهها، والذين أطلق عليهم هذا استقبلوه كإشارة احترام، وأجابوه بودّ وخضوع "حاضر، يا أفندي، حاضر!". لم تطُل عملية اختيار شيخ، وهو سيكون رئيس جماعتنا من العُمّال.

رفضنا سيدي مفتاح، ليكون رئيس حملة الاستكشاف، إذ بدا إلينا أن طباعه لا تتناسب مع المكوث في مكان معين، ولأنه اعتاد علينا كثيرا. لم يُثر اهتمامنا الآخرين الذين قابلناهم، وقبلوا أيدينا وأيدي المأمور بكل احترام، إما أنهم لم يعجبونا كفاية، أو لأنهم طلبوا طلبات باهظة. ثم ظهر بدوي حسن المظهر يبلغ من العمر نحو خمسة وثلاثين عاما، ذو عينين ماكرتين صغيرتين، وشارب أسود قائلا: "أيها السادة، لقد زرت برلين، لقد زرت فرانكفورت. خذوني!"

احتفظ المأمور بهذه المفاجأة للنهاية، وقد أحسن التدبير. إن مرشحه، شيخ سيدي سعداوي، أسرّنا منذ اللحظة الأولى. كشفت الاختبارات التي خضع لها أنه

سليل قبيلة الحنيشات، وأن شخصيته مناسبة. فقد كان ينصب خيمته دائما في المنطقة المجاورة للمأمورية، ووضع نفسه في خدمة الموظف المسئول.

كان لسعداوي زوجة، وهو لم يطلب الكثير - كنا نعلم بالطبع أن الصيغة المعتادة "اعتبر بيتي بيتك" ليست إلا عبارات الترحيب الشرقية - واستطعنا تنفيذ طلبه الوحيد بألا يترك صديقه عبد العليم. فكّرنا في افتتاح العمل بمساعدة هذين الرجلين، والحصول على العُمّال من العوائل البدوية التي تقيم في المناطق لمجاورة لكرم أبو مينا. وعد المأمور كذلك باستدعاء علواني، الذي ذهب بجمله إلى مقاطعة البحيرة، والذي أردنا تدريبه ليكون طباخنا وخادمنا الرئيسي. اضطررنا إلى صرف النظر عن المساعدة الأوروبية وعن مجموعة العُمّال الإيطاليين أو اليونانيين، ليس فقط بسبب التكلفة العالية والتموين شبه المستحيل، بل بسبب البدو أيضا، الذين سيطردون هؤلاء العمال بكل بساطة. مثلما حدث في توظيف الفلاحين المصريين من الدلتا وكان ليتسبب ذلك في جرائم قتل وترحيل، وهو ما أكّده الناس بأنفسهم فيما بعد.

أمر المأمور الآن جنوده بإحضار نماذج من الجياد، التي تحمستُ بمجرد رؤيتها، يا لها من مخلوقات رائعة من سلالة أصيلة. تفاوت السعر الذي طلبه العرب ما بين ٤ جنيهات و٢٠ جنيها. نصحنا المأمور، الذي كان يساندنا ويحرص على مصلحتنا، بأن نأخذ اثنين من الحيوانات الرخيصة، التي سيتحسن حالها فور تغذيتها جيدا. بدا ذلك جيدا للسيد كوفمن لأنه فضّل جوادا مطيعا على جواد ذي سلالة. لذا اشترينا اثنين، وكانا جاهزين بالسرج واللجام. انتهت عملية الشراء، وجهز المأمور غرفة جيدة – كانت مخصصة لموظفي التفتيش الإنجليز – لتكون تحت تصرفنا.

في المساء كالعادة تم ذبح الخروف أمام المأمورية، وفي المقابل ذبحنا خروفا آخر للبدو المشاركين في عملية الشراء. حكى الشيخ سعداوي، الرئيس المستقبلي لعمّالنا، عن تجاربه في ألمانيا، وهم جلوس حول النار الكبيرة التي أضاءت الأجسام البيضاء الرابضة والأمتعة المكدّسة التي حوت أدواتنا والمؤن وغير ذلك.

روى لنا الشيخ سعداوي أنه سافر إلى ألمانيا مع بعض من أقاربه من أولاد علي برفقة طبيب ألماني، أظنه مدير شركة شتوتجارت Stuttgart[48].، فقد ظلّ يحكي دوما عن ميدان ألكسندر Alexanderplatz[49] في برلين، وعن العربة التي يجرها كلب، وعن عربة الخبّاز الصغيرة، وظلّوا يسألون بعضهم: "نعم يا شيخ، وهل كان يُقدّم هناك لحما كل يوم؟"، فأجاب: "ليس فقط لحما بالقدر الذي أريده، بل الخبز الألماني الأبيض أيضا." قال أحد الشيوخ بحماس: "إن الألمان ودودون، الحمدلله!"

عندما دخلنا أنقاض كرم أبو مينا للمرة الثانية. وبحلول منتصف شهر ديسمبر ١٩٠٥ حدثت تغيرات كبيرة بالأعمال في موقع المدينة القديمة. في بادئ الأمر توافد إلينا البدو بغرض الفضول وحب الاستطلاع، وانضم البعض إلى العمل على أمل الاستفادة من الكنز الذي يتم التنقيب عنه. وكما كان متوقعا في الشرق، فقد اندس بينهم جواسيس ينقلون المعلومات أسبوعيا عما يفعله "النصارى" إلى الخديوي الذي كان حينها مستمرا في إنشاء سكته الحديدية الخاصة بالصحراء.

لو ساورنا الشك ناحية أحد الجواسيس، فقد كانت كلمة "أنت خلاص" الصارمة كافية لجعله ينفض تراب مدينة ميناس عن قدميه بسرعة. بعد ستة أشهر

---

[48] من أكبر المدن الألمانية، عاصمة ولاية بادن فورتمبرج في جنوب ألمانيا (المترجم).

[49] ميدان كبير في وسط العاصمة الألمانية برلين، وهو أحد أهم المناطق التجارية. سُمي بميدان ألكسندر تكريما للقيصر الروسي ألكسندر الأول (المترجم).

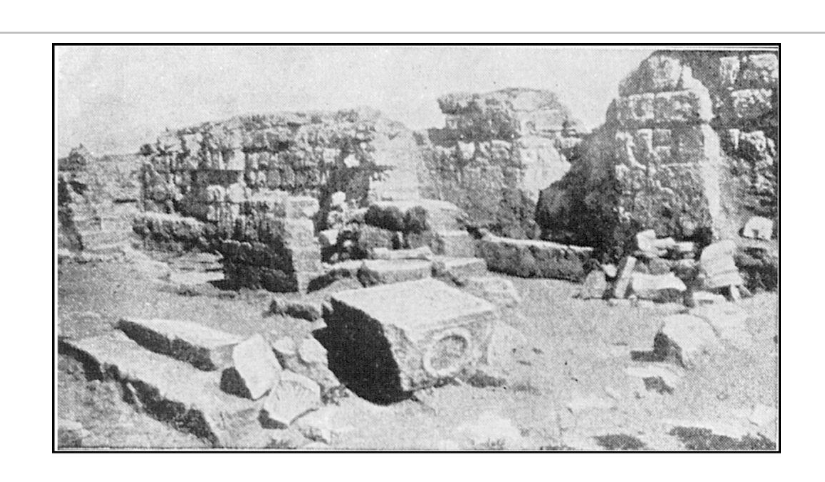
تعرّفت على الخديوي عن قرب وأخبرته بنفسي عما كان يجري في بومنا، لذا لم يكن هناك ما يمكن أن نخشى حدوثه من الجواسيس.

في البداية كان لدينا خمسين عاملا ينتمي أغلبهم إلى أولاد علي من قبائل مختلفة وزنوج. كان أكثر رجالنا إخلاصا، الذين استمروا في العمل معنا طوال السنتين، ينتمون لعائلة زنجية تُسمّى "خير"، والتي نصبت خيمتها البساطية بجانبنا، وبنشاط اشتغل منهم ثلاثة رجال في التنقيب: الأب خير، وابناه مسعود وحسن. أحضر الرجال الذين باشروا العمل معنا كل متاعهم وممتلكاتهم، أي: الزوجة والأبناء والخيمة، محمّلة على حمير أو إبل، وكان عليهم أن ينصبوا خيامهم على بُعد مئات الخطوات من "الكشك"، وهي التسمية التي أطلقوها على كوخنا الخشبي، وبذلك أصبح خلفنا قرية صغيرة من الخيام. وقد سهل ذلك عمل الحراس، وهم حراس الليل الدائمين، حيث يُركزون اهتمامهم على مستوى الأرض الموجود أمام منزلنا.

استخدمنا خيمة بدوية كبيرة، كنت قد اشتريتها من السوق العربي الأسبوعي في بلدة "بهيج"، كمأوى للعمال العزاب والغرباء الذين ليس لديهم بيوت، أو الذين مروا بنا لسبب أو لآخر. منذ اليوم الأول وضع كوفمن نظاما صارما ونشيطا، إذ أنها الطريقة الوحيدة للنجاح مع هذه المجموعة. فكان كل من يرى العمل جاريا بالموقع ينظر بإعجاب لأداء أبناء الصحراء. كان يتم طرد الكسالى ومن لا يحترموا القانون وأجبروا على تفكيك خيامهم فورا بعد الخطأ الثاني بلا رحمة. لم يُسمح بزيارات الأقارب والأصدقاء سوى يوم الجمعة، وهو اليوم المقدس عند المحمديين، ويوم تلقّي الأجور، ولكن كان يجب إخبار الغفير أولا، وهو يخبرنا بدوره. لم يكن مسموحا ببقاء الغرباء ليلا، وكان معروفا في أرجاء مريوط كلها أن حرّاسنا تلقّوا أوامر بإطلاق النار على من يدخل المكان سرا بالليل وبدون أن يعرف كلمة السر. وعدْنا هوبكنسن باشا بألا نذهب إلى العمل أبدا بغير سلاح، وأن نعيّن حارسا موثوقا به، ليلا على الأقل.

نظام العمل في كرم أبو مينا

يبدأ العمل مع شروق الشمس، بمجرد أن يبزغ الفجر كان الغفير يوقظ الناس بخيمة الشيخ، وسرعان ما يتم إشعال النار أمام كل بيت، حيث يحتسي الرجال شاي السنوسي، ويتناولون شرائح الخبز الجاف المسطحة. أقام الرجال الأكبر سنا صلاة الصبح، وعلا صوتهم بتلاوتها لله. توفرت لهم المياه لأداء طقوس الوضوء فقط في شهور الشتاء القليلة.



الحائط الشمالي لكاتدرائية قسطنطين

أما بداية من شهر أبريل إلى شهر نوفمبر فقد كانت هناك مراقبة صارمة على استهلاك المياه، ومُنع استخدامها تحت عقوبة الطرد الفوري؛ لأن الكمية الموجودة تحت تصرفنا لم تكن دائما كافية للطهي والشرب. عندما تشرق الشمس ينطلق صوت البوق، ويخرج ابن عمي بدفتر القائمة الأسود ليتلوها، بينما يقوم الشيخ

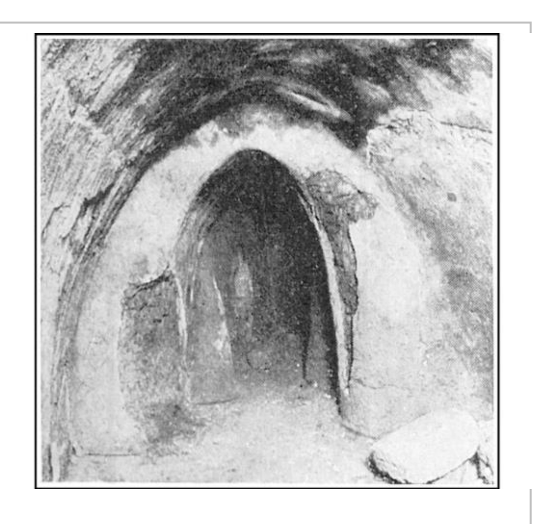
بإخراج الأدوات: الفئوس للرجال والشباب، والمعاول للنساء والأطفال، والسلال لمن كانت وظيفتهم نقل القمامة. في طريقهم إلى العمل.



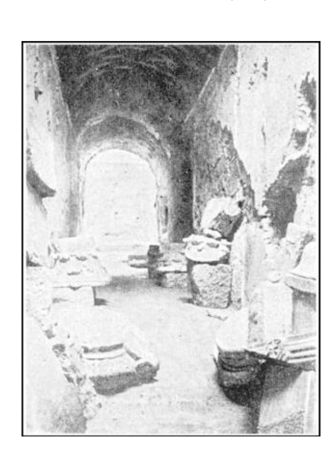
البوابة الرئيسية لدير مينا

سار العمال إلى الموقع في كسل. وقمنا هناك بتقسيمهم إلى مجموعات تبعا لمهامهم اليومية. بمرور الوقت كشفت مجموعات متميزة عن قدرتها على العمل المستقل، ولذا وظّفنا مراقبين للعمال. لمدة سنتين تقريبا كان لدينا شاب درزي يُدعى سليمان الشامي، أى من سوريا، الذي كان اختصاصه التنقيب تحت الأرض. كان الرجل لا يرى الشمس أحيانا لنصف يوم، وفي الأحداث المثيرة - كيوم اكتشاف مقبرة ميناس - لم نتمكن من إقناعه بالصعود لتناول العشاء، وتناول وجبته على ضوء مصباح الزيت أو القنديل. أدهشتنا القوة الجسدية الهائلة لبعضهم، وظننا أنه سيكون من الإهدار ألا نستغلها في عمليات النقل الصعبة. كان الشيخ سعداوي هو المراقب، وكان لديه موهبة ممتازة في الاكتشافات، فقد صنّفها بحيث يسهل العثور

عليها فورا. وقف أحد الأفندية في الموقف ليُدير الإجراءات، وفي غيابهم لا يتمكن أحد من لمس أو وضع أي شيء من المُكتشَفات جانبا.



ممر خزان مياه تحت الأرض

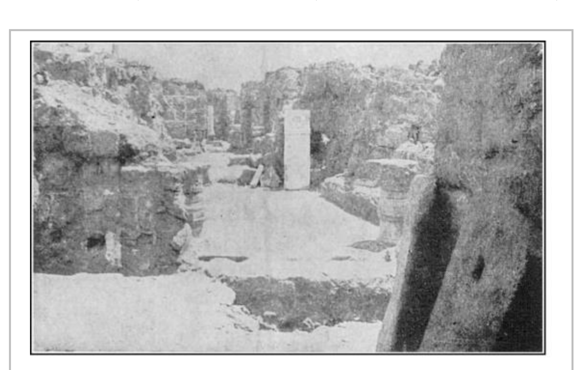


رواق تحت أرضي

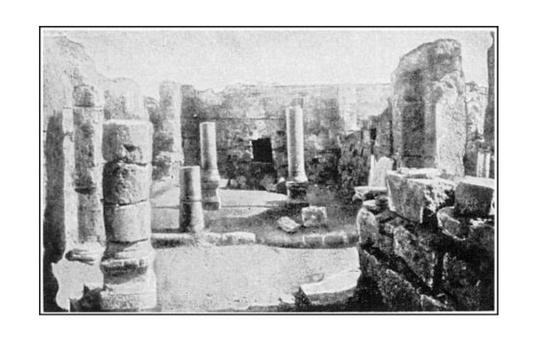
في الشتاء، كا
يُستأنف العمل من شرو
الشمس حتى غروبها، وبداي
من شهر مارس إلى شهر نوفم
كان يبدأ العمل بداية م
الساعة الخامسة صباحا حت
الرابعة والنصف مساء. أخذا في الاعتبار النصف ساعة راحة عند الساعة التاسعة صباحا، وساعة تناول العشاء في المساء، وعندما يقرع صوت البوق ثانية، تكون محصلة اليوم العادي لدينا عشر ساعات من النشاط. ومن يدرك معنى أن تبذل مجهودا بدنيا كبيرا في الموسم الحار تحت الشمس الحارقة من الحادية عشر صباحا إلى الرابعة مساء يمكنه تقدير أداء البدو ضعيفي التغذية. لن يتمكن من الصمود هناك لمدة تتجاوز الأسبوع سوى مواطني الصحراء، حتى هم يجب معاملتهم

بحذر وفي أوقات معينة يجب منعهم من العمل. لذلك أعطى ابن عمي إجازة أسبوع أو اثنين مدفوعة الأجر للأسر الفقيرة التي عملت معنا لشهور وقد أنهكها الضغط. لم يقتصر ردهم للجميل على أنهم قد يضحوا بأنفسهم فداءً لأسيادهم فقط، بل أصبحوا أكثر خبرة وإفادة.

كان يُسمح لهم بالعودة إلى الخيام في ساعة العشاء فقط، حيث تقوم نساء القبيلة بتحضير الطعام. كانوا يتناولون الإفطار في الموقع بين أنقاض المدينة القديمة.



غرفة الطعام والاستقبال



ردهة الأعمدة

عندما استلمنا إذن الوزارة بنهاية شهر نوفمبر ١٩٠٥ واصل ابن عمي أعمال التنقيب على نطاق أوسع. كفّت السلطات عن إرسال مسّاح الأراضي الذي عيّنته الحكومة للمساعدة في كل التنقيبات بمصر، والذي لم يكن ذا قيمة، وكان يمثل عبئا ثقيلا على تكلفة المنقب. أتساءل أيستطيع موظف تركي أن يصمد في الجبل.

كتب كوفمن الآتي عن أول إجراء منهجي في تنقيب ميناس العظيم: "في بداية التنقيبات المنظمة بنهاية شهر نوفمبر عام ١٩٠٥، أثار الاهتمام ثلاثة مناطق.

أولا: المنخفض حوضي الشكل الموجود في الاتجاه الشمالى بالقرب من منتصف الأنقاض، كان دائري الشكل تقريبا، وبلغ قطره الأصغر نحو أربعين مترا. يوجد بدوي اسمه شوكان، الذي تنصب عائلته من زمن بعيد خيمتها في منطقة بومنا كل شتاء، ظنّ أنه رأى رجلا شاحبا ملتحيا يطل من بين الأنقاض، وذلك قبل وصولنا بعدة سنوات. ظلّ هو وأولاده، وسيكون ثلاثتهم من بين عمّالنا فيما بعد، يقذفون الشبح بالحجارة إلى أن اختفى. وحينها كان قد رأى تمثالا رخاميا ظن أنه "عفريت"، وهو ما شجّعنا على التنقيب هناك. ولكن هذا الحوض الدائري، الذي ظننا أنه مسرحا قديما، اتضح فيما بعد أنه كان حوضا مائيا متصلا من جهة بالمضيفة، ومن الجهة الأخرى بالمغطس المقدس لمدينة ميناس، وكان على أية حال مخصصا لاستخدام الحُجاج والرهبان بالدير.

ثانيا: بالقرب من هذه البقعة التي أجرينا بها حفرا تجريبيا يوجد الفرن الفخاري، الذي كان من السهل التنقيب عنه. وهو ما أعطى للبعثة بادرة أمل بالعثور على معبد ميناس المفقود. هنا، بالقرب من التنقيبات الأخرى الموسعة، بدأت المباني في الظهور، وكذلك سلسلة كاملة من الأفران، وقنوات لنقل المياه وخزانا أرضيا بحالة جيدة، وغنيمة ثرية من تماثيل التيراكوتا الطينية الصغيرة. ثالثا: تمثل كومة الأنقاض شبه الدائرية، الموجودة وسط فوضي الأحجار بمنتصف المدينة، نقطة هجوم لعملية استكشاف المدينة المقدسة. ولكن العمل لم يبدأ قبل نهاية شهر ديسمبر حيث وجب تدريب البدو الذين وظفناهم على المهمة الصعبة والمثيرة، وكان يجب إشعال حماستهم لأقصى درجة. بعد الترخيص الأول، تم إزالة طبقة عميقة من أنقاض الحجر المنحوت، وبدأنا محاولات النبش والتنقيب بداية من المحراب الرئيس المفترض، ثم طوليا من الشرق إلى الغرب، وعرضيا من الجنوب إلى الشمال. سرعان ما عثرنا على قطع معمارية وقواعد أعمدة وأجزاء من مخطوطات وبعض العملات في حالة جيدة،

واستطعنا فك رموز الصلبان وأيقونة المسيح الموجودة على بعضها، وهو ما يؤكد، بما لا يدع مجالا للشك، أن الكاتدرائية العظيمة التي دُفن بها ميناس موجودة بهذا الموقع.

أوضح مسار التنقيبات فيما بعد أن هذا كان الامتداد الذي بناه الإمبراطور أركاديوس، بينما يقع مكان الدفن المشهور بعيدا إلى الغرب، مباشرة تحت كاتدرائية أخرى أقدم. من بين أشياء أخرى، وجدنا أجزاء من الموازيك والمصابيح الزجاجية، وقارورات (أمبولات) ميناس، وعملات من القرن الخامس تحت أكوام من النفايات بلغ ارتفاعها نحو ياردتين أو ثلاثة."

أحيت مخيلة البدو كل اكتشاف جديد بطريقة مميزة. فهم يستخرجون آثارا كاملة من الرخام الرائع من الأعماق البعيدة. كانت تيجان الأعمدة الكورنثية البيضاء المزخرفة التي أظهرتها الأرض، بالنسبة إليهم "مقاعد" لنبلاء القصر القديم للخليفة، والتي أعلنوا أنها أنقاض المقبرة المسيحية. احتشدوا في القاعات الكبرى للكاتدرائية في موكب ملكي، وعندما اخترقت المجرفة أعماق الأرض ببطء وحرص، وظهرت مقبرة ميناس المنقوشة بروعة، كان أبناء الصحراء على يقين أن المقبرة الملكية المليئة بالذهب والكنوز ستنكشف الآن، وواجهنا صعوبة بالغة في جعلهم يتقدمون ناحية هذا الشيء الثمين، الذي تحميه الوحوش والثعابين، كما كانوا يعتقدون! عندما ظهر رمز الصليب، الذي كان متواريا خلف رموز المونوجرام[50]، ثم ظهر جليا عدة مرات في أشكال جميلة منقوشة، حتى أدرك بعضهم أنها مسألة متعلقة بآثار كنيسة من الفترة المسيحية المبكرة، ثم تخطت ظنونهم حدود التنقيبات إلى الكرامات والأعجوبات. مرّ

---

[50] رمز يتشكل من تداخل أو جمع حرفين أو أكثر. يُستخدم في الكنيسة للإشارة إلى الحروف الأولى من اسم المسيح (المترجم).

بنا حاجّ إلى مكة، وتحدث عن نشاطنا، قائلا كلمات من سورة في القرآن تتحدث عن أطلال قرية غامضة، وأحياها الله ثانية بعد مائة سنة فتلا قرآنا يقول فيه[*]:

"أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إلى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[51].

أخبرت الفيلسوف الهائم عن القصة الإفرنجية النظيرة لقصته: أسطورة راهب هايسترباخ[52].

زوار متوقعون

في بداية شهر يناير عام ١٩٠٦، وأثناء فترة الراحة الصباحية، تم استدعاءنا إلى "البير". كنا نجلس على اسطوانة أحد الأعمدة نتناول بعض المرطبات. جاءت صيحة قوية عالية من اتجاه الكشك، الذي كان على بُعد ثلاث دقائق من موقع التنقيب. كان هذا صوت عبد الكريم، الغفير الذي يحاول إبعاد بدو غرباء. مررتُ أنا وابن عمي من خلال التل، الذي يمثل النقطة المركزية للمدينة القديمة، والتقينا بعربيين وسيمين يرتدين أردية نظيفة، ومسلحين بطريقة ليست معتادة في الصحراء. كانا يحملان بندقيات مارتيني، وأحزمة الخرطوش متدلية على أكتافهم، وبالتأكيد

---

[*] وضع المؤلف كلاما شبيها بالآية التي أوردناها بنصها الصحيح من القرآن الكريم. (المحرر)

[51] سورة البقرة، الآية ٢٥٩ (المترجم).

[52] قصة تروي رحلة أحد الرهبان في دير هايسترباخ Heisterbach بألمانيا باحثا فيه عن حقيقة اعتقاده بين تأملاته في الغابات والطرقات (المترجم).

تركوا الانطباع المطلوب. عندما رأونا، ألقوا علينا التحية بأدب جم، وأخذ أحدهم بعض الأوراق من حقيبته الجلدية الحمراء وقال: "أتيتُ من منطقة القصبة العظيمة (مرمريكا)، وفقط أريد أن تقرأ لي خطابا كنت أحمله من فترة طويلة، وإلا سأضطر للذهاب إلى الأسكندرية". كان الخطاب باللغة الألمانية، أرسلته سيدة من فيَّينا تدعو الرجل، بعبارات رقيقة، أن يأتيها، ووصفت له مسار الرحلة عبر الأسكندرية وتريَّستا[53].

وكالمعتاد في هذه الحالات، تضمن الخطاب الكثير من التعبيرات العاطفية. وكذلك وعدت السيدة بإرسال أموال للرحلة، وأرسلت بالفعل، فبعد عدة أشهر عاد الرجل وظلّ إلى أن ذهب أحدنا إلى الأسكندرية، حيث انتظره مبلغ ١٠ أو ١٢ جنيها. كان الرجلان اللذان ظهرا فجأة في الكرم مهربين حشيش، وكان لدى أحدهما عملا جيدا في فيينا من بيع السجائر، وأجاد الألمانية قليلا، لهجة فيينا بالطبع، وسرّ كثيرا لإيجاد من يقرأ له هذا الخطاب. لم نوافق على كتابة الرد له، فالارتياب كان أفضل حماية لنا، ورحل المهربان بعد الكثير من عبارات الشكر والامتنان، بعدما سمحنا لهم بالاستراحة في إحدى الخيام لنحو ساعة.

استؤنف العمل، وتم فحص "البئر" الظاهري. كان من الواضح وجود ممر واسع تحت الأرض، وكان مليئا إلى قمة فوهته الاسطوانية. قبل التنقيب، كان من الضروري إزالة عدة أمتار من كتل الحجر المنحوت فوق السطح، وحينها فقط سنتمكن من دخول المبني تحت الأرضي. ولذا استمر تشويقنا خلال الأيام التالية. بدأ

---

[53] مدينة وميناء في شرق إيطاليا بالقرب من الحدود مع يوجسلافيا السابقة (سلوفينيا حاليا). (المحرر)

في الانكشاف رواق رائع منحوت تحت الأرض crypto-porticus[54]، وفي التاسع عشر من يناير ظهر أول نقش لإحدى عظات الأب ميناس، ثم تفرّع الممر إلى زوايا قائمة، وقاد مباشرة إلى مقبرة ميناس المدهشة، حيث ملئت الحجرة الموجودة على عمق ١٢ مترا أجزاء الفسيفساء (الموازيك)، والمصابيح الزجاجية، والأعمال الرخامية الرائعة.

في هذا الوقت كان حديث المساء بالخيام يدور حول الممر تحت الأرضي الذي اكتشفناه، فقد كنا متحمسين للغاية حتى أننا بالكاد استطعنا النوم، ومررنا أكثر من مرة على المقبرة في الليل خوفا من أن يدخلها أشخاص غير مصرّح لهم بالدخول من رجالنا، إذ لم نفلح في إقناعهم أنها كانت مقبرة ملكية مليئة بالكنوز. ذهبنا ذات صباح إلى الموقع، وكان سليمان الدرزي أول من نزل إلى السرداب، حيث بدأ بتفريغ السرداب المجاور. لكنه عاد فورا، بوجه شاحب، وقال متلعثما: "أفندي، يوجد ثعبان عملاق بالداخل!" وبما أن الدرزي ترك فانوسه بالداخل من شدة انفعاله، فقد أشعلنا القناديل ودخلنا مع سليمان والشيخ سعداوي. عبرنا خلال أول مساحة ضيقة تم تنظيفها خلال أكوام النفاية في السرداب، يمنة ويسارا حيث تفرعت حجرات المقبرة. زحف ابن عمي على بطنه، بيده القنديل، وفي اليد الأخرى يحمل نبّوت للدفاع عن نفسه في حالة ظهور الملك المزعوم فعلا. لقد اتبعناه، وعلى ضوء الفانوس الذي تركه سليمان بالداخل رأينا بوضوح مسار طويل متموج على الأرض الملساء كما لو أن أحدهم قد جرّ حبلا سُمكه بضعة بوصات على التراب. اختفى حيث أصبح الممر أضيق، ولذا لم يكن هناك شك في وجود ثعبان. رآه البدو في الأيام التالية، وتحدثوا عن حجمه الكبير وعينيه المتقدتين، وكانوا مرعوبين عندما ضحكنا على ذلك. قالوا للشيخ سعداوي أن الحيوان هو شبح الملك، وهو يحمي الكنز، فإذا لم نقتل الثعبان

[54] ممرات تميزت بها العمارة الرومانية القديمة، وهي عبارة عن أروقة منحوتة تحت الأرض ويدخلها الضوء من فتحات في قمم أقواسها (المترجم).

فاللعنة لن تزول أبدا. لقد صدقوا ذلك، وما زالوا. لقد استغلينا مخيلتهم الواسعة، فوافقناهم وأيدناهم بملاحظة أن أي شخص سيدخل الحجرة المقدسة بدون تصريح منا، أو أثناء الليل فسيكون عُرضة للعنة الملك تحت الأرضي، ويجب أن يموت.

كلما استمر العمل، حدثت أشياء مشابهة في كل أجزاء المدينة القديمة، خاصة عندما يكون الأمر متعلقا بأماكن تحت الأرض، مثل القبور والسراديب والخزانات الأرضية. كان العمال يخلعون ملابسهم أثناء العمل، تبعا للموسم.

وجاء اكتشاف المقبرة الشمالية، والكاتدرائية الكبيرة المتصلتين بها بطريقة غريبة أيضا. في مساء أحد الأيام جاءنا بدوي طاعن في السن وعرض علينا، مقابل البقشيش، أن يُرينا المكان الذي -عندما كان ينصب خيمته منذ سنوات عديدة - وجد فيه "رجلا ميتا وبيده خاتما ذهبيا جميلا." صدّقناه، وبدأنا في اليوم التالي العمل الذي تُوّج بنجاح باهر.

أطلق رولاند سنيلينج Rowland Snelling، وهو محرر ورئيس أهم جريدة إنجليزية بالشرق الأدنى، "الجريدة المصرية The Egyptian Gazette"، اسم "مدينة مريوط الرخامية" على المدينة المقدسة بكرم أبو مينا، والتي قام بزيارتها باستمرار. ولها نصيب كبير من هذا اللقب، كما لها من لقبها الآخر " لورديس المصرية". كان الرخام هو المادة الثمينة التي زيّنت كل أبنيتها المدهشة، لقد بُنيت جبال من رخام الجزيرة الثمين أثناء عمليات التنقيب، فلو أعجبنا جمال تلك الأنقاض وما خلّفه تدمير الإسلام(*)، فيجب أن نتذكر كيف كان هذا ثمينا وجميلا قبل تدميره. شكلت المقبرة

(*) لا يتوقف المؤلف عن إطلاق هذه التهم دون دليل. (المحرر)

المقدسة التي سبق ذكرها مركزا لكل الروائع التي أدت بالراهب إبيفانيوس Epiphanius من الأشمونين[55].

قاد دَرَجَان رخاميان إلى مقبرة ميناس، أحدهما من كنيسة ميناس نفسها، وهو ذو قوس عالي، ويتكون من ثلاثين درجة عرضُها مترين، والآخر من كاتدرائية أركاديوس. ويؤدي رواق تحت الأرض أكثر ارتفاعا بخمسة أمتار، وأطول بنحو ١٦ مترا، وبه سرداب مجوف، إلى المقبرة نفسها. توجد رموز القبائل البدوية منقوشة على أعلى وأسمك أجزاء في الجدران، ما يُشير إلى أن الأنقاض تم استخدامها كملاجئ أو مخابئ في أوقات التدهور والاضمحلال.

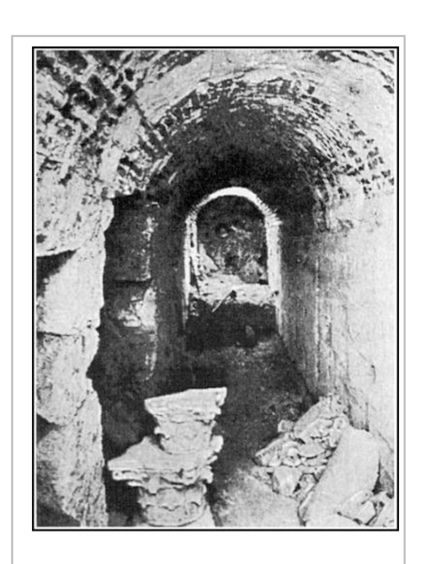
تقع مقبرة ميناس تحت أرضية كاتدرائية قسطنطين، وهي على شكل حجرة كبيرة مجوفة، تزيّنت أجزاءها المنخفضة معماريا، ولها فتحة شبه دائرية بالأعلى. يمكن النظر مباشرة إلى ضريح القديس من الكنيسة العليا، حيث كانت تُحضَر المصابيح وقرابين النذور بكل أنواعها. تنص القوائم اليونانية والإثيوبية للمعجزات على ضرورة النزول تحت الأرض لتقديم القرابين إلى القديس. هناك تقول الأسطورة إن ميناس أعاد الروح لرجل قتله تمساح.

كان كل هذا قابعا تحت أساس مبنى كنيسة ميناس الأقدم، وكرّس أثناسيوس العظيم الكاتدرائية في ذلك الوقت لقسطنطين، وكانت مبنية بالحجر الجيري. ولها ثلاثة ممرات، وخورس ثلاثي النهايات، وتزيد مساحتها الكلية عن ٢٢ مترا عرضا، و ٣٨ مترا طولا. يقع المذبح في الشرق، وما زال بالإمكان رؤية إطاره بالقرب من قبر القديس مباشرة، ولذلك تذكّرنا كنيسة ميناس هنا بكنيسة الاعتراف *Confessio*في كنيسة القديس بطرس في روما.

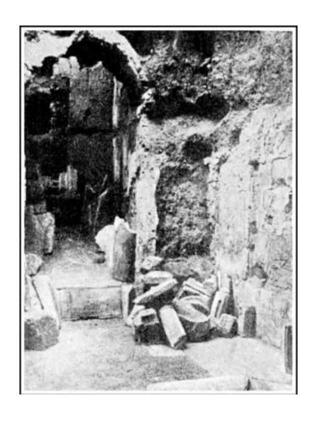
---

[55] مسمى تاريخي لإقليم في جنوب المنيا قبالة مدينة ملوي حاليا. (المحرر)

لا توجد كاتدرائية من الفترة المسيحية المبكرة تضاهي روعة تلك الموجودة بكرم أبو مينا. يوجد بكاتدرائية أركاديوس ثلاثة ممرات وخورس بارز، الذي يوجد أمامه جناح الكنيسة الكبير المبهر. يبلغ ارتفاع المبنى نحو ٦٠ مترا، وعرضه أكثر من ٢٦ مترا، و٥٠ مترا بجناح الكنيسة. يوجد المذبح المغطى بمنتصف جناح الكنيسة، وليس بالمحراب، حيث يوجد العديد من غرف الدفن. ويحاط بالمذبح بالأعمال الخشبية المفرّغة على منصة منشدي الخورس *Scola cantorum*، وبالخلف مباشرة توجد مقاعد الكنيسة نصف الدائرية (مقاعد مخصصة للقساوسة)، والتي وعظ منها رئيس رهبان ميناس على كرسي البطريركية المميز.



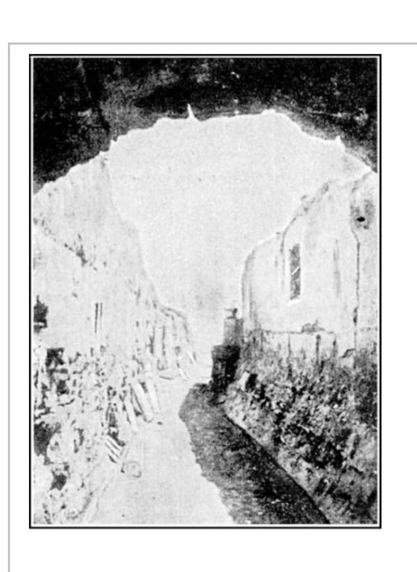
سرداب للمقابر



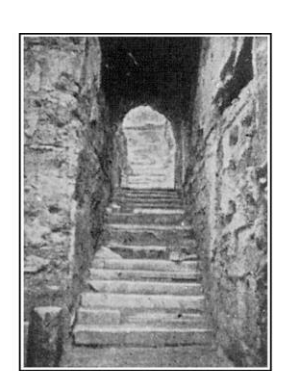
ضريح القديس مينا

وقد أظهر كوفمن، في مختلف المنشورات الأثرية التي تخص حملتنا، كم كان الاهتمام قليل بمعبد ميناس، وكيف أنه لا يوجد دير آخر من تاريخ الفترة المسيحية المبكرة في الشرق يمكن مقارنته بجمال وغموض مدينة الحجاج الصحراوية، عدا القدس. مشيرا إلى الكنائس التابعة التي انبثقت منها في مختلف البقاع بمصر واليونان والإمبراطورية الرومانية، وكانت تُقام في احتفالات شرفية، وتُظهر الصلات والروابط بين الدير وما عُرف فيما بعد بالبلاد المتمدنة، من النيل الأزرق ووسط أفريقيا إلى بلاد

الغال وألمانيا وروسيا. وأخيرا، اقتفى أثر تاريخ دير ميناس فخر الصحراء الليبية، الذي ظلّ سبعمائة سنة تقريبا سرابا رخاميا أبيضا Fata morgana. تزايدت مبان مدينة ميناس سريعا في عهد الأباطرة قسطنطين وثيوديوس الأول وأركاديوس. كان العصر التأسيسي بالقرن الرابع متبوعا ببناء المدينة المقدسة في القرن الخامس في عهد الإمبراطور البيزنطي زينو.



أحد شوارع المدينة المقدسة



درجات رخامية تقود إلى رواق تحت الأرض

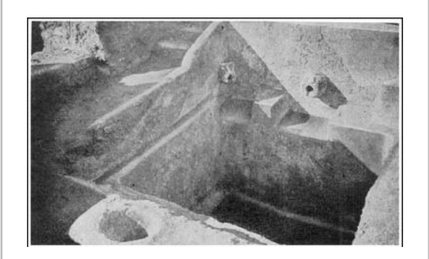
كانت هذه الفترة هي أوج رحلات الحج لتمجيد ميناس، واستمرت حتى القرن السادس. بدأت أولى علامات الانحدار في القرن السابع حينما ظهرت جماعات الإسلام على ضفتي النيل، وتخطى عنفهم الشديد كل ما كان يتحمله المسيحيون المصريون الأوائل من ظلم الأباطرة الرومان.

يمكن مشاهدة الكثير من الشواهد على عصور التدهور والقمع هذه أثناء السير خلال أنقاض المدينة المُكتشفة. تكشف الصلبان المنحوتة بإتقان، والمدمرة بشكل كبير، والأيقونات عن طريق النهب والسرقة، ثم يظهر في حائط آخر ما يُثبت أن مادة البناء النفيسة قد سُرقت، وفي الواقع لم يترفّع الخلفاء عن أن يستغلّوا الأمر

لصالحهم. من البقايا الأثرية استطاع مونسينيور كوفمن إثبات سرقة الخليفة المتوكل للأعمدة. "ما زال بالإمكان رؤية الإصلاحات والدعائم التي حاول بها البطريرك المعارض (البطريرك اليعقوبي جوزيف ٨٣٧-٤٩ إصلاح الضرر." بعد عدة سنوات من حادثة السرقة هذه، قام المحافظ المسلم أحمد بن دينار بتدبير جريمة قتل أثناء احتفال ميناس بمعبد المدينة كوسيلة للقيام بعمليات سلب ونهب جديدة، ولكن هذه المرة لكنز المعبد. ويبدو أن هذه العملية كانت الأخيرة في تدمير الأديرة، التي تدهور حالها بمنتصف القرن التاسع)[56] .



غرفة تخزين



غرفة دفن



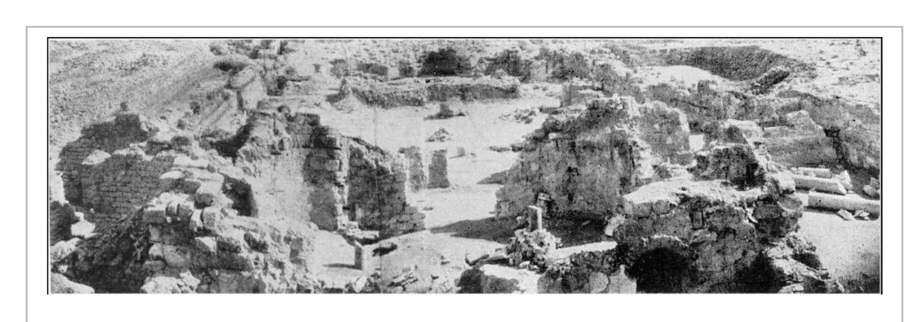
معصرة العنب

"فيما يتعلق بمصادرها التقليدية، تلك التي تم الحصول عليها خلال عمليات التنقيب، فإن المعمودية العظيمة بمدينة ميناس نادرة الوجود في أرض النيل، ويمكن القول أن عالم الفترة المسيحية المبكرة لم يرَ كأديرتها مثيلا. بجانب الأديرة والمباني الأخرى بلغت مساحتها أكثر من ٤٠ ألف مترا مربعة." بهذه

---

[56] لا يعطينا المؤلف أي مصدر (موثوق فيه أو غير موثوق) جاء فيه ذكر ذلك. (المحرر)

الكلمات تم الإعلان عن اكتشاف صوامع ميناس بالتقرير الأثري الثاني لأعمال التنقيب، وهي الأديرة العظيمة الموجودة بالمنطقة المجاورة للمعبد الرئيسي. كان قاطنو هذه الأبنية مسئولين عن شئون العبادة الإلهية بالمنطقة كلها، كما بالكنيسة الوطنية، فهم يتولون رعاية الحجاج والمرضى القادمين للاستشفاء، وزرعوا المنطقة بأكملها، والتي كانت حينها واحة غنية بالكروم والنخيل. نقبنا عن الرواق الكبير للدير وأروقة الصوامع والقاعات وقاعات الطعام والمخازن وغرف الغسيل وغرف المنظمين الذين حملوا أغرب الألقاب والأسماء.



ردهة المغطس المقدس حيث يُشفى المرضى

من ناحية أخرى، للأسف لم نستطع ولوج تكية الحجاج أو المضيفة، التي تقع بين الأديرة، وهيكل آخر مميز بعيد بالمدينة، وهو مغطس ميناس.

جاء اكتشاف مغطس ميناس وكاتدرائيته في نهاية عملية التنقيب المنظمة في صيف ١٩٠٧. وقد كانت هذه هي النهاية المشرّفة لهذا الاكتشاف المذهل، وختم التصور الذي كوّناه عن مدينة الحج العتيقة بخير ختام. كانت الخطوط التأسيسية للمغاطس الواسعة واضحة أمامنا من قبل، ولكن الآن فقط تكوّن هذا الرابط بين المغاطس والكاتدرائية المنشأة بعيدا. بجانب أحد مغاطس الحجاج، الذي تبلغ مساحته ١٥٠ مترا مربعة، وخزان كبير عميق من الحجر المنحوت (وظلّ بالطبع دون

مياه لفترة طويلة)، تحدّ مغاطس مينا منطقة توجد تحتها القلعة الإمبراطورية لزينو البيزنطي. تمثل الكاتدرائية النوع الرابع من كنائس الفترة المسيحية المبكرة التي تم اكتشافها في كرم أبو مينا. لها ثلاثة ممرات تتخذ نهايتها شكل نصف دائري. يقع أول المغاطس في حائط الممر الجنوبي، وهي مغاطس نصف دائرية ذات درجة واحدة، وبداخلها فتحة للنفايات، ومغاطس مربعة. يؤدي باب من الممر الجنوبي إلى حمامات أخرى وصوامع وغرف انتظار وغرف لكل الاحتياجات، من بينهم تم التنقيب عن نظام تدفئة متفرع من الأنابيب والسراديب. زوّدت الأنابيب البدو من القرون السابقة بمواد لصناعة الطلقات. وجدنا ف كل الغرف أواني للماء، وأمبولات ميناس مكتوب عليها تضرعات وأدعية القديس. ولكن أكثر ما لفت الانتباه كان منخفضين رخاميين في الممشى الرئيسي بكاتدرائية ميناس، وكانا يؤديان بخطوة واحدة إلى منصة الغطاسين، التي كان يأخذ منها الحجاج الماء الشافي سواء لمرضاهم في المكان أو ليعودوا بها إلى بيوتهم، مثلما يحدث اليوم في لورديس. تشير المُكتشفات الأثرية في كل البلاد المتحضرة تقريبا كم سافرت مياه ميناس الموجودة بالقارورة. ما زالت القنوات التي تغذي المنصات موجودة وتؤدي مباشرة إلى الينبوع المقدس الذي ذكرته في الجزء الغربي من كنيسة



رواق أحد الأضرحة في عهد قسطنطين



قاعة منح البركة لحديثي التعميد

مقبرة قسطنطين، وتظهر بالقرب منها النقوش اليونانية لأحد الحجاج من سميرنا[57]، بآسيا الصغرى يقول: "تناول ماء ميناس الجميل، وسيزول الألم!"

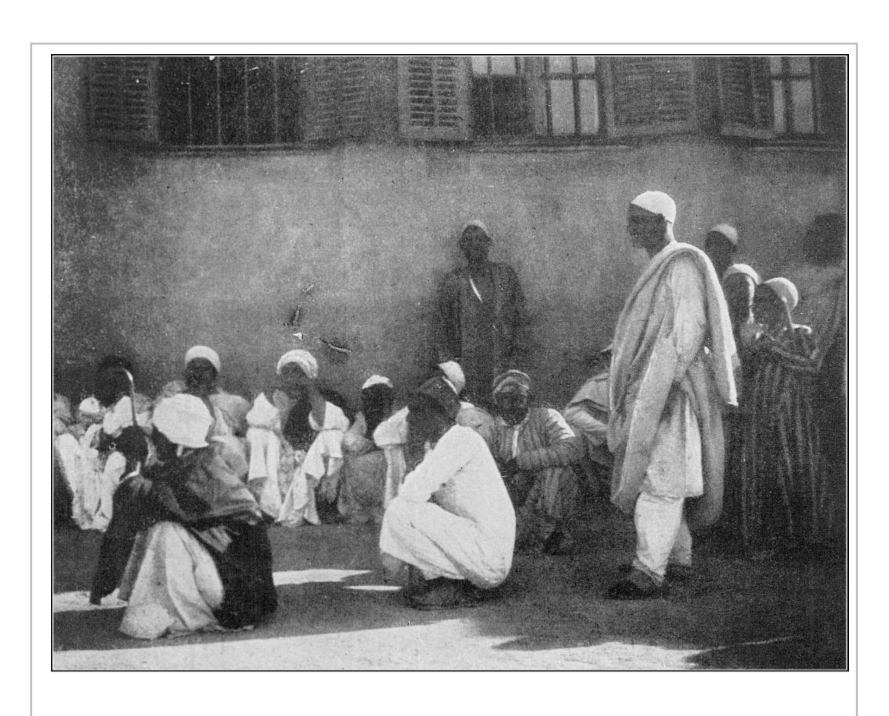


الشيخ الشاب سيدي سعداوي، من قبيلة الحنيشات، كبير عمال البدو في معسكرنا

كان والد المونسينيور كوفمن، هير هينريك كوفمن الفرانكفورتي الأصل، أول وأكثر المساعدين الصبورين، ليس فقط لهذه البعثة بالصحراء، ولكن أيضا لبقية التنقيبات.

---

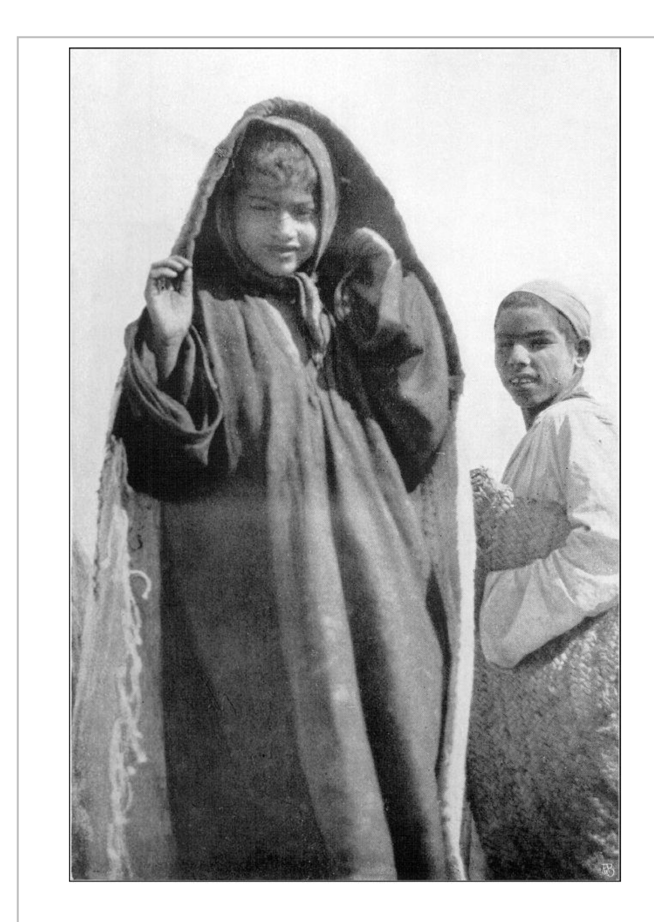
[57] مدينة إغريقية قديمة تقع على الساحل الغربي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط، تحمل اسم اليوم إسم إزمير وتقع في دولة تركيا حاليا (المترجم).



أمام المأمورية: ينتظر البدو وجبة العشاء من لحم الضأن

فلولا مثالية هذا الرجل المتحمس، الذي نشأ في كرم وتضحية دائمة للعمل، لأعاقت المشكلات الكبيرة مسار حملتنا، وكذلك لولا وجود الرجلين الآخرين المهمين: بود و فرانز أديكس Franz Adickes مع المستكشفَين لفسد الأمر كله. لقد قلتُ قبلا بالفعل كيف أصبح دكتور بود الممول لعملية التنقيب. وكذلك قدّم لنا الكثير عمدة فرانكفورت الخبير بالفن دكتور أديكس، ولم يتركنا في وضع حرج. ويعود الفضل كله للدعم المالي وللمؤسسات المرموقة من بلدة المونسينيور كوفمن ما أعانه على الاستمرار في مهمته. لكن لم يكن من السهل دوما جمع الأموال، وكان باستطاعتي معرفة أن التمويل على وشك النفاذ من تعبيرات وجه ابن عمي. وكثيرا ما كان يحدث هذا الأمر. قد يلاحظ الغريب هذا من خلال عدد العمال، الذي يكون أحيانا ضئيلا، ثم بعد ذلك قد يصل إلى المائة أو يزيد. عاني البدو من هذه التغيرات مثلما عانينا.

كتب إلينا أحد رجالنا خطابا طويلا، بعد مدة كبيرة من عودتنا، عندما أُرسلت مئات الأمتعة المليئة بالأعمال الرخامية وأشياء أخرى وجدناها إلى فرانكفورت، يسأل – من بين عدة أسئلة أخرى - ماذا سيفعل ملك فرانكفورت أديكس، بكل هذه الحجارة، التي بدت ذات قيمة خاصة للإفرنج. هل كان سيبني بها منزلا؟



فتاة بدوية عاملة وفتى يتأبط سلته

وندين كذلك للدكتور بود لتدخله السريع للمساعدة في مسألة دبلوماسية كادت تُعرّض عملية التنقيب للخطر. بعدما استمرت الأعمال بالمدينة المقدسة لفترة من الوقت، وجدت الحكومة الإيطالية أنه من اللازم رفع شكوى إلى مكتب الخارجية ضد مشروعنا الأول الذي كان متجها إلى برقة. بدا وكأنهم يخشون أن يحاول المستكشفان الألمانيان اقتحام "منطقة النفوذ" الإيطالية ببرقة التركية من خلال الأراضي المصرية، ومن الواضح أنه لم يكن لديهم أدنى فكرة عن مدى مسالمتنا. لكن خلال العشر سنوات الماضية حدث ما يبرر للدول الأخرى عدم ثقتهم بهم في الشرق، فلا يمكن تصديق أحد بعد ذلك، ولم يفاجئنا عندما اشتبه بنا الأشخاص ذوي السلطة كالضباط الألمان، أو عندما استنكر بعض العرب على المونسينيور كوفمن أن يتراسل باستخدام الأضواء ليلا من برج مباني التنقيب إلى رجل حرب ألماني رأيناه مرارا في أبو صير. استمرت عملية إرسال الإشارات بالفعل، ولكنها كانت موجهة لمؤلف هذا الكتاب عندما كان عائدا من رحلة إلى الأسكندرية في وقت متأخر من الليل، وكان يمثل خير دليل له ولمرافقه البدوي، في الليالي التى كان القمر فيها ضئيل الحجم.

الفصل السابع

مريوط ومرمريكا:

الأرض والسكان

أثناء التنقيبات بمدينة ميناس فضلنا العمل مع أولاد علي الذين شكّلوا الجزء الأكبر من عمّال الموقع، فقد انتموا إلى القبيلة البدوية العريقة التي سيطرت على الجزء الشمالي الشرقي للصحراء الليبية بأكمله: من الأسكندرية إلى برقة، وجنوبا: من مُغرة إلى منطقة الأهرامات العظيمة. نزح أسلاف أولاد علي غربا من المنحدرات الجنوبية للجبل الأخضر (برقة) من أجل الحصول على أراضٍ أفضل للصيد، وسيطرت قبيلتهم تدريجيا على الصحراء التي تقع غرب دلتا النيل بأكملها، وانتهت سيطرتهم عند بوابات الأسكندرية.

وصف رولفس أولاد علي بأنهم "الرحالة البدو الحقيقيون الوحيدون في الإمبراطورية المصرية". وفقا لما يقوله، فهم القبيلة الوحيدة التي احتفظت بخصال وصفات العربي الحقيقي الأصيل، وحدهم الذين "كما لو أنهم جاءوا من شبه جزيرتهم" فخورين بقوة تحملهم، وقوتهم وكمالهم الجسدي، وفراستهم التي تلمع فيها الدور الرئيس أعينهم الجريئة، وأنوفهم الكبيرة غير المعقوفة، وأذقانهم الدقيقة وشفاهم الممتلئة.

يختلف هذا العرق البدوي الحقيقي بشكل لافت للنظر عن الأعراق البدوية المصرية الأخرى، وكذلك حيواناتهم. يا له من اختلاف كبير بين إبل أولاد علي كثيفة الشعر، التي تتغذي جيدا لعدة أشهر متواصلة على الغطاء النباتي الموجود حول العيون والينابيع، ثم تظل بقية العام دون أية احتياجات سوى شرب الماء كل أربعة أو خمسة أيام، وإبل صعيد مصر الصلعاء، آكلة الحبوب، والتي تبدو وكأنها ينتمي إلى فصيلة مختلفة تماما!

قبائل أولاد علي

ينقسم أولاد علي إلى: الحقيقيين (أولاد علي الحر)، والأولياء (أولاد علي المرابطين)، والعبيد (أولاد علي عبيد). وينقسم الحقيقيون بدورهم إلى الأحمر والأبيض والسننة (السنينات Snêne)، ويتكون كل قسم منهم من قبائل مختلفة. لم ينحدر "المرابطون" من علي الأكبر، بل من ولي (شيخ)، ولذلك يطلق عليهم لفظ الأولياء. من بين قبائلهم أو عشائرهم الثلاثة عشر يجب ذكر الجوابي بوادي النطرون. في السلالة الثالثة يوجد العبيد، وأغلبهم من خدم المرابطين، وطالما يعيشون على أراضٍ مصرية فإنهم يُعتبروا أحرارا، ولكنهم في الحقيقة يعيشون في ظروف من التبعية الطوعية.

فكما في هجرة أولاد علي من المناطق النائية ببرقة لعبت المناوشات والنزاعات على "مناطق النفوذ" دورا كبيرا، وتشتعل النزاعات بسهولة عندما تجازف قوافل كبيرة من هذه المناطق بالمرور من صحراء مصر الغربية. فهم يشنون على جيرانهم غارات نهب وسلب، وغالبا ما تكون الغنيمة القيمة مئات الإبل، ولذا تتمركز كتائب القوات على الحدود التركية بالسلّوم، وعلى نظيرتها في البومبه[*] .

لقد وصفت بدقة أكبر في كتابي "أغاني البدو" كيف تنقسم قبائل أولاد علي الأساسية إلى عشائر، وكل عشيرة تنقسم إلى عوائل فردية تُسمى عائلة أو بيت، بمعنى خيمة. لنضرب مثلا هنا على قبيلة الهوّارة، التي انتشرت على منطقة الساحل بأكملها غرب وشرق الأسكندرية، وتلعب دورا أساسيا هناك. فهم ينتمون إلى أولاد علي المرابطين، وفي حالة الحرب فهم يتحالفون مع الهوارة. تنتشر خيامهم بطول خط السكة الحديد الخديوي الصحراوي الممتد من الدخيلة وعبد القادر إلى ما بعد بهيج،

[*] البومبه (البومبا) Bomba بلدة على الساحل الشرقي في ليبيا إلى الغرب من السلوم. تقع على خليج في البحر المتوسط يحمل اسمها "خليج البُمبه". (المحرر)

بين الرمل وأبو قير، كما نجدهم عند كفر الدوار، وعند حافة الدلتا، وفي وادي النطرون. وأهم عوائلهم:

عيد، الحاول، أبو الضيا، اللبان، إبراهيم، المعيني، بو إسحاق، لبيت، بو حسيم، أبو بكر، صابر، فرصة، عقير، سورة، بو سابو، بو أحمد، سالم، عديني، والعشرين.

ولكل القبائل البدوية شارة مميزة، تُرسم على سبيل المثال على أجسام الجمال بحيث تُرسم الخطوط المتوازية على القدم اليُسرى فوق الكاحل، وأول تقاطع في العلامة يمتد من الأذن إلى الفك الأسفل، والآخر من الفك الأسفل إلى فتحة الأنف، والخط الصغير يمتد من الأنف إلى الشفة العليا. وتتكون عادة من عدة خيام ويتغير عددها. في عام ١٩٠٨ كانت هناك العوائل الثلاثة العشر الصغيرة التالية: محمد، حامد، قاسم، سالم، خليل، شربين، حمدانة، أحس، محمد الثاني، العافي، عثمان، إدريس، الزبيدي.

سيكون من المرهق التمعن في تفاصيل بقية القبائل وتقسيماتها، ولكن يجب ذكر أحد تلك التقاليد المنتشرة في إحدى مناطق أولاد علي، وهو يخص قبيلة السِناجرة[*]، وهي إحدى عوائل أولاد علي الأبيض، واسمها ذو صلة بلقيط ألماني. قيل أن طفلا يُدعى سينجر Singer كان هو الناجي الوحيد من حادثة تحطم سفينة بجوار

[*] تنطق أيضا "الصناقرة" أو "الصناجرة" (المحرر)

برقة. تكيّف الطفل المسيحي مع أساليب وتقاليد البدو، وتزوج منهم، وبذلك أصبح جدّ إحدى أبرز العوائل(**).

في تقديري، فإن قبيلة أولاد علي مجتمعة قد تشكّل ستة آلاف من الفرسان المسلحين، أخذا في الاعتبار ساحل الهضبة الليبية بأكمله غرب دلتا النيل. برغم أن هؤلاء البدو أجبروا على الخضوع للحكومة الخديوية لعقود عدة، فإنهم معفيون من الضرائب وأعباء الخدمة العسكرية. استمر المحتلون الإنجليز في وضع خطة لفرض الخدمة العسكرية على البدو، ولكن سينجحون بذلك فقط عندما تتحول صحراء أولاد علي إلى أرض خصبة كما كان الجزء الأكبر منها منذ ألفي عام.

من المثير للشك بهذا الخصوص محاولة حصر عدد البدو أثناء إحصاء تعداد المصريين، وهو ما شاهدناه أثناء أعمالنا في التنقيب الأثري عام ١٩٠٧. انتشر خبر ذلك بين البدو انتشار البرق ظنا منهم أنه حملة لتلتجنيد في الجيش لكل الرجال القادرين على حمل السلاح. اختفت الخيام واحدة تلو الأخرى من مستعمرة عمّالنا ليلا، وكما رأينا وسمعنا في كل أنحاء الصحراء، لم يعد البدو إلا بعد أن رحل موظفو الإحصاء وحراسهم المسلحين. تمكنوا من إحصائهم في منطقة الساحل فقط لوجود خط السكة الخديوي حيث كان لرجال الشرطة سيطرة كبيرة. تناقشنا مرارا مع ضباط مصريين وإنجليز في وجهة النظر أن محاولات كهذه - والتي يتم استقبالها بصعوبة أيضا بين الفلاحين - تساهم في تقليص السكان البدو، الذين ليسوا جاهزين بأية طريقة للتمدن كما يعتقد الناس.

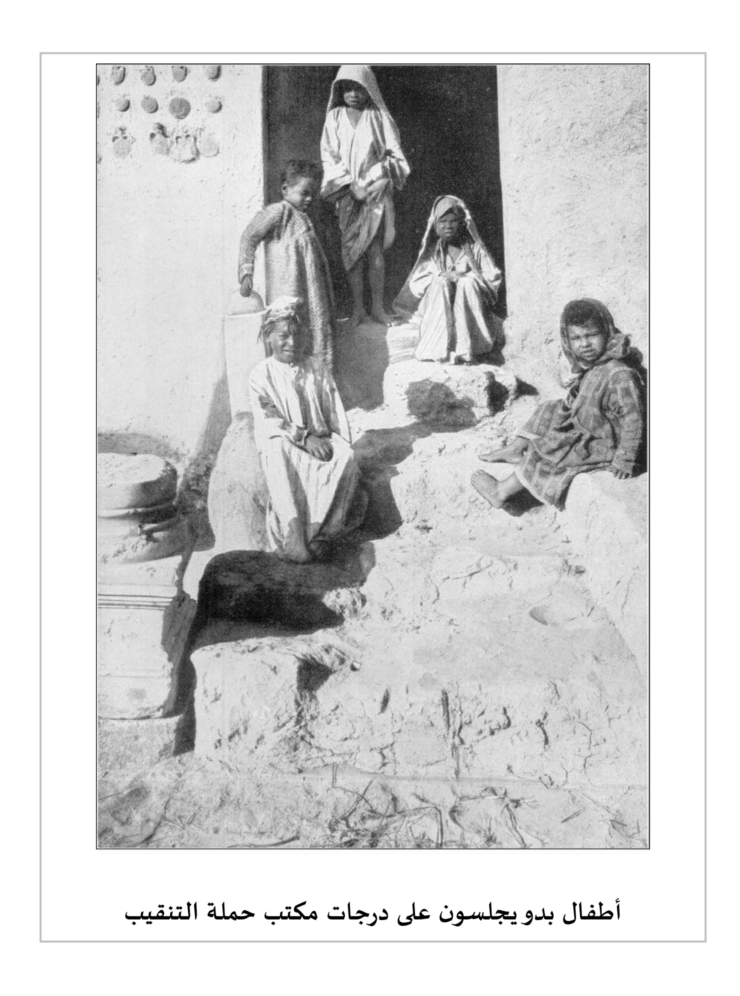
(**) لا يقدم لنا المؤلف هنا شيئا له أساس علمي سوى هذه الحكاية "الطريفة" عن أصل واحدة من كبرى العائلات والقبائل في صحراء مصر وليبيا. (المحرر)

إن روح الاستقلالية ضاربة في أعماق أولاد علي. فهم رجال لم يسمعوا في صباهم سوى عن الحرية، وبطولات الحرب، وغنائم آبائهم، رجال يفضلون رؤية موت أحبائهم على البحث عن طبيب أوروبي، أو تسليم أعدائهم إلى سلطة القوانين الأوروبية، الذين دافعوا لعقود عن أرض الصحراء القاحلة ضد القبائل الغريبة في الغرب والجنوب، ضد الرجال ذوي البشرة البيضاء وذوي البشرة البنية بوادي النيل، فنفوس حرة كهذه لا يمكن دمجها مع قيود التمدن وفوائده غير المضمونة دون أن يتحولوا إلى أشخاص غير جديرين بالثقة إلى أقصى درجة، بل وعدائيين. فهم يتباعدون بالتدريج عن هذا النمط، ومع كل خطوة تزداد تقاليدهم وعاداتهم عمقا وأهمية في أعينهم.

منذ عدة عقود قليلة لم يكن أي أوروبي أو غيره ليجرؤ على تخطي محيط مدينة الأسكندرية بدون موافقة منهم. تفصل البحيرة المالحة الكبيرة(*) بين مدينة البطالمة القديمة والصحراء. كانت لهم سيطرة على كل من يدخل إقليم مريوط، وقد مارسوا ذلك بطريقة مهذبة. فكل من لم يهاجم قوافلهم وممتلكاتهم وحقهم في المسير، كان يعتبر ضيفا لديهم. لكن لم يطمئنوا لأية رحّالة أوروبي. ويشهد بتلك الحقيقة كل المُستكشفين السابقين تقريبا. حتى أن المصادر العربية تذكر المخاطر المهددة بهذه المناطق "سيئة السمعة". فقد نجا بالكاد الجنرال البروسي فريهير هاينريك فون مينوتولي Freiherr Heinrich von Minutoli - الخبير بصحراء أولاد علي، والتي دخلها بآمال عظيمة وتجاوز بمشقة فخاخ وعقبات كثيرة. وكاد يلقى حتفه هنا مُستكشف

(*) أي بحيرة مريوط. (المحرر)

ساحل أفريقيا الشمالي هنريك بارث Heinrich Barth، في هجوم تعرض له أثناء نزول كاتاباثموس(**).



أطفال بدو يجلسون على درجات مكتب حملة التنقيب

يمكن تقسيم الإقليم الذي يسكنه بدو أولاد إلى ثلاثة مناطق رئيسة:

(**) اسم قديم من العهد اليوناني يعني "العقبة" ويقابله اليوم "السلوم"، على الحدود الغربية لمصر مع ليبيا.

النطاق الأول: منطقة الساحل: ويتضمن الشريط الذي يمر به خط السكة الحديد الصحراوي وهو الآن تحت الإنشاء، ويتراوح متوسط اتساعه بين الميلين أو الثلاثة أميال، ويسلك طريقه بين التلال المنخفضة والسهل. تتميز الأراضي المرتفعة بمنطقة الساحل بصخور الحجر الجيري النوموليتي. توضح الجسور الصخرية القديمة بالعامرية وبهيج من أين حصل الأجداد على مواد بناء مستوطناتهم بإقليم مريوط. ومن ثم فإن المباني الجيدة بمدينة ميناس مصنوعة من الحجر الجيري النوموليتي، في الفترة التي لم يستخدم فيها الرخام المستورد. إن الشاطئ بإقليم مريوط مسطح، على الرغم من ظهور الحجر الجيري بين الكثبان الرملية المتحركة. تذوب الأرض تدريجيا في الحطية بشكل طفيف، حيث توجد بعض حدائق النخيل والآبار، بينما يظهر الغطاء النباتي على قمم الهضاب في الربيع. أما الجزء الجنوبي من منطقة الساحل فهو أرض منخفضة تملؤها المياه كبحيرة في الشتاء. كان الدكتور يونكر[58] أول مُستكشف علمي لمنطقة ساحل مريوط في عام ١٨٧٥. وزار باشو، الذي

---

[58] مستكشف روسي من أصل ألماني (الاسم بالكامل: فاسيلي فاسيليفتش يونكر Василий Васильевич Юнкер) ولد في ٦ أبريل ١٨٤٠ وتوفي في ١٣ فبراير ١٨٩٢. تركزت أهم جهوده في استشكاف أفريقيا. درس الطب لكن السفر والاستكشاف كان شاغله الأول، قام برحلات استكشافية إلى أيسلندا وتونس ومصر وأفريقيا الشرقية خاصة في الفترة من ١٨٧٥ وحتى ١٨٨٦. من أهم أعماله في جغرافية مصر مقال منشور في مجلة الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٨٨٠ بعنوان "رحلة في الصحراء الليبية Excursion Dans Le Desert Libyque . بدأت هذه الرحلة في نوفمبر ١٨٧٥، شاملة الأراضي الواقعة إلى الجنوب الغربي من دلتا النيل، أي الجزء الشمالي الشرقي من الصحراء الليبية (وهو الاسم الذي كان يطلق سابقا على صحراء مصر الغربية). وكان خط سيرها يبدأ من الإسكندرية متجها عبر بحيرة مريوط إلى وادي النطرون ومن هناك إلى الصحراء وصولا إلى الفيوم. وكان الهدف من وراء هذه الرحلة هو الإجابة على ثلاثة تساؤلات: (١) هل يمكن أن نجد على الساحل غرب الإسكندرية قاع قديم ومهم لمجري مائي كان يجري إلى البحر، أو العكس. وهل ارتفاع منسوب الساحل مستمر دون انقطاع؟ (٢) هل يستمر وادي النطرون في اتجاهه ناحية الشمال أو الشمال الشرقي نحو بحيرة مريوط. (٣) هل يتسم وادي النطرون أو المنطقة المحيطة ببحيرات النطرون بأنها تمثل منخفض حقيقي؟ وما هي هيئة الأرض التي يتخذها هذا المنخفض؟ (المحرر)

ذكرناه عدة مرات، المنطقة في وقت سابق وقام بوصف علاقتها بمرمريكا. وأخيرا كانت رحلات بارث ومينوتولي هي الأهم من بين تلك الرحلات. في إقليم مرمريكا، وخاصة باتجاه برقة التركية، كانت الصخور والوديان أعلى، فقد احتوت أحيانا على غرف دفن قديمة، وكان يوجد آثار حصون قديمة على قممهم. ما زالت منطقة الساحل بأكملها هي الأفضل خاصة من حيث موقعها، والأكثر خصوبة وإنتاجا في مرمريكا، بينما تبدأ أجزاء مريوط حركة تنموية جديدة، تاركة انطباعا كئيبا على من يمر خلالها على خط السكة الحديد الخديوية.

أما النطاق الثاني فهو الصحراء ذاتها ويطلق عليها السكان اسم الجبال. وهي تبدأ من السهل الليبي وصولا إلى حزام الواحات. تمثل الواحات نفسها المنطقة الثالثة التي تمتد من غرب جغبوب وسيوة إلى الجارة وقطارة ومُغرة، وبعد ذلك عبر الوادي الفارغ والبروزات الجنوبية بوادي النطرون، إلى منطقة الأهرامات العظيمة بالجيزة. بينما تتميز المنطقة الثالثة، منطقة الواحات، بما ذكرته هنا عن مقر الوحي في سيوة ومُغرة ووادي النطرون، وسنأتي على ذِكر المنطقة الوسطى: الجبل. فالكل يعرف الآن أن الصحراء عامة ليست عبارة عن سهل هائل ملئ بالكثبان الرملية. فصحراء أولاد علي تتكوّن من جبال ووديان وسهول رملية وصخرية وصخور ومسطحات طينية.

يميز أولاد علي أنفسهم جيدا بين الصحراء التي يوجد بها غطاء نباتي، أو السهوب (الحطية، الرطوبة)، والصحراء ذات الصخور الصغيرة والغطاء النباتي

(السرير)، وتلك ذات الصخور الكبيرة (الحمادة)، وتلك الصحراء الرملية، وتلك ذات التربة الحمراء (الدَّفة(*))، وتلك الصخرية تماما التي ينعدم فيها الغطاء النباتي.

تتكون الأرض المنخفضة للهضبة الليبية من الحجر الجيري، وأكد الاكتشاف المثير أن التلال والكثبان الرملية التي تستقر عليها هي رواسب للصحراء العظمى، التي امتدت دوما بهذه الطريقة. أظن أنها نظرية البروفسور زيتل Zittel، وهي تبدو مرجحة من وجهة نظري. في منطقة مدينة ميناس كانت تهب علينا عواصف رملية باستمرار، محملة برمال الصحراء الناعمة وبلورات الكوارتز والرمل الخشن الوارد من أميال بعيدة.

بعد موجة من رياح الخماسين الحارقة كتلك التي دامت لمدة يومين، غُمرت مواقع التنقيبات بأكملها بطبقة سمكها عدة ملليمترات من الرمال الناعمة، وفى الآبار والمنخفضات بلغ سمكها نحو نحو ١٠ سنتيمترات. فالصحراء الرملية والصخرية هي الأكثر خطورة، وأكثر ما يجب تجنبه؛ لأنه ما من شيء يعكس الحرارة كالرمل، ولا شيء أقوى تأثيرا من تحريك بلورات الرمل على أرض مكشوفة.

توفر الصخور ذات الأشكال المميزة والأعمدة علامات للبدو، خاصة حيثما تبدّل الكثبان الرملية المتغيرة منظر المكان في غضون فترة قصيرة. أو يُعد البدو لأنفسهم علمًا، أو إشارة مميزة، ويكون غالبا هيكلا من الصخور أو قطعة خشب موضوعة رأسيا. في الجو الصافي يمكن رؤية تلك العلامات، حتى لو كانت مجرد جمجمة جمل، من مسافات بعيدة. بنينا في الطريق بين مرسى مطروح وواحة سيوة علما كبيرا تكريما للخديوي أسميناه "علم أفندينا" بالقرب من صخرة مجوّفة يضع

(*) من أسماء هضبة مرمريكا المهمة (والمهملة غير المستخدمة رغم ذلك) اسمها العربي البدوي "الدَّفة" والتي تعني – وفقا لمؤلف كتابنا هنا - أرض التربة الحمراء. (المحرر)

فيها أي شخص ما زاد عن حاجته من قِرب المياه ويُغطيها جيدا، لمن يمر بعده ويكون في حاجة إلى المياه.

إن طرق القوافل التي يتم اجتياز الصحراء من خلالها ذات أهمية كبرى. يمكن تمييزهم أحيانا في منطقة السهب حيث يتخذون شكل الطريق، ولكن يجب علينا ألا نفكر في طريق واحد، بل في العديد من الطرق الموجودة في مناطق تسمح الأرض فيها - كالوديان مثلا - بأن تجتمع معا. إن أهم طريق للقوافل في منطقة أولاد علي هو درب الحاج المغربي، "أي الطريق الغربي لحجاج مكة." كان يُعرف قديما بأنه أحد طرق القوافل الأكثر استخداما، وكان يؤدي من مصر إلى أرض آكلي اللوتس[59]. أولئك الذين أقاموا بساحل ليبيا الشمالي بجانب سرت الصغيرة، حيث يتم اليوم تحضير طبق من نبات اللوتس الذي ينمو هناك بوفرة.

[59] Lotophagi: كلمة يونانية يُقصد بها آكلي زهرة اللوتس، وهم أناس مر بهم أوديسيوس Ulysses في مغامراته الأسطورية في أوديسة هوميروس، وربما تقابل اليوم شمال ليبيا. (المترجم)

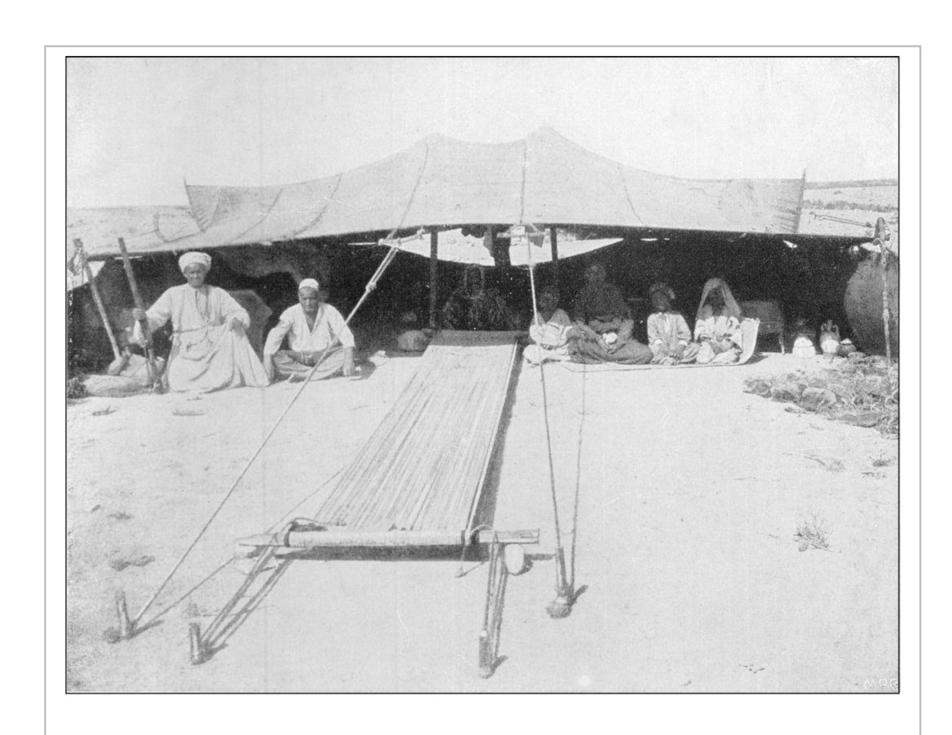


نقش على هيئة مخروط شجر الصنوبر: نقش بارز على رخام من مدينة مينا

درب الحاج

كان وما زال طريق الحج الحالي مفضلا لدى من يبدأ رحلة الحج من شمال أفريقيا والمغرب والجزائر وتونس وطرابلس، ويمر بمصر إلى الحجاز. فهو يمتد على طول الساحل تقريبا، حتى نقطة التقاطع في بلدة الحمَّام. ولذلك يتجه هؤلاء المارون بمصر (القاهرة)، إلى الجنوب الشرقي لوادي النطرون، ويمر الآخرون بجانب أنقاض مدينة ميناس (الآن على امتداد السكة الحديد) إلى الأسكندرية. لقد قابلت حتى عمّالا ألمانيين اختاروا هذه الطرق وهم يرتدون الزي الأوروبي، وطعموا في خيام بدوية، وانضموا إلى القوافل. "هم يرون أننا لا نلمك شيئا ليحصلوا عليه." هذا ما قاله شاب

ألماني قابلته بأنقاض أبو صير. وهي وجهة نظر سديدة. فهو يسافر في هذه المناطق بلا أمتعة، وسيكون خوفه الوحيد إذا تنكّر في ثياب عربية ألا يكون لديه معرفة قوية باللغة والتقاليد العربية. فمن يتنكر في أزياء العرب، على الأقل في غرب مريوط وبعيدا عن خط السكة الحديد، يخاطر بحياته.



نول نسيج بدوي: تصنع النساء أقمشة الخيمة من وبر الإبل (كرم أبو مينا)

فما زال لدرب الحاج أهميته كطريق عالمي للواحات، والطريق الرئيس بين الغرب والشرق، والذي كنا بموقع يسمح بمراقبته لمدة سنتين تقريبا. فمن يملك المال أو يمكنه تدبيره من الأقارب يفضل أماكن المبيت الرخيصة بدلا من المركبات المكلفة. ولكن من أجل سهولة التواصل والتبادل التجاري فإن الطريق البري هو الأكثر

استخداما. لذلك، مع الآلاف من الإبل، كان يتم إحضار أعداد هائلة من قطعان الأغنام سنويا من برقة إلى مرمريكا ومريوط، حيث يتعامل أولاد علي كسماسرة.

وقد أشرت مسبقا إلى أن التواصل بين واحات الجانب الشمالي الشرقي من الصحراء الليبية بأكمله تحت سيطرة أولاد علي. تمر أهم القوافل بين واحتي سيوة والبحرية، وتصل أحيانا إلى الفرافرة. نجح شيوخ السنوسية على مدار العشر سنوات الأخيرة في مد طرق التجارة إلى واحة جغبوب لم يكن الطريق الرئيس لقوافل سيوة في طريق السلطان الذي سلكناه في بعثة الخديوي عام ١٩٠٦، الذي سأتحدث عنه في الفصل التاسع. فهم يمرون من العامرية (مريوط) خلال منطقة مدينة ميناس، وعبر الباب المسمى باب فرانكنفورت، إلى وادي مُغرة، وبعد ذلك إلى واحة سيوة من خلال واحة الجارة. إن السبب في اتخاذ هذا الطريق لعدة قرون في تجارة التمر مع الواحة هو تجنب الساحل ومنطقة مرمريكا. لم يخش أولاد علي أعداء أو لصوصا في الصحراء ذاتها.

لقد أوضحت في كتابي "سيوة، واحة إله الشمس" وجود عدة طرق للقوافل إلى أمونيوم (واحة سيوة)، حينها كانت مُغرة هي الطريق العام إلى الواحات الجنوبية بمصر، بينما ظل وادي النطرون ملتقى الطرق الممتدة من القاهرة والأهرامات العظيمة إلى الصحراء الغربية. قديما حلت بلدة طرانة الصغيرة، والتي كانت تقع إلى الشمال أكثر، محل القاهرة. أصبح طريق الحج القديم مهجورا الآن، وكذلك الطريق من مدينة ميناس إلى الأسكندرية عبر وادي النطرون، وقد كان طريقا مر به الآلاف ممن تقفينا آثارهم من خلال بعثتنا.

تناثرت أنقاض الفنادق القديمة والآبار على مدى صحراء مريوط، وكذلك بعض آثار الحصون، التي زُودت بلا شك بحامية عسكرية لحمايتها. في الجزء الثاني

من كتابه عن ميناس، يأمل قائد البعثة في نشر خريطة توضح مواقع هذه الأنقاض وغيرها بأنحاء مريوط ومرمريكا. بدأت بالتأكيد المستعمرة القديمة بالمنطقة من ضفاف البحر الأبيض المتوسط. أحصينا أكثر من مائة مستعمرة من العصور الرومانية والعربية، من بينهم ثمانية مواقع لأنقاض بلدات في منطقة ساحلية واسعة بإقليم مريوط وحده. إن بلدة ماريا Marea الواقعة على بحيرة مريوط، والتي منها اتُخذ اسم الإقليم، مُحاطة الآن بالبحيرة، ولا يميزها فقط سوى كومة الآثار الصغيرة التي نُسبت إليها على الضفة الجنوبية، وما زالت تحتفظ، منذ العصور الوسطى، بشهرتها في تجارة الفاكهة والحبوب. كان بها مسجد ومرفأ وقصر مهدم، ربما كان معبدا مصريا. أثبت هنريك كارل بروجش Heinrich Karl Brugsch[60] أنه يعود لعصر الفراعنة. لكن يبدو أن صحراء أولاد علي كلها كانت آهلة بالسكان في العصور المصرية القديمة. وُجدت تماثيل الجعران والأعمدة في أعماق الصحراء، خاصة على أطراف كوم أبو منا. نادرا ما بقيت المباني الأكبر من العصور الفرعونية فوق سطح الأرض. وجدت الأعمدة الجرانيتية لأحد المعابد بالقرب من مدينة ميناس، في بلدة الغربانيات، والتي يوجد فوقها جدران منارة "برج العرب" بأبو صير الكبرى (تابوصيريس ماجنا)، والتي تطل على البحر، وهي ما زالت قائمة، وعلى بُعد عدة أمتار توجد أنقاض معبد مساحته ٩٠ مترا. وما زالت أبيس Apis القديمة عاصمة مريوط تنتظر من يكتشفها استنادا إلى معلومات البدو، الذين وجدوا بقرة صخرية كبيرة، ولكنهم أعادوا إخفائها خوفا، ولن يفصحوا لنا عن مكانها.

---

[60] بروجش باشا (١٨ فبراير ١٨٢٧- ٩ سبتمبر ١٨٩٤) عالم مصريات ألماني. ترأس مدرسة المصريات بالقاهرة. أنتج العديد من الأعمال القيّمة. أصبح رائد فك رموز اللغة الديموطيقية (المترجم).

عانت مستوطنة منطقة غرب الأسكندرية بأكملها من الانحدار والتدهور في العصور الوسطى، وأنقاض المدن التي يمكن تمييزها هي: كوبيي Kobii، التي تطل على البحر وتقع بين أبو صير والأسكندرية، والعميد، التي يربط كوفمن بينها وبين أنقاض خشم العشي، التي استكشفتها البعثة[61]، وجوارنا مباشرة مينوكامينوس Menokaminos (الحمَّام). يسهل تعقّب آثار أكوام أنقاض مدينة باريتونيوم[62] Paraetonium و أمونيا Amonia (سيوة)، في النومي القديمة المتاخمة لإقليم مرمريكا القديم، الذي كان يمثل نقطة الانطلاق لنبوءة جوبتر- أمون Jupiter-Amon، وميناء حيوي. بجانب سيوة، كان يوجد من الواحات الداخلية لمرمريكا واحات: الجارة وجغبوب - واللتان تنتميان الآن إلى الإقليم المصري - والواحة الكبيرة أوجلة Augila الواقعة بالجزء التركي من الصحراء الليبية. كانت هذه الواحة تحت سيطرة قبيلة النسامونيين[63]، وكان لديهم - وفقا لهيرودوت - نمط معين من عبادة الأبطال له علاقة بفترة الحضانة، وتشاركوا الزوجات، ومن بين خصائص أخرى فقد اعتبروا مسحوق حشرة الجراد مع اللبن وجبة شهية.

بالقرب من باريتونيوم (مرسى مطروح الحالية) يوجد ممر كاتاباثموس صغير(عقبة صغرى) وهو ممر جبلي سُمي كذلك تميزا له عن ممر كاتاباثموس الكبير (العقبة الكبرى التي تمثلها السلوم حاليا). كان ممرا جبليا ذا أهمية أكبر، وموقعا أجمل، أو كأنه انحدار من السهل الصخري لإقليم السلوم الحالي الواقع أيضا في المنطقة الحدودية لبرقة. لم يكن يُعتبر أرضا حدودية بين بلدين فقط، بل طريق العبور من أفريقيا إلى آسيا. يحمل كلا الممرين حاليا اسم العقبة. من خليج السلوم

---

[61] راجع الفصل الثاني (المؤلف).

[62] أو "البرطون" واسمها الحديث "مرسى مطروح". (المحرر)

[63] قبائل استقرت في واحتي أوجلة وسيوة في الصحراء الليبية (المترجم).

يؤدي الطريق إلى الطريق السريع للعقبة الكبرى، وإلى ميناء مرسى مطروح، ثم إلى ميناء العقبة الصغرى.

حاول الخديوي حاكم مصر بشتى الطرق تجديد طرق القوافل القديمة إلى أرض آكلي اللوتس، والطرق الأخرى لحجاج الحجاز. فمن أحد أعظم مشاريعه وأكثرها أهمية، كما كان يعتقد، إنشاء خط السكة الحديد خلال صحراء مريوط ومرمريكا، ولو أمكن إلى الحدود التركية. لقد تخيل إنشاء خط السكة الحديد الشمالي الغربي، القطار السريع الذي قد يربط الإسكندرية بأحد الموانئ التي تُبنى على خليج السلوم، وتختصر الطريق البحري إلى أوروبا الوسطى بما يقارب اليومين. ستكون السلوم هي المحطة الأخيرة المثالية لهذا الخط، خاصة على المستوى التجاري.

لقد لامست جمال المنطقة الشمالية المصرية عام ١٩٠٧ عندما قمت برحلة غير مثمرة مع قافلة صغيرة إلى واحة جغبوب. يقدم الخليج الكبير، المسمى في الخريطة الكاتالونية[64]، التي تعود لعام ١٣٧٥، باسم ميناء ريو سولوما Rio Soloma، مشهدا لا يُنسى. في الجو الصافي يمكن رؤية جزيرة كريت تتلألأ بعيدا من علي المرتفعات. يمكن البحث عن الأطلال القديمة في كلٍ من الخليج ذاته والمنطقة المحيطة. إن المعالم القديمة للقصر الجديد هي التي تميزه، وهو حصن روماني على الجهة التركية فوق منحدرات وادي دافني الخصب، وقصر العجيبة على حافة هضبة العقبة المصرية. تشير الأنقاض القليلة لقصر العجيبة إلى حصن روماني سيطر على طريق القوافل الشمالي الغربي - الذي ما زال مستخدما إلى الآن - المتجه إلى واحة جغبوب وسيوة وإلى مدخل برقة.

---

[64] الخريطة الكاتالونية (Catalan map or Catalan Atlas) أهم خريطة في العصور الوسطى باللغة الكاتالونية. تم رسمها وكتابتها عام ١٣٧٥. وهي محفوظة في المكتبة القومية بفرنسا منذ عهد الملك شارل الخامس. تتكون من ستة أوراق من الرق مطوية رأسيا. (المحرر)

لم يغفل الحُكّام الأتراك الأهمية الاستراتيجية لمنطقة السلوم بأكملها، ومن المؤكد أن مصر - التي اضطرت إلى القتال من أجل حدودها على الصحراء الشرقية، وفي منطقة سيناء - سيكون لها صراع مشابه بالغرب عندما تُدرَك جيدا أهمية منطقة النفوذ بخليج السلوم بالنسبة لأرض النيل. ومن أجل تأجيل ذلك، عارض اللورد كرومر الاستمرار بإنشاء السكة الحديد الخديوية إلى هذه المنطقة من البلاد. عندما ذهبت إلى ضفاف خليج السلوم وجدت الأتراك منشغلين بتثبيت مواقعهم عن طريق تقوية الحصون الحدودية. كان لدى مسئول القوات الحدودية عدة مئات من الجنود المجهزين بأحدث الأسلحة ولكنهم لم يتلقوا مرتباتهم. كانت مصر حينها تضع حصنها الحدودي بعيدا إلى الغرب بسيدي براني على بعد نحو ٤٠ ميل عن النقاط التركية. لا أستطيع القول إذا ما نقلت إدارة خفر السواحل، وهم الضباط الذين استقبلوني دائما بترحاب، نقطتها إلى الشرق على مدى الثلاث سنوات الماضية. على أية حال، فإن منطقة سيدي براني، مقارنة بالسلوم، هي نقطة تابعة، ومن غير المحتمل أن يكون لها ميناء قوي.

لقد ذكرت مرارا خط السكة الحديد الذي ينشأه عباس حلمي الثاني منذ عدة سنوات على نفقة دائرته الخاصة، والذي يمر خلال الصحراء الغربية إلى قلب المنطقة الساحلية بمرمريكا. ستكون مرسى مطروح الجديدة مشروعه التالي، والأخير طالما تحكم إنجلترا مصر. توجد محطة جيدة في الورديان، تقع على مرأى من الميناء الغربي الجديد بالأسكندرية، وهي تمثل المحطة الرئيسية للخط الملكي، وقد بُنيت من خطط كبير المهندسين جوستاف كايسر Gustav Kayser. يدين الخديوي إلى السيد كايسر - الذي تعاطف وتعاون دائما مع حملتنا - بالكثير في أصعب فترات توليه المسئولية، إذ أنه قام بإعداد الجزء الأكبر من خرائط ومعاينات الخط. تم استخدام المواد الألمانية في كل شيء، حتى إشارة المحطة المثبتة مؤخرا فهي صناعة ألمانية.

لاحظت بوضوح أن الخديوي يستخدم المواد الرخيصة في البناء. لقد أمر بإرسال جنود محليين ليعيّنوا بالصحراء، ولكن لم يتلقوا أجورهم منذ ذلك الحين بأي طريقة، وهو ما يوحي بالكثير عن مصر، فقد اشتاقوا إلى العودة إلى ثكناتهم. ينطلق الخط من ورديان خلال محاجر الحجر الجيري بالمكس ويتجه مباشرة إلى بحيرة مريوط.

بحيرة مريوط

أصبحت الآن هذه البحيرة، التي كان يخشاها حجاج معبد ميناس بسبب أعداد التماسيح الهائلة، أكثر هدوءا ومسالمة. فهي تمثل حدود الصحراء الغربية، وتمتد بعيدا إلى الجنوب إلى حد أن الضفة الأخرى بالكاد مرئية. قديما زيّنت البيوت الجميلة ضفتيها، وكانت حركة الملاحة البحرية دائمة ومستمرة بسبب قنوات النيل، ونمت على شطآنها أفضل وأهم المحاصيل. أشرنا من قبل إلى ماريا، بلدة البحيرة التي أعطتها، والإقليم المحيط، اسمها، وتغمرها الآن مياه البحر الأبيض المتوسط بعمق 2 ½ مترا. دارت معارك عديدة على ضفافها، وارتبط أحد أفظع أحداث تاريخ مصر الحديث بالجزء الشرقي لحوض البحيرة، الذي كان جافا في العصور الوسطى. عندما حاصر الإنجليز الأسكندرية عام ١٨٠١، قاموا بثقب سلسلة الكثبان من أبو قير، فاندفعت مياه البحر إلى الأرض مما أدى إلى غرق الآلاف من الناس، وكذلك ابتلعت الأمواج مائة وخمسين قرية وبلدة. حاول محمد علي إنقاذ ما تبقى، فبنى القنوات والسدود، ولكن حتى الآن ما زال هناك أكثر من ٨٠ ألف فدان من الأراضي الزراعية غارقا تحت المياه التي أتت من البحر.

يعبر الخط الجديد البحيرة عن طريق سد ضيق، يبلغ عرضه بضعة أمتار، يكفي فقط للقضبان، وأعمدة التلغراف. يغطي الجنوب مياه بحيرة مريوط الهادئة،

والشمال يغطيه بحيرة المكس المالحة، وقشرة الملح الثابتة التي تشكل شطآنها هي الطريق الاعتيادي للبدو المترجلين. تعيش الآلاف من طيور النحام المائية (الفلامينجو) ببحيرة مريوط، بينما يعم الصمت والسكون على البحيرة المالحة وغطائها الأبيض الناصع، والتي وفقا للفصل إما يكون لونها أحمر قاني أو أبيض متلألئ.

قبل مبنى السد، بمسافة تقارب الميل الذي يفصل بين بحيرة مريوط والملاحة، بلغنا منطقة مريوط مرورا بلسان المكس الضيق، وبوابة المكس التي ما زال يُطلق عليها باب العرب. إن أول محطة للسكة الحديد الخديوية بعد المرور بالسد هي قرية بدوية صغيرة اسمها زاوية عبد القادر. تتكون القرية من عدة بيوت مُعاد طلائها، و بعض حدائق النخيل التي يوجد فوقها مقبرة صغيرة ومسجد يحمل اسم عبد القادر، وهو وليّ صالح من طائفة المعداني، أقام هناك منذ منعه "شيطان بومنا"، لحسن حظ حملتنا الاستكشافية، من الاستقرار بمدينة ميناس. سنتحدث عن هذه الواقعة في موضع آخر. للسكة الحديد خط واحد، ويسير مسافة تتراوح بين ٦ إلى ٩ أميال من الساحل، وفي أماكن موازية لشاطئ خليج العرب. يصل القطار إلى المقر الرسمي لمأمور المركز بالعامرية، محافظ مريوط الحديثة. هنا وفي المحطة التالية، كينجي مريوط، قد نلاحظ بعض المنازل والحدائق ذات الطابع الأوروبي، وكذلك طواحين الهواء على المرتفعات، التي تذكّرنا بأيام محمد علي المنسية.

على طول السكة الحديد تمتد حقول الشعير، والقليل من حدائق الفاكهة، وفي الجنوب توجد بالتبادل الصحراء والحطية، وباتجاه البحر تمثل محاجر جبل باطن للحجر الجيري نزهة ممتعة لسكان الأسكندرية. يوجد الكثير من الأنقاض في المنطقة، ورغم ذلك فالقليل منها مرأي فوق سطح الأرض. بعد مسيرة طويلة في الصحراء، التي نرى فيها من وقت لآخر بدوي أو قطيع من الإبل، تظهر الثكنة الصغيرة لمحطة خط السكة الحديد لبهيج وسط الحقل الرمادي المصفر، وهي نقطة الرحيل

لزائري مدينة ميناس. وصف كوفمن في كتابه "الدليل إلى حملات التنقيب ومعبد ميناس"[65] الرحلة القصيرة إلى كرم أبو مينا بالتفصيل، وأعطى الاتجاهات الضرورية لرحلة سفر أفضل ولتوسيع الجولة جنوبا وصولا إلى أديرة وادي النطرون. تقع قرية بهيج البدوية الصغيرة على بُعد ميل ونصف من المحطة الوحيدة باتجاه صعود الساحل، حيث توجد آثار أبو صير، وفي الخلفية مشهد البحر المتوسط المدهش.

ومن ثم، دائما على مرأى من القمة الجيرية التي تخفي الساحل، يمتد خط السكة الحديد إلى الجنوب الغربي وخلال الصحراء إلى بير الحمَّام، وهو عبارة عن محطة مهمة للقوافل بما فيه من آبار جيدة، وحيث تجري في الوقت الحاضر تجارب زراعية مثيرة للاهتمام. من الحمَّام ينطلق الخط غربا بالقرب من الخليج، ثم في الاتجاه الشمالي الغربي بالقرب من الشاطئ. تأتي العميد وهي المحطة المهمة التالية، وتقع على الساحل مباشرة بعد عبور السهل في الاتجاه الشمالي من خشم العشي، تل الأنقاض الذي استكشفته بعثتنا. تتكون آثار العميد من مسجد أثري يعود للقرون الوسطى وبه نقش عربي، ومنارة حديثة مسئول عنها أحد العرب. ولهذا فمنذ عدة سنوات أنشأ الخديوي طريق السيارات، والذي لم يكلفه شيئا؛ لأن الأمر لم يستلزم سوى إزالة شجيرات الحطية وإبعاد الصخور. ولكنه بالرغم من ذلك مهد اتجاه السكة الحديد، التي يبلغ طولها الآن 270 كيلومترا، وقريبا ستصل إلى مرسى مطروح عاصمة مرمريكا.

لقد رأيت القمم الجيرية لخشم العشي، كما وصفت مدخلا لهذه المنطقة المثيرة للاهتمام. يتوسط الحطية بقايا القصر الجنائزي: خشم العشي (قصر المساء)، وهو أثر يعود للعصر اليوناني الروماني، ويُفضل رعاة أولاد علي التخييم في ظل جدران

[65] فرانكفورت، ١٩٠٩ (المؤلف).

الآبار، المدون عليه بالخط الديواني الذي يفضله البدو. يتخطى خط السكة الحديد ذلك المبنى جنوبا، وتظهر العقبة بعد عبور خط الطول ٢٩. تحدّثنا مسبقا عن العقبة الكبرى والصغرى، التي أطلق عليهما القدماء اسم كاتاباثموس الكبرى والصغرى. يُطلق أولاد علي اسم العقبة الصغرى على الطريق بين سيدي عبدالرحمن وخليج الكنايس.

ينتشر الرعي في أغلب أراضي منطقة العقبة ومن ثم فهي بمثابة "حطية". يفتخر ساكنوها بأنهم من سلالة أولاد علي الأبيض، وبصلاتهم القوية بالأرض، حيث يجب عليهم الدفاع عن حقوق المِلْكية القديمة ضد تقدم المدنية. تعد محطة سيدي عبدالرحمن الرائعة ومسجدها المفتوح للزيارة، أحد أصغر الأماكن التي تقع تحت سيطرة السنوسية. يصلي الخديوي غالبا في هذا المسجد عندما يأتي لتفقد المنطقة.

لا يوجد بمرمريكا الكثير من الآبار أو خزانات المياه. ما زال البدو يستخدمون خزانات المياه القديمة القابلة للاستعمال منذ قرون في تخزين المياه. لهذه الخزانات عموما فتحة دخول موجودة على سطح الأرض، ومنقوش على جدران الغرف تحت الأرضية شارات القبائل وبعض الأمثال العربية.

يجد أولئك الذين يدخلون المنطقة من الصحراء حديقة جنّاء صغيرة في الوديان المبهجة الممتدة جنوبا في قلب الصحراء، وكذلك في الحدائق المتفرقة بالسهل، وعلى منحدرات الأراضي الهضبية الليبية، وفي البحر الأبيض المتوسط بساحله الأبيض اللامع. لا يواجه خط السكة الحديد أية صعوبات غير اعتيادية لا يمكن تخطيها في منطقة العقبة. يوجد بمحيط سيدي عبدالرحمن، وعلى خليج الكنايس، بعض المناطق الزراعية الغنية. وأكثرهم لفتا للانتباه تلك الموجودة ببير "بيتا"، الذي يقع على بعد نحو ١٢ ميل جنوب الأكوام الحمراء لأنقاض بلدة قديمة. يوجد خمسة عشر بئرا توفر المياه الجيدة وتروي بستانا كبيرا من النخيل والحدائق الجميلة.

رأيت المكان في فصل الربيع المصري، وذكّرني النعناع والخلنج والمريمية وزهرة النجمة والبنفسج الجرئ والنفل الأبيض بأرض موطني بألمانيا. إن هذه المنطقة الخضراء من المنظر لافتة جدا للنظر، فتلال الرمل الأبيض الساحلي تقع غرب الآبار، بالقرب من القمم المرتفعة للأرض المقابلة، ولذلك فوادي بير بيتا يقع بين المرتفعات، ويا له من منظر جميل. تلمع بلورات الرمل الناعم لتلال الساحل كالثلج، تنمو عليها أعشاب وشجيرات خضراء طويلة، ما يجعل التلال تبدو كالغابات. عندما ترمي الشمس أشعتها اللامعة على المنحدرات الناعمة التي لم يسبق لمسها، يظهر خط زراعي دقيق بسفح المنحدر، وتستمتع العين بخصوبة حدائق الطماطم المُحاطة بسياج طبيعية، وتملأ قاع الوادي الصغير. للأسف لم تعد تأتي السفن إلى بير بيتا. يضطر السكان إلى أخذ صادراتهم إلى بير باكوش وهي واحة تقع على بُعد ٦ أميال غرب بير بيتا، حيث ترسو سفينة أسبوعيا في موعد الحصاد كل ثلاثة أشهر. يقع خليج أبو حشايفة الموجود على خريطة بارث Barth على بُعد عدة دقائق غرب باكوش. تشبه الأجزاء الصخرية الموجودة بمحيطه تلك الموجودة بأبو صير في مريوط.

إن مرسى مطروح التي يحتمي حصنها بقوة خفر السواحل، من إنشاء الخديوي عباس حلمي. عندما اختبر الجنرال البروسي "فون مينوتولي" أيام رحلته الصعبة إلى سيوة، منذ مائة عام، لم يجد شيئا سوى الحطام والعرب المعادين. أما الآن فتستقر مستعمرة يونانية مكونة من أكثر من مائة شخص على مرأى من المرسى المحمي الرائع، وصناعتهم الأساسية هي صيد الإسفنج. اضطرت المجموعات الاستثمارية الأخرى من سوريا وأرمينيا، والتي لم تحظ بدعم الحكومة المصرية، بعد فترة قصيرة إلى الاستقرار بمكان آخر، فذهب العدد الأكبر منهم إلى أمريكا. يتميز الإسفنج المستخرج من ساحل مصر الغربي بجماله وجودته العالية. كان الكثير من تجار جزر الأرخبيل التركية يحضرون أساطيل صغيرة مكونة من ٨ إلى ١٠ قوارب،

وطاقم مكون من ثمانية رجال حاصلين على التصريح المصري، الذي كانت تكلفته أربعة جنيهات سنويا، يشاركون في اصطياد الإسفنج. أثناء شهور الصيف يعمل نحو ألف يوناني بالتجارة في الميناء، وكما يُقال، يحققون مكاسب سنوية تبلغ ٢٠ ألف جنيها. يمتد الموسم من شهر مايو إلى شهر أكتوبر على طول الساحل بأكمله وصولا إلى السلوم.

إن صيادي الإسفنج من خيرة سكان الجزر اليونانية، وأتقياء إلى أقصى درجة. قاموا بإنشاء كنيسة وأحضروا كهنة على نفقتهم الخاصة إلى مرسى مطروح، وهي الكنيسة المسيحية الوحيدة في غرب مصر بأكمله، وتحميها قوات الحصن، الذي يحكم الميناء والمدينة. توجد على طول الساحل، وخاصة بجزيرة الشويلة - وهي على مسيرة عدة أيام إلى الغرب - قبور اليونانيين الذين هلكوا إثر استخدام بزات غطس سيئة الصنع. في النهاية منعت الحكومة استخدام خوذة الغطس وحددت لذلك عقوبات كبيرة، ولذلك غطس الرجال عرايا مزوّدين بحبل وحجر رخامي كان يسحبهم على عمق ٢٥ قامة. بمجرد تحريك الحبل يسحب رجلان الغطاس إلى الأعلى ثانية. من الضروري الحصول على تصريح حكومي خاص بصيد الإسفنج، ما يجعل السرقة مستحيلة، وبالتالي ينمو الإسفنج بشكل أفضل.

إن المسألة الأهم بخصوص مستقبل مرسى مطروح هي مسألة المياه مجددا. فالمياه الصالحة للشرب قليلة، والخزانات القديمة مدمرة. بناءً على طلب الخديوي، قامت شركة التنقيب والحفر الأرتوازي بعدة محاولات لبناء آبار أرتوازية[66]. عندما زرت مرسى مطروح آخر مرة عام ١٩٠٧، قابلت شابا ألمانيا على رأس المشروع وسعد

---

[66] بئر لرفع المياه الجوفية إلى السطح دون استخدام مضخة بتوفير مقدار مناسب من الضغط (المترجم).

كثيرا لرؤية مواطن ألماني. قال:"لو لم يكن معي الجرامافون خاصتي، لما احتملت المعيشة هنا." وسمح لي بسماع فاجنر Wagner[67] والموسيقى الكلاسيكية عندما كنت في طريقي إلى جغبوب في صحبة قافلة صغيرة.



فتاة من إحدى القبائل

كان الصخر في مشروع الآبار الارتوازية مثقوبا لعمق مائة أو مائتين مترا نحو ٣ أميال جنوب الحصن، وفي أماكن أخرى. وصلوا إلى الطين على مسافة ٨٠ أو ١٠٠ مترا، وظهر الصخر الطباشيري بعد ذلك، وكان من المأمول أن تظهر طبقة الحجر الرملي النوبي الرمادي بعد ذلك. فقد بحثت الشركة أيضا عن البترول. عرفت بعد ذلك أن الأعمال توقفت لكونها بلا فائدة. كانت هذه ضربة قاسية لخط السكة الحديد الملكي، ولم يكن متوقعا استمرار العمل بخط السلوم.

تبدأ منطقة العقبة الكبرى غرب مرسى مطروح وتمتد إلى خليج السلوم. هناك حيث تسيطر قبيلة السناجرة من بدو أولاد علي، وحتى اليوم لا يُنصح بالسفر إلى هناك إلا لمن لديه بعض المعرفة عن القرية، ومسلح جيدا. يمكن أحيانا رؤية

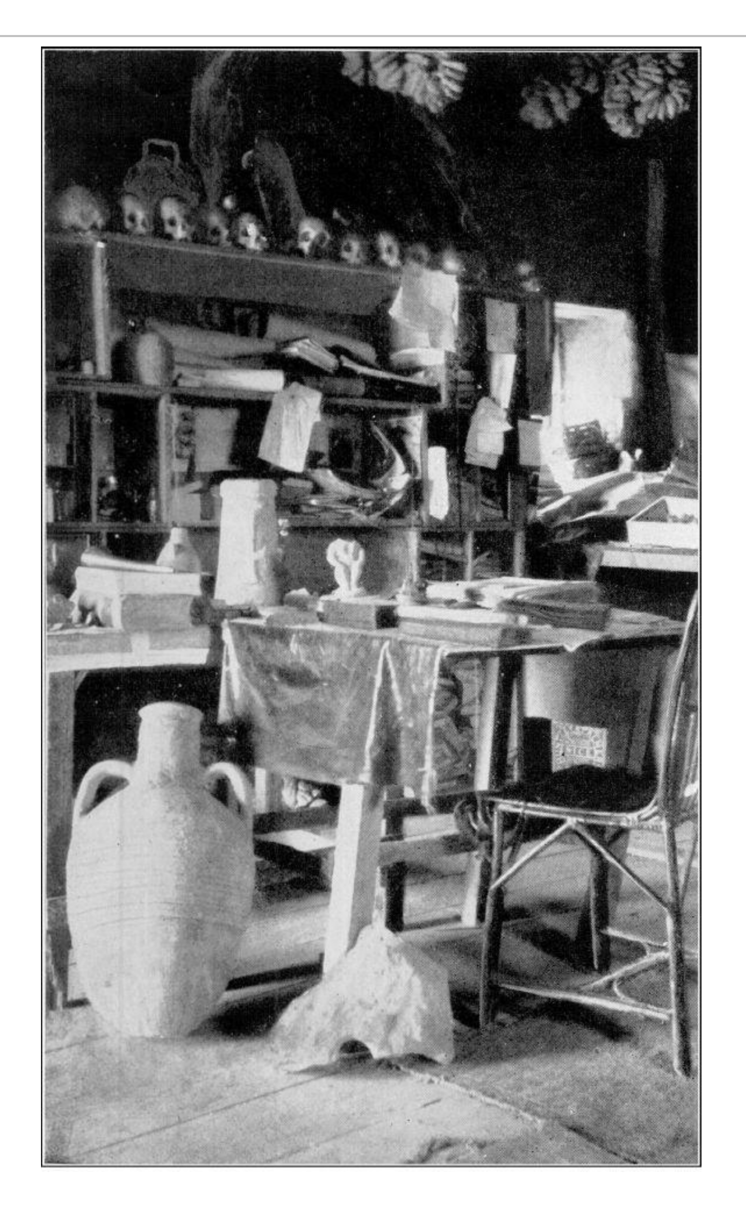
---

[67] ريتشارد فاجنر Richard Wagner (٢٢ مايو ١٨١٣ – ١٣ فبراير ١٨٨٣) مؤلف موسيقي ألماني ومخرج مسرحي. اشتهر بأعماله الأوبرالية (المترجم).

أنقاض بعض المستوطنات الرومانية أو العربية القديمة. توجد إلى غرب جزيرة الشويلة المذكورة بالأعلى أنقاض قصر عربي، كتلك الموجودة على مدخل مرمريكا، يُسمى قصر شام. تأسس على أساسات عتيقة. ما زال البدو بغرب مرسى مطروح يتذكرون الهجوم على هينريك بارث، المستكشف الألماني لأفريقيا، والذي أصيب فيه أثناء مسيرته الخالدة، واضطر إلى الهروب والعودة إلى الأسكندرية.



المستكشفان في إحدى الخيام البدوية



إحدى غرف خيمتنا: قوارير مياه (أمبولات) مينا تتدلى من السقف

الفصل الثامن

مع الوالي إلى واحة أمون

على خُطى الإسكندر الأكبر

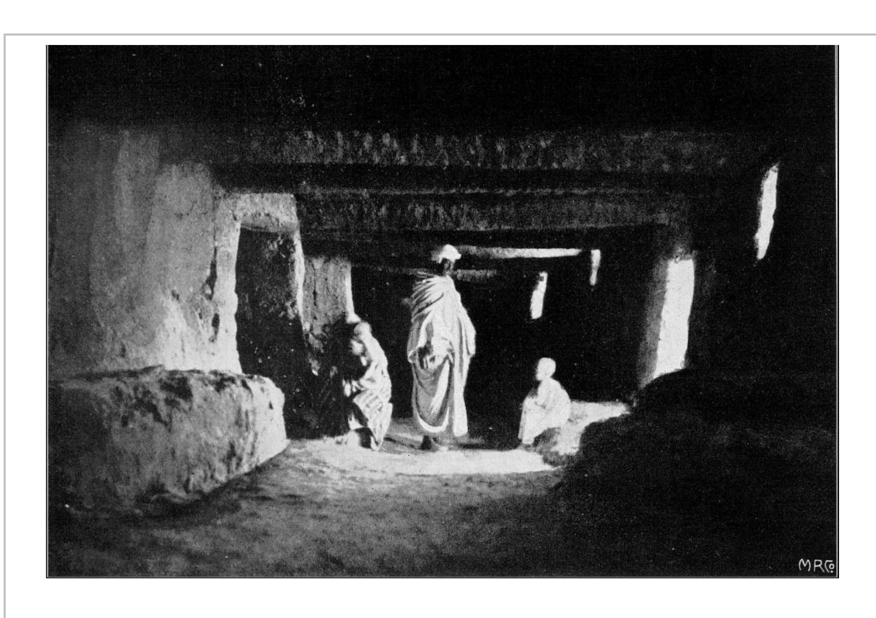
دعوة الخديوي

في الرابع من فبراير عام ١٩٠٦ م، أحضر أحد الفرسان برقية دعوة من الخديوي للمشاركة في مسيرته الكبرى عبر الصحراء إلى أمونيوم Amonium[69]. إلى الآن لم يرَ أي منا حاكم مصر، ولم يكن لنا أي تواصل معه، ولكننا علمنا أن أخبارنا في مريوط كانت تصل إليه بشكل منتظم، وأنه أراد زيارة الاستكشافات في أقرب فرصة. كانت دعوة الوالي موجهة إلى المونسينيور كوفمن، وسأل أي منا سيذهب في الرحلة الشهرية. كان هذا يعني شرفا كبيرا للمستكشفين الألمانيين، وتلقى ابن عمي، الذي عاد إلى الأسكندرية بإجابة الدعوة، التهنئة في كل مكان دون تحفظ. كان هذا الأمر يمثل تضحية كبيرة بالنسبة إليه. لم يكن ليترك التنقيبات تحت أية ظروف لمدة أسبوع، حيث ظهرت كل أدلة اكتشاف مقبرة القديس ميناس. ولكنه سلّم الأمر إليّ بكل حماسة، كما لو كان هذا ضروريا، وعندما عاد من الأسكندرية لم يكن لديّ سوى ثلاثة أو أربعة أيام لدراسة أعمال مينوتولي ورولفس وروبيكي برايكيتي Robecchi-Brichetti، وكذلك للقيام بتحضيرات الرحلة. جاء الأمر بالرحيل فجأة كالدعوة من العاهل الشرقي.

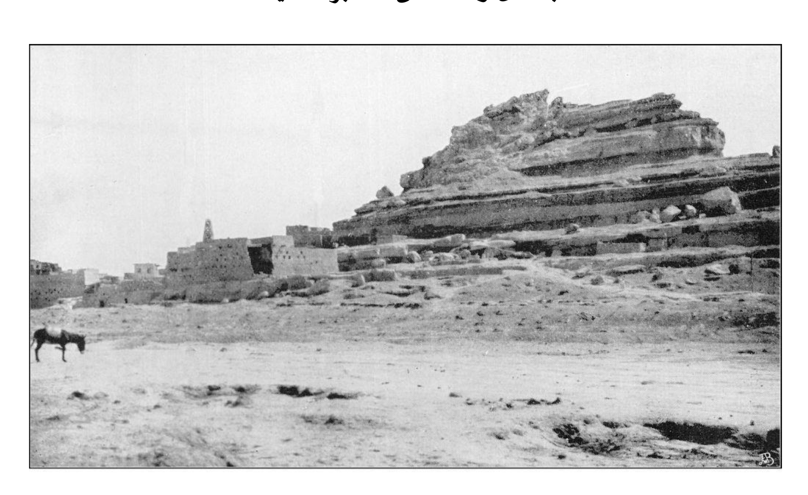
في التاسع من فبراير ودّعتُ ابن عمي، الذي ظلّ الآن في الصحراء وحده مع البدو. استقليت القطار الملكي إلى ما كانت حينها آخر محطة، حيث أخذني الحرس برحلة دامت ثماني ساعات إلى في وسط مرمريكا. عندما وصلنا إليه جاء رجل قوي البنية ذو مظهر مبهج في الرداء الكاكي، ساعدني بلطف على الترجل، وأمسك بلجام حصاني. قال بالألمانية: "كيف حالك سيد فالس؟ سعدت بمعرفتك" كان المتحدث هو عباس حلمي الثاني، خديوي مصر. حالفني الحظ في التعرف إليه عن قرب لبعض الوقت أكثر ممن تمنوا التطوع لخدمته. لاحظ البدو تواصلنا مع "أفندينا"، ما ساهم في الحفاظ على سلامتنا.

---

[69] واحة سيوة حاليا (المترجم).



بداخل واحدة من المقابر القديمة



مظهر سطح الأرض في المنشية

أثناء المسير عبر الصحراء، كان بصحبة الخديوي أربعة أوروبيين فقط، من بينهم طبيبه كوتسكي بك Kautzky Bey. أما بقية الفريق فكان يتكوّن من مصريين وعرب. شاركتُ خيمة مزدوجة مع رائد فرنسي شاب يُدعى فيكوم دو سان اكزوبييه Vicomte de St. Exupér، وكان أيضا ضيفا مسافرا لدى الخديوي. كانت القافلة الكبيرة تتحرك طوال اليوم بشكل عام، سبقتنا قافلة المؤن بعدة ساعات، ولذلك كان المخيم جاهزا عندما وصلنا، وبعدما قضينا حاجتنا توجّه الأربعة أوروبيون إلى خيمة العشاء الكبيرة. لم ينقُصنا هنا أي شيء، بداية من فضيات المائدة والمفارش الدمشقية إلى الأطباق التي قام بطبخها البربر. كمسلم ملتزم لم يتناول الخديوي النبيذ أو المشروبات الروحية ولم يُدخن، ولكنه لم يمنع ضيوفه من ذلك، وكان مُضيفا ممتازا.

وُلد عباس حلمي الثاني في ١٤ من يوليه عام ١٨٧٤. وأثناء دراسته في أكاديمية الفرسان Ritterakademie بفيينا، وهو بعد في عُمر الثامنة عشر، تم استدعاؤه لتولي الحُكم عقب وفاة والده توفيق باشا، والذي احتل الإنجليز مصر في عهده. ينحدر الخديوي من نسل محمد علي مباشرة، مُحرر مصر من حكم المماليك، ومؤسس السلالة الحاكمة الخديوية التي بدأت عام ١٨٤١. كان لدى عبّاس حلمي شعور نادر بالواجب والمثابرة القوية ما جعله قدوة ممتازة لكل مسئولي بلده. يظهر في احتفالات الدولة في أبهة عظيمة بقصوره، مكسوا بترف الشرق والغرب مجتمعين، ويعلوه جلالًا ملكيًا. ولكنه يحبذ ترك كل هذا جانبا حينما تواتيه الفرصة. ليس هدفي هنا وصف نشاطه السياسي، والذي – بالطبع – يختصره بشكل كبير الاحتلال الإنجليزي، الذي تبنّى قرارات متنوعة تبعا للأحزاب والأعراق المختلفة. لا يحتفظ الخديوي بحريم بالمعنى الشرقي للكلمة. فهو يعيش مع زوجتين فقط. لديه خمسة أطفال من زوجته، ومنهم الأمير المتوّج، محمد عبد المنعم، الذي ما زال صبيا. تزوّج ثانية من سيدة نمساوية اعتنقت الإسلام قبيل رحلته إلى مكة مباشرة.

خلال الرحلة الطويلة والمثيرة للاهتمام بأكملها نادرا ما رأيت عباس حلمي متعكر المزاج. لو أساء رجاله نصب الخيام أو أخطأوا في سقاية الحيوانات، أو لو نقُصت أيا من وسائل الراحة التي يتوقعها، كان يصيح باللغة العربية ويشير بالكرباج بطريقة توحي بالتهديد. ولكن يجدر ملاحظة أن هذا دائما كان من أجل ضيوفه لا من أجله، فقد كان اقتصاده في المعيشة مثاليا للمغامرات التي تحتاج أسلوب حياة عادي ومعتدل.

كان حديث المساء يطول. تحدّث أحيانا عن الموقف السياسي لبلده، ولم يُخفِ استيائه العميق مما اعتبره سلوكا استبداديا، لا بل فظا، من قِبل اللورد كرومر، الذي كان يعامله كمسئول تنفيذي وليس كحاكم حقيقي. ولكن سرعان ما انتهت رغبته لحديثنا الإفرنجي. قال لي في أحد الأيام: "ألم تلاحظ أن هناك من كان يدون الملاحظات مساء أمس؟ يجب عليّ أن أراعي ما أقول حتى هنا في الصحراء، ولذلك فلن نتحدث ثانية عن السياسة."

وبما أني قمت غالبا بانحرافات عن المسار من أجل فحص الطريق، ولأن ابن عمي أوكل إلى بمهمة البحث عن الآثار، فقد وضع الخديوي تحت خدمتي حصانا وفارسا عربيا، كان يعمل تاجرا للرقيق سابقا، وجنديا في وقت الحاجة، بجانب الجمل، الذي يُسمى "نعامة" بسبب سرعته ورشاقته. امتطى الخديوي جواده بنفسه أحيانا، وفي أحيان أخرى استخدم نوعا من العربات الخفيفة، اصطحبها معه في الصحراء كأمير شرقي حقيقي. كان يركب أحدنا معه أحيانا في هذه المركبة المدهشة، وكان يُفضل سموه أن يقود "عربته" بنفسه عبر القفار الرملية.

يهتم عباس حلمي كثيرا بالاقتصاد المحلي لبلده، خاصة زراعة الأرض وتربية الماشية وأساليب الري. فهو الفلاح الرئيسي، والقروي المتوّج، وهو لقب تشريفي استحقه عن جدارة، والذي يذكره أعداؤه بلمحة من الازدراء. وهذا في رأيي لسببين، فهو يستطيع - كفرعون وصديق حقيقي لبلاده - أن يُثبت حُبه بشكل أفضل لرعاياه من خلال الاعتناء

بظروف الحياة على الأرض، وزراعة التربة من خلال الإصلاحات وحفر القنوات الجديدة، وفتح أراضٍ جديدة للبلاد.



عباس حلمي الثاني خديوي مصر

بهذه الطريقة يؤكد بنوته للنيل، وكونه فلاحًا بالمعنى الذي فهمه القدماء المصريون، وهو الإرث الذي تغذّى عليه اليونان والرومان، دون إضافة أي شيء أساسي جديد. ثانيا، فإن أساليب عباس حلمي العملية بلا شك، مضارباته كما يُسميها أعداؤه، ساعدت على استثنائه من أي استبداد سياسي. منذ استقالة اللورد كرومر في عام ١٩٠٧، الذي سيطر على الحاكم الصغير منذ لحظة تركه أكاديمية الفرسان بفيينا ليتولّى عرش أبيه، أُتيحت لعباس باشا الفرصة ليحكم بنفسه بطريقة معتدلة. لم تثق به

رعيته، وأذكى ذلك عمليات الشراء الضخمة للأراضي، ليس فقط في مصر بل كذلك في الأراضي التركية. اشتبه في رحلة حجه إلى مكة أن تكون خطوة سياسية، تطلعٌ نحو الخلافة، وسيء فهم زواجه من البارونة الأوروبية - التي رأيتها معه مرارا في مريوط متنكرة في زي ضابط - على الرغم من أنها اعتنقت الإسلام. قيل أن أبنائه من زواجه الأول - حتى أكبرهم، الأمير عبدالمنعم - سيتم استبعادهم من وراثة العرش. وتم التلميح مؤخرا إلى أن عملية شراء الأراضي الأخيرة بجنوب كاريا[70] تشير إلى رغبة عباس حلمي في التخلي عن العرش. حصل عليها مقابل ٢ مليون جنيها على الأقل، وهي أرضا ستساوي مئة ضعف بعد زراعتها.



أسد منحوت من واحة سيوة (متحف فرانكفورت)



أقدم تمثال صغير للسيدة مريم العذراء (مدينة مينا)

ومن ثم فإن التقدم نحو أمونيوم (واحة سيوة) الساحرة، الواقعة على الحدود الغربية لملكته، كان يعود عليه في الأساس بالمصالح التجارية. هناك سؤالان أساسيان يشغلان الأهمية الكبرى: أولا، أتوجد أرض في نطاق هذه الواحة الصحراوية قابلة للزراعة؟ وثانيا: أيستحق الأمر بناء فرع لخط السكة الحديد من ميناء مرمريكا: مرسى مطروح، إلى سيوة، التي ستساهم في تصدير التمر، وجزءا من تجارة الواحة الأفريقية؟

[70] إقليم كاريا Caria هي منطقة قديمة في جنوب غرب آسيا الصغرى (المترجم).

قد يُقال أن إجابة السؤالين في الحاضر يجب أن تكون بالنفي، ولكنها جديرة بالنقاش في المستقبل القريب. إن مهمة استصلاح المحافظات القديمة ستحقق هذه الرؤى المستقبلية بأسرع وأسهل ما يكون، وفيما يخص مصر فستنجح هذه المهمة عندما تعود أراضي شمال غرب مريوط ومرمريكا إلى سابق عهدها حدائق جناء. من الناحية الأخرى، سيحظى المشروع الجرئ للوالي الخاص باستصلاح واحة أمون بأهمية كُبرى بمرور الوقت، وتبيّن أن مشروعا مماثلا في جنوب غرب مملكته سيكون مدرّا للربح، خاصة مدخلي واحتي الخارجة والداخلة. وهناك يظهر بوضوح نشاط الحكومة المصرية. فقد أنشيء خط سكة حديد من النيل إلى الواحة، وحفرت آبار وأراض بديعة قابلة للزراعة، وستظهر كذلك أعمال التعدين والمعادن. من المأمول أن نحصل على الفحم والكوبلت وكبريتات المغنيسيوم وأكسيد الرصاص والفوسفات، أما طبقات الطين فقد تم الوصول إليها بالفعل، وخط السكة الحديد بطوله فغني بطبقات من الرخام. أوضح المونسينيور كوفمن الدور المهم الذي لعبته هذه الواحة في العصور القديمة، خاصة تلك المسيحية، بكتابه الصغير المثير للاهتمام: *Ein alt-Christliches Pompeji in der Libyschen Wüste* (An early Christian Pompeii in the Libyan desert)

على أن المزيد من السكك الحديد الصحراوية الأكثر دقة يمكن تنفيذها في المستقبل ويؤكد ذلك خط مكة للسكة الحديد الذي يصل إلى المدينة، وذلك بمساعدة أموال المحمديين، وكذلك التحضيرات التي تمهد الطريق لمشروع خط السكة الحديد بالصحراء. من أجل الثلاث طرق الأخيرة المقترحة والمختبرة جزئيا: من إيغلي[71] إلى النيجر ، ومن واحة بيسكرة إلى بحيرة تشاد ، والخط الأقصر من الميناء العسكري في بنزرت[72]

[71] بلدة ريفية صغيرة في مقاطعة تارودانت في منطقة سوس ماسة درعة في المغرب (المترجم).

[72] مدينة ساحلية في أقصى شمال القارة الأفريقية وعاصمة ولاية بنزرت في الجمهورية التونسية (المترجم).

إلى بحيرة تشاد. ويتم مناقشة المسألة بخصوص استكمالها من بحيرة تشاد عبر بيلما[73] إلى الكونغو الفرنسي وساحل المحيط الأطلسي.

إن عباس حلمي هو النقيض تماما لمن سبقه، إسماعيل باشا، الذي أحيطت مصر الحديثة في عهده بكل سحر الشرق، وهو من فتح طريق البحر إلى الهند، هو الرجل الذي وقّر العلماء والمستكشفين الذين يسافرون إلى النيل. أحتاج فقط لذِكر اسم رولفس، مستكشف الصحراء الليبية الجسور المجتهد، الذي تحمّلت خزانة الوالي تكلفة قافلته. يضيق وقت الفرعون الحاكم بالمسائل العلمية. يدري عالمو المصريات عن هذا الأمر، وجاء سؤاله الأول بخصوص تنقيباتنا - "ماذا تقاضى المونسينيور كوفمن مقابل عمله؟" - موضحا كل شيء. سألني إذا ما كنا سنقوم بالتنقيب في سيوة، حيث يمكنه وحده المساعدة في ذلك، ومن المحتمل أن تتكفل المُكتشفات بالنفقة. على الرغم من أن هذا كان مريبا للغاية، فإن الاقتراح ينمُّ عن حسه كتاجر أكثر منه راعيا للعلم. كان الأمر ذاته محفوفا بالمخاطر، على المستوى الصحي، وكذلك بسبب عدائية أهل سيوة، وعلى أية حال وقع الأمر في اختصاص علم المصريات بشكل أكبر. أخبرني سموه لاحقا أن فون ماثيوسولكس Von Mathuiseulx كان ينوي الاستفادة من إذن التنقيب. ولكني أظن أن رحّالة شمال أفريقيا أعاد التفكير بجدية في الأمر بعدما قام بزيارة إلى الواحة.

لذا حينها كانت الأسباب ركيكة ومبتذلة بشكل واضح: ذلك أن الوالي أراد أن يتعلم القليل عن الحدود الغربية لبلده، وكان هو أول أمير لمصر، منذ عهد الإسكندر الأكبر، يجتاز الطريق إلى موقع الوحي في آمون بقلب الصحراء.

بدأ الطريق الفعلي خلال الصحراء من مرسى مطروح. كانت القافلة الملكية عبارة عن مقدمة تتكون من ٦٢ جمل، وفوج من العربان مع ٢٠ جندي فارس، وفي

---

[73] واحة وبلدة في شمال شرق النيجر (المترجم).

الكتيبة الرئيسية كان هناك ٢٨٨ جمل و٢٢ حصان و٢٨ فارس وظيفتهم الحراسة، تحت سيطرة المملوكي الأسمر، وهو ضابط شاب كان يُري دائما وهو يقود وحده عربة خاصة خلف عربة المهرجان مباشرة في موكب الخديوي الاحتفالي بالقاهرة. كانت المؤن والخيام هي الجزء الأساسي من الأمتعة. حملنا مياه نقية من القاهرة في ١٢٠ وعاء حديدي، و١٠٠ قِربة. كان عدد ستون خيمة يكفي سموه وحاشيته، وثلاث أُخر لقائدي الخيول والجُند قائدي الجِمال والخدم. تم تعبأة أعداد كبيرة من الشاه الحية والدواجن، وحمل كمية ضخمة من العلف لكل الحيوانات.

يستغرق عبور الصحراء سبعة أيام من مرسى مطروح: ميناء مرمريكا، منهم خمسة أيام نقضيهم في بحر من الرمال خلوا من الغطاء النباتي وذو آبار ضئيلة. كان من الممكن عبورها بشكل أسرع بدون قافلة. فلدى ضباط خفر السواحل المصريين تقرير بقطع المسافة في أربعة أيام، أو أربعة أيام ونصف.

خط سير الرحلة

ما زال الطريق يحمل اسم "سكة السلطان"، والمقصود هو الإسكندر الأكبر، الذي سار فيها قبلنا بنحو ٢٢ قرن. وصفتُ مسيرتنا بالتفصيل في كتابي "سيوة، واحة إله الشمس في الصحراء الليبية"، وسأذكر هنا مختصرا عنها. تحرّكنا من تلال أنقاض باراتونيوم القديمة (مرسى مطروح) عبر وادي رمل إلى بير جعيفري، مرورا بجبل جودر، وجبل طارف، وصولا إلى الصحراء الصخرية. ثم من خلال ممر الكنايس وفوق طوفان المحار والشعاب المرجانية، إلى الأربعة آبار: بير لهفن، وبير الجلاز، وبير الحلو، وبير إسطبل. يُعتبر بير الحلو، آخر محطة قبل الدَّفة والحمرية، وهو نطاق الطقس الحار والتربة الحمراء. من ثم يتجه الطريق جنوبا على مرأى من هضاب متماوجة إلى رأس الحمرية، ومع سبعة مرتفعات منحدرة يتجه إلى جارة الحنون. وبلغنا حدود الواحة في اليوم السابع.

تظهر ملكة الواحات الأفريقية أمام أعيننا كأرض مسحورة، منخفض عمقه ثلاثين مترا بالضبط تحت مستوى البحر المتوسط. يوجد في المنخفض غابات ممتدة من النخيل، وبحيرات فضية لامعة، وتقف الجدران الصخرية القوية للهضبة الليبية في شكل دائري واسع يبدو تحت الشمس الحارقة كسلسلة عالية من الجبال. إنها بالفعل جبال الغرب العالية التي ذُكرت في كتابات المعبد القديمة، والواحة، التي يستغرق اجتيازها يوما، هي قرية بستان النخيل، سِخِت إيميت[74] عند قدماء المصريين.

كان دخولنا في مقدمة القافلة الهائلة منظرا لا يُنسى. ميّز طريق الخديوي وفوجه سور من النخيل طوله ثلاثة أميال. كانت النساء مغطاة بالأردية، يلوحن بفروع النخيل، ويهللن مرحبات في آلاف الأصوات، وقفن فوق الأسقف المسطحة المظلمة للقرية، والبيوت الطينية المدببة التي امتدت إلى السماء كالقلاع ذات الأبراج العالية. تقدّم الخديوي على حصانه أولا، يرافقه حراسه في الزي الرسمي للدولة، واتبعناه نحن عن قرب. بمجرد اقترابنا من البلدة، التي نهبها محمد علي في عام ١٨٢٠، ومن مسجد السنوسي الذي كان يشبه القلعة، وجدنا الشيخ المحلي، ووفد من السنوسية، والمحافظ المصري مع حاميته الصغيرة يشكّلون ميدانًا جاهزا لاستقبالنا. خلقت الأعلام العربية المرفرفة، والموسيقى المحلية القوية التي يغلب عليها إيقاع الطبول، وهتاف الأجسام المتمايلة الداكنة فوق أسطح سيوة، مصحوبا بتلويح فروع النخيل على بُعد عدة ياردات، مشهدا جميلًا ومتناغمًا. ولكن التوتر كان باديا. ألقى الرجال ذوو الأردية البيضاء الفضفاضة والعمامات الضيقة، والشيوخ السُمر، التحية على الأفندية في صمت وفتور الرسميات.

بدا على وجوههم الفضول والإكراه مختلطين بالكراهية، كراهية ظاهرة لسليل الناهب الذي لا يعترف به أي مواطن حقيقي من سيوة كسيّد له بدون تحفظ. رأيت

---

[74] الاسم القديم لسيوة، ويعني بستان النخيل (المترجم).

بوضوح أن عباس حلمي استطاع الشعور بسلطته في هذه المنطقة من مملكته عن طريق استعراض من نوع غريب، وأن حراسه هنا لم يكونوا للزينة فقط، بل كانوا حماية ودفاعا حقيقيا.

ينتمي أهل سيوة إلى عرق سامي مختلط بين الدم الزنجي والعرق الليبي القديم فاتح اللون. يبلغ تعدادهم نحو ستة آلاف نسمة، ومساحة أرضهم المزروعة – أقل بكثير مما كانت عليه في العصور القديمة - فهي أكثر قليلا من ٢ ميل، بينما تبلغ مساحة الواحة بأكملها نحو٣١ ميل. تقع البحيرات والمستنقعات المالحة الواسعة داخل الأرض الخصبة، التي تنقسم إلى تربة خصبة ومالحة، والتي تتوقف قيمتها على عدد العيون التي توفر الماء للممتلكات والبلدة بأكملها.

يتميز المواطن الأصلي لسيوة بكسله وكراهيته للأجنبي، فهو يترك زراعة الأرض للزنجي وللعبد المُعتق. تنتعش تجارة الرق خفية، ولكن سوق الرقيق لم يعد يُقام في سيوة، ولكن في جغبوب بالقرب منها. بالرغم من ذلك فإن البيع يتم يدا بيد كما كان يتم من قبل. عُرض عليّ زنجي وسيم بسعر منخفض نسبيا. تقع إدارة الأرض، والتي تتكون من عدة مناطق، في أيدي الوجهاء من أبناء البلد، والذين يجمعون أيضا ضريبة النخيل والجزية لمصر. يجب أن يرى مأمور سيوة، الضابط المصري، الذي يقيم هناك كمحافظ ويتم تغييره كل أربعة سنوات، أن هناك سلاما خارجيا، ويمثل إلى حد ما تأثير السلطة المصرية. لم تكن مهمته سهلة على الإطلاق، لقد أخبرني بمتاعبه بكل انفعال. إنه يغامر فقط في بعض الحالات النادرة بتحقيق العدالة، وأن العقاقير في خزانة الأدوية تفسد؛ لأنه ما من مقيم بالواحة سيسمح بأن يتم "تسميمه"! عندما طلبنا منه أن يرينا مكانا مناسبا مظلما لتحميض ما التقطناه من صور، قام بإطلاق سراح سجنائه وسلّم لنا الزنزانة. تألّفت القوة المسلحة من خمسين جندي سيطروا على متطرفي الواحة. حاولوا مؤخرا القيام بثورة، وقتلوا المأمور. كانت التداعيات لتتبع جريمة القتل، ولكن لحسن

الحظ تم القبض على الشيخ "سليمان حبون" ومعه خمسين ثائرا، وتم ترحيلهم إلى الإسكندرية للمحاكمة.

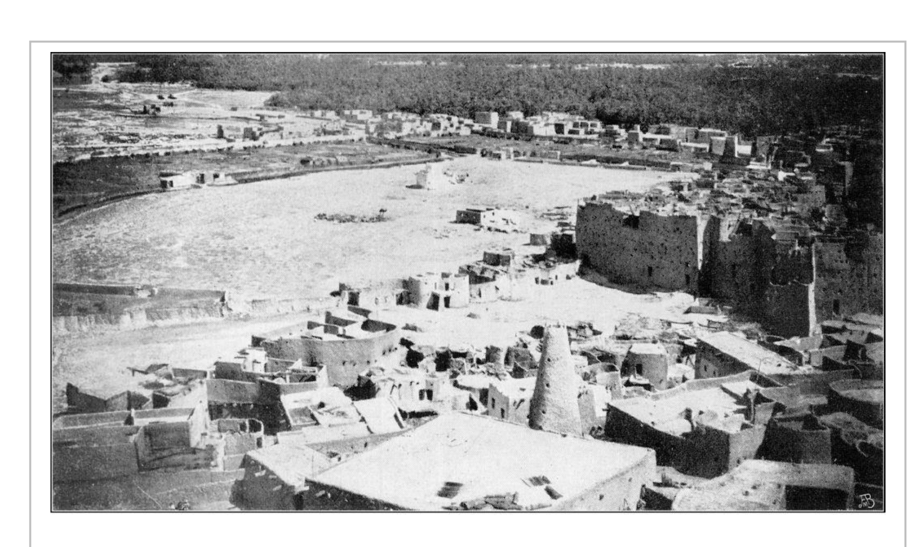
وغني عن القول أنه أثناء أيام إقامتنا بالواحة لم أخرج أبدا بدون حارس، ولكن حالفني الحظ بمقابلة شاب من الواحة، عمِل معنا لفترة قصيرة في التنقيبات بمدينة ميناس، أحسن الحديث عني، ولذا نجحتُ في اكتشاف بعض الآثار، من بينهم رأس أسد تعود للعصر الروماني، والتي أهدانيها الوالي لمتحف فرانكفورت.

كانت سيوة لتكون جنة لولا انتشار مرض الملاريا بها، ما يجعل الإقامة الطويلة فيها مستحيلة بالنسبة للأوروبيين، فيما عدا الثلاثة أو أربعة أشهر الشتوية. يُعد هذا المرض، برغم عدم إدراك السكان لهذه الحقيقة، أفضل وقاية ضد التمدن. فلا تستطيع الأسلحة أو المدافع مواجهة أفواج الناموس الحاملة للمرض. ولكن لدى السكان مناعة - بدون أي تدبير منهم - من هجمات الملاريا. ومن الأعراض الملحوظة نجد البشرة الشاحبة والمنطقة الداكنة حول العينين وكسل العديد من السكان. اعتقد رولفس أن تصريف المياه والري قد يكونا مفيدين.

ذكر وانسليبيوس Wanslebius، عالِم الإنسانيات، أن تصدير التمر يُشكل الجزء الأساسي من تجارة ومقايضة الواحة. فهناك أكثر من ٢٠٠ ألف نخلة، تنتج ١٦٠ ألف منها ثمارا، ولها قيمة سنوية تبلغ نحو ١٢٥٠٠ جنيها. يتم التصدير في فصول الشتاء، والأمر كله تحت سيطرة بدو أولاد علي، الذين بلغت أعداد قوفلهم حينها ما يقرب من مائة جمل. وبما أن أكبر قوافل التمور من سيوة إلى الأسكندرية سلكت الطريق خلال مدينة ميناس، تمكنا من شراء تمورنا مباشرة من فوق ظهور الإبل. إن قنطارا من أجود وأحلى الأنواع، ويسمى أبو طويل، وهو النوع الذي لا نكاد نراه في الأسواق الأوروبية، وطوله يماثل طول إصبع السبابة، اشتريناه في كرم أبو مينا بثمن أقل من خمسة شلنجات، وبالأسكندرية كان ليكلف ١٢ شلنج، وفي أوروبا سيكلف على الأقل جنيهان.

يُستخلص أيضا من شجرة التمر(النخلة) نبيذ النخيل والخل، ويُستخدم لُحاءها في صناعة البُسُط الخشنة والناعمة والسِلال والأواني المنزلية.

ليس الإنسان وحده من يتغذى على التمور هناك، بل تُستخدم الأنواع الرديئة والجافة منه كعلف للإبل والخيول والحمير والكلاب. أما المحاصيل الأخرى: كالزيتون والذرة والقمح وقصب السكر والحشيش والبرسيم والفلفل والتبغ، فلا تكفي نصف الاستهلاك. ولكن ما يمكن زراعته في الأرض يظهر في حدائق الشيوخ الأغنياء، خاصة أولئك من شيوخ السنوسي، حيث يزدهر التين والبرتقال والمشمش بوفرة، بل والكروم الأفريقية التي يصعب الوصول إليها. تتكون السلع الأساسية التي تعود بها القوافل مقابل التمور من وادي النيل أو من طرابلس (بنغازي) من البارود والأسلحة والمخدرات والشاي والسكر والقهوة. يبسط بدو أولاد علي نفوذهم على القافلة التجارية الأساسية، التي يجب أن تُسلّم أسلحتها عند دخول الواحة.



مشهد لواحة سيوة من علٍ

في الأناشيد، يُطلق على سيوة اسم الأرض الغنية بالحمير؛ لأن بقية الحيوانات المنزلية، ومن بينها الجِمال والثيران، تمرض من نظام التغذية على التمور. أما هذه الحمير، التي ينتمي أسلافها إلى عهد الأسرة الصاوية، تنافس في إنجازاتها سفن الصحراء. فمن امتطي حمارا من القاهرة صعودا على جدران المقطم الصخرية إلى مرتفعات الصحراء العربية، ثم امتطاه خلال الصحراء إلى بئر موسى، يجب عليه أن يُعجب بجلد وسرعة وذكاء سلالة العهد الصاوي. سيكون شيئا عاديا إذا قلت أنه في وقت الحاجة يمكن لأحد سكان سيوة أن يقوم برحلته الأسبوعية عبر الصحراء وحده بصحبة حماره. تُعد حقيبة من التمور غذائهما المشترك، وقِربة صغيرة يمكن إعادة ملئها من الينابيع الموجودة في الطريق.



عين موسى – واحة سيوة

في العصور القديمة كانت تتم الرحلات الطويلة عبر الصحراء على ظهر حمار. يُذكر في بردية برلين الهيروغليفية الثانية قصة أحد مواطني وادي النطرون، الذي اعتاد أن يأخذ الملح والتين على حماره إلى السوق في هرقليوبوليس Heracleopolis[75] وكذلك إلى بلدة تقع على بُعد ٦٨ ميل جنوب القاهرة! لم يكن بحاجة لأية نقود، واستطاع المسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي عبر الوادي الفارغ مبعثر النباتات. ولكن على الرغم من ذلك فقد كانت رحلة متعبة للغاية، تضمنت مسيرة عدة أيام.

تتجاوب حيوانات الواحة عامة مع ظروف الجزء الشمالي الشرقي من الصحراء الليبية. ومن أهم الحيوانات الكبيرة يوجد الضباع والغزلان وابن آوى، وداخل الصحراء يمكن العثور على النعام. تسكن الضفادع مياه الواحة. من أكثر الحيوانات الجديرة بالملاحظة سمكة صغيرة تُسمى البطريخ[76]، وهي موجودة بوفرة حتى أن البدو يتناولونها كوجبة بين الحين والآخر، ويمتنع سكان سيوة عن تناولها. زعم زيتل Zittel ، وهو عضو في بعثة رولفس، أن السمكة الصغيرة هي ذاتها التي تم اصطيادها في جداول الجزائر وبحيرات البندقية، وكان باحث ميونيخ المرموق يميل إلى اعتبار سمكة البطريخ من آثار محيط الصحراء.

سهّلت قافلة بدو أولاد علي التجارية دخول الواحة على العرب. ولكن اللهجة المحلية، لغة سيوة الرنانة، ما زالت سائدة، ولمكتب المترجمين، الذي توارثته عائلات بعينها، أهمية كبرى كما في السابق. تنتمي اللغة السيوية إلى عائلة اللهجات البربرية. جمع العديد من الأوروبيين، منذ مينوتولي، المفردات السيوية، ولكن إلى الآن لا يوجد لها قواعد لغوية معتبرة.

---

[75] إهناسيا وتقع حاليا في محافظة بني سويف (المترجم).

[76] سمك صغير شبيه بالشبوط Cyprindon لكنه أصغر حجما. يعيش في الماء الحار. من أسمائه: البطحيش أو البَجْن (المترجم).

إن بلدات سيوة قوية، فهي قلاع طينية منيعة لا يمكن الدخول إليها، ويصعب أن يجد فيها الفرد طريقه، لأن الشوارع مسقوفة بجذوع النخيل للحماية من الشمس، وتكون مظلمة في أكثر الأيام إشراقا. ترتكز البلدات على أساس صخري، وعندما تخرج ثانية إلى الهواء الطلق تقع عيناك على بحر الأسقف المسطحة المتعددة الطبقات، وإلى غابات النخيل ذات الجمال الأخضر الداكن، والبحيرات المالحة ذات اللون الفضي والأحمر الأرجواني، والمنطقة بأكملها التي تحدّها منحدرات الهضبة الصحراوية. قديما، كان يوجد بوابة أو مدخل واحد لأي من بلدات سيوة. حتى اليوم فإن المداخل تتم مراقبتها جيدا في الليل، وويل للغريب، حتى لو كان بدويا، الذي يتجرأ على الدخول ليلا. إن بلدات الواحة الأساسية هي: سيوة وأغورمي، ثم تأتي البلدات الأصغر المفتوحة: السبوخة، الدارة، المنشية، وإلى الشرق قليلا توجد زاوية الزيتون. في منتصف الصيف يترك السكان الأثرياء البلدة، ويستبدلون بيوتهم الطينية بمسكن جيد التهوية في الجبال. يُستخدم "جبل الموتى" - وبه مقابر المصريين القدامي، والذي اختطفتُ منه مجموعة من الجماجم اللافتة للنظر من أجل متحف فرانكفورت - للتنزه في العطلة. أما السكان الأفقر والأغراب الذين عانوا من أجل الحصول على مساكنهم بالبلدة، فإنهم يُقيمون دائما في غرف المقابر بجبل البلد الذي ينتمي إلى سيوة. على الرغم من أن الأثاث بسيط يتكون من بساط من لحاء النخيل، فلا تعتبر هذه الغرف مكانا مناسبا للإقامة. أما المستكشفين الذين لا يُفضلون العيش في مأمورية المحافظ، وهو الشيء الذي يكسبهم العديد من الأعداء، فقد كان يتم تنظيف غرف المقابر الكبيرة لهم، وكانت تُعتبر مساكن مناسبة.

السؤال الأول الذي يتبادر إلى ذهن الأوروبي الذي يزور سيوة يكون عن معبد إله الشمس، الذي شهد بحكمته ونبوءته وشهرته القدماء، بداية من هيرودوت إلى عصر كنائس ميناس، والذي اعتبروه بشكل ما مهدا للديانة المسيحية. كان رب المعبد الملقب هو آمون رع، أو جوبيتر أمون Jupiter Amon، ذو الرأس على شكل كبش، والذي سُميت

الواحة بأكملها أمونيوم Amonium تيمنا باسم معبده. تشبه الكتابات الموجودة بالمعبد ذلك المعبود الكبش بأنه "الوجود في ذاته"، والذي تشبه ساقيه الفضة، وجلده يشبه الذهب، وشعره يُشبه الياقوت، وقرونه تُشبه الزمرد" وتمدحه وتصفه بالرب وخالق كل الأشياء. اشتهرت نبوءته في أنحاء العالم، وأُوحي إلى الكهنة بكلمات الرب، الذين حملوا تمثاله على لحاء ذهبي عن طريق أرجحته ذهابا وإيابا. طلب الحُكام والشعوب معلما لنبوءة الصحراء بداية من كريسوس Craesus[77]. لكن أعظمهم جميعا كان الإسكندر الأكبر، الذي جاء شخصيا على رأس قافلة هائلة، وقاده رئيس الكهنة الثمانية إلى قدس الأقداس بصفته ابن آمون رع، حيث أعطاه إجابة الرب التي ما زالت مجهولة إلى الآن، والتي تأكّد بسهولة أنها كانت إجابة مبشرة. كانت رغبة الإسكندر أن يُدفن في واحة جوبيتر أمون. ولكن الموكب الجسور لعربة الجنازة المهيبة لم يذهب أبعد من منف، وحتى هناك تعرّض قبر الحاكم العظيم للتشويه من قِبل بطليموس فيلادلفوس Ptolemy Philadelphos، وأُخذت المومياء إلى الأسكندرية.

لم تتأكد تماما هوية معبد النبوءة الموجود به إحدى أقدم مباني الواحة. منذ رأى الرحالة الإسكتلندي جيمس هملتون James Hamilton أنقاض معبد مصري كبير فوق الصخور الطباشيرية ببلدة أغورمي عام ١٨٥٣، والذي تم الإشارة إليه كمعبد النبوءة. بُنيت هذه الأنقاض بين المساكن حتى أن ستندروف Steindorff، عالم المصريات الألماني من ليبزج Leipzig الذي زار الواحة منذ عدة سنوات قبلنا، لم ينجح في تحديد خريطة أرض المعبد ذو اللون الرمادي الداكن بمعالمه وكتاباته الهيروغليفية.

وزعموا أيضا أن أنقاضا أخرى، مثل كتل الحجر الجيري بأم بيضة، هي معبد جوبيتر أمون. وجدنا ستة أعمدة فقط عليها كتابات هيروغليفية وتصاوير، وكانت هذه الأعمدة موجودة منذ ستين عاما. ترتبط كل الأنقاض القديمة في الواحة بالأسطورة

---

[77] كان ملك ليديا الذي حكم – وفقا لهيرودوت – لمدة ١٤ عام (المترجم).

تقريبا. ولذلك فهناك قصة عن "البيوت المسيحية" الموجودة تحت الأرض، أي السراديب، وهي على العكس من غرف الدفن تحت الأرضية الخاصة بالوثنيين. ولكن الأكثر تطرفا هو تقليد أهل سيوة الخاص ببحيرة Araschieh، في شمال غرب الواحة، الذي توقف الآن إلى حد ما، وضفتها القاحلة التي لم يستطع أحد اجتيازها سالما، إلى أن زال السحر بالصدفة أثناء غزو محمد علي لسيوة. قيل أن كنزا مدفونا في جزيرة البحيرة، والمفترض أنه خاتم النبي الملك سليمان وسيفه وتاجه. سافر خلال الصحراء رحالة فرنسي يُدعى بوتين Butin عام ١٨١٣ ومعه قارب محمول؛ من أجل اكتشاف كنز Nibelung هذا، وكلفته مغامرته الطائشة حياته.

كان لواحة العالم القديم معجزة، وهي ما يُطلق عليه اسم بحيرة آمون، أو بحيرة الشمس، والتي أخبر عنها هيرودوت. في الصباح تكون مياه هذه البحيرة فاترة، وأقل درجة حرارة في وقت الظهيرة، وباردة في منتصف النهار. في درجة الحرارة هذه، كانت تستخدم المياه في ري الأراضي المزروعة. بحلول المساء تعود المياه دافئة ثانية، وعند غروب الشمس تكون فاترة، وفي منتصف الليل تكون ساخنة حد الغليان. اللغز، الذي حاول كلٌ من طلاب العلم القدامى والحديثون تفسيره، لم يتم الوصول لحله أبدا، ولو تم اتباع التقليد الحديث، باعتباره ينبوعا جميلا محاطا بالنخيل في سيوة، يُسمى عين الحمَّام ، مع بحيرة آمون.

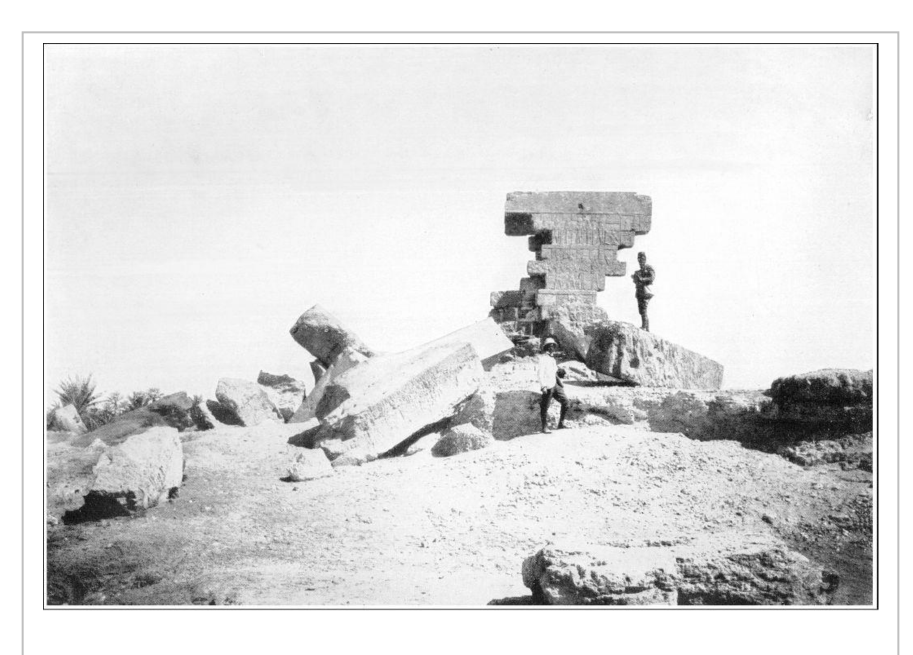
كانت عين حمَّام في الأصل مبنية على أساس خزان صناعي قديم، مثل أحواض الاستحمام والري الصغيرة كعين موسى وعين بن لِف. تُعتبر كل هذه العيون ضمن الآبار الحرارية بالواحة، والتي يعتبرها سكان "بستان النخيل" وكذلك الدارسون الجادّون في أيامنا هذه، ومن بينهم البروفسور شفاينفورث كبير المستكشفين الألمان في أفريقيا، امتداد تحت أرضي للنيل. كان يوجد عدة مئات منهم في العصور القديمة، والآن يتبقى منهم نحو مائة وخمسين عين في الواحة بأكملها.

رغب عباس حلمي أن تتم دراسة هذه العيون المختلفة بشكل خاص؛ لتحديد استخدامها في مشروعات الري. تولى دكتور بيتر Bitter الدراسات في القاهرة، وبناء على رغبة الوالي، شاركتُ بنفسي في أخذ العينات. أخذت كذلك بنصيحة المونسينيور كوفمن وقمت بقياس درجة الحرارة في أوقات مختلفة أثناء النهار والليل. في عين الحمَّام والعيون الأخرى من نفس الفئة لم أحصل على أي شيء ذو اختلاف كبير عما قاله رولفس، المتوسط ٢٩ درجة مئوية في أوقات مختلفة. سألتُ بين سكان الواحة إذا ما ذُكِرت أي عيون معينة في التراث بحكايات القُدامى غير عين الحمَّام ، وعلمتُ أن هناك بئرا "أكبر" موجود على مسافة قريبة من العاصمة، وبوجود قصر قديم في المنطقة المجاورة، بدا أن هناك احتمالا باكتشاف مهم جديد.

زيارة إلى زاوية الزيتون

قادتني رحلة أخرى إلى زاوية الزيتون ، والتي تجنبها رولفس بسبب تعصب سكّانها، والذي لم أعلم عنه حينها، والتي زارها شتندورف في رحلة عودته، إلى القلعة الغامضة التي يُسميها السكان قصر القريشات. وضع الخديوي تحت تصرفي جنودا وجِمالا وخيولا، بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف في الاتجاه الذي يؤدي إلى أبو شروف وصلنا إلى القصر، وهي آثار معبد من العصر اليوناني المصري، مع مساحة كبيرة من الأنقاض المطلة عليه، حيث وجدتُ كل أنواع الآثار الدقيقة. كانت أكبر عيون سيوة موجودة بالقرب من المعبد. كانت محاطة بالشجيرات والحشائش الطويلة، بلغ محيطها نحو خمسين خطوة، واختفت في أرض المستنقعات. يغذي المجرى الرئيسي الشلالات الكبرى لبحيرة مجراري. تقذف عين قصر القريشات القوية مياها تتساوى درجة حرارتها نهارا وليلا وتبلغ ٢٩ درجة مئوية، وفي الجداول المتدفقة تنخفض درجة الحرارة إلى ٢٧ و ٢٦ درجة مئوية، وأقل بعض الشيء في الليل. وبما أنه لم يكن لدى القدماء أدوات لقياس درجة الحرارة بشكل دقيق، فقد مالوا إلى الانطباعات الذاتية. ولكن في سيوة

والصحراء، يتباين الاختلاف بين درجتي حرارة النهار والليل بشكل كبير حتى أن المياه في قصر القريشات، والعيون الأخرى بالواحة ذات درجة الحرارة الأقل، وعلى الرغم من أن درجة حرارتها تنخفض عدة درجات في الليل، تكون دافئة بشكل غير طبيعي. من الممكن تحديد إذا كانت العيون الحرارية بقصر القريشات هي عيون الشمس الحقيقية عن طريق التنقيبات بهذه المنطقة، كما أمكن بالتنقيب وحده تحديد المعبد الحقيقي لنبوءة أمونيوم وبعض الآثار المعينة بالواحة.



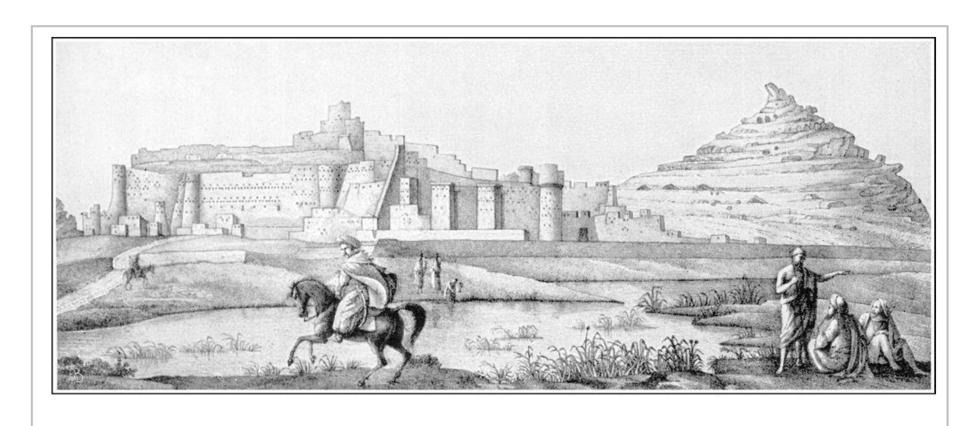
المؤلف وسط أطلال مقر الوحي في سيوة (أم بيضة)

نصبتُ خيمتي بالقرب من معبد قصر القريشات، وأصيب مرشدي المحلي بالفزع عندما أمرتُ القوة العسكرية بالتخييم، بينما تركت أنا الخيام والإبل وذهبتُ ليلا إلى زاوية الزيتون. اضطر إلى الاستسلام والمجازفة بالركوب معي. وعبر السباخ التي تُصيب بالحمى، ومستنقعات البعوض، وصلنا إلى قرية أبو شروف، وبعد الشروق، وصلنا إلى المنطقة الزراعية في زاوية الزيتون. كل السكان تقريبا من الزنوج، أحفاد عبيد مؤسس

الطريقة السنوسية، التي استقبلني قائدها المحلي بحفاوة، ولأني حملت إليه تحية الخديوي، فقد أقام لي احتفالية كُبرى. كنت سعيدا عندما استطعت أن أدير ظهري للدير. أرسل شيخ السنوسية ابنه معي ليريني كل شيء، وهنا، كما في بقية الفحوصات المشابهة، توجد أفواج كبيرة من المتطفلين الفضوليين. راقبتني الوجوه السوداء بريبة شديدة، على الرغم من أني من أجل هذه الحملة استبدلت الخوذة الاستوائية بالطربوش، وأعترف أني قد اضطربت أكثر من مرة عندما كنت أسحب عينات الماء من العيون، كيلا يظن الناس أني أخلط السم بالماء، وأُلقي السحر على هدية الرب الثمينة لأدمرها. قضيتُ نصف يوم بزاوية الزيتون، وفي طريق العودة وجدت مفاجأة سارة. تقدّمت نحونا مجموعة كبيرة من الفرسان، وما إن استطعنا تمييز أحصنتهم علمنا أنهم ليسوا رفقة معادية. كان هذا عباس حلمي خرج بنفسه لإحضاري، أخبرت الوالي أنني لست متأكدا ما إذا كنت تركت بعضا من الحرس في قصر القريشات؛ حيث أني خاطرت قليلا بزيارتي إلى زاوية الزيتون.

أثناء إقامتنا بالواحة جاء الساعي الملكي بخطابات للخديوي، وأخبار من كرم أبو مينا. فقد كان ابن عمي هناك في خطر شديد، ولكنه في الوقت نفسه أخبرني أن كل شيء سار على ما يُرام، وأنه لا داعي للقلق. وكذلك كنت سعيدا عندما تسببت أخبار من الحكومة في أن يُنهي الخديوي الحملة في وقت أبكر مما كان مخططا. لم يكن هناك الكثير ليُذكر عن طريق العودة، عدا أننا مررنا بواحة القطارة الصغيرة غير المأهولة، وسرّ عباس حلمي لرؤيتها كثيرا حتى أنه أصرّ أن يعمرها، وأمر مهندسيه أن يمهدوا طريقا في منحدرات الهضبة الوعرة، في المنخفض الذي اختفت فيه. عندما وصلنا إلى مرسى مطروح، لم أستطع تمالك نفسي، وسألت سموه أن يسمح لي بالسفر بأسرع ما يمكن إلى مدينة ميناس. على الرغم من وجود يخت حكومي في الميناء، وأنه سيكون أسرع من الجِمال، بفضل كرم ولُطف الوالي، وبعدما ودّعته وداعا حارا، انطلقت بسرعة في الطريق إلى

الأسكندرية، ولمفاجأة الكل وصلت إلى كرم أبو مينا دون أن أعلن عن عودتي وطرقت باب ابن عمي في منتصف الليل.



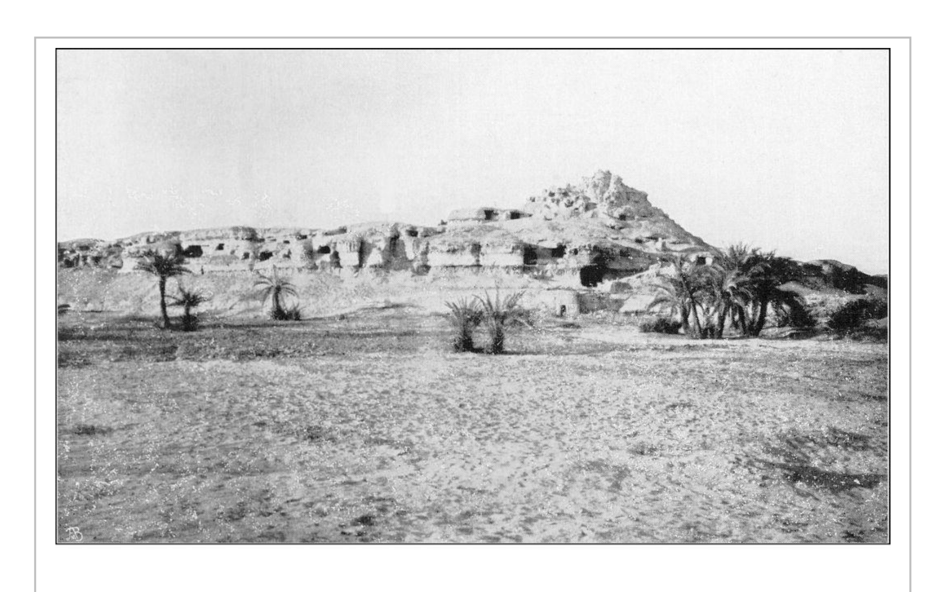
قلعة سيوة قبل مائة عام

(نقلا عن Minutoli)

ألقيت التحية دوما على الخديوي حينما كان يأتي إلى مريوط أو مرمريكا بعد ذلك. أطال قطاره الوقوف في بهيج من أجل أن يستقبلني، واستضافني كذلك في قصره الصغير بالعامرية، وقرأ منشوراتنا الصغيرة المتقطعة إليه، ومن بينهم مقالاتي الإثنولوجية المنشورة بجريدة Frankfurter Zeitung التي أثارت اهتمامه بشكل خاص.

أثناء غيابي الطويل، قام ابن عمي باكتشافات مهمة، وأهمها اكتشاف مقبرة القديس ميناس. أخبرني مبتسما كيف أنه في اليوم التالي لرحيلي ثار البدو، وكيف أنه لحسن الحظ في فورة الحدث لم يترك للغضب طريقا إليه. إن رصاصة واحدة، حتى لو أطلقها لفرض السيطرة، كانت لتؤدي إلى موته. "ثم كنت لتقوم بدفني في الكاتدرائية العظيمة" هذا ما قاله المستكشف الذي يدين بحياته لسيدة بدوية. فقد تجمع فرسان

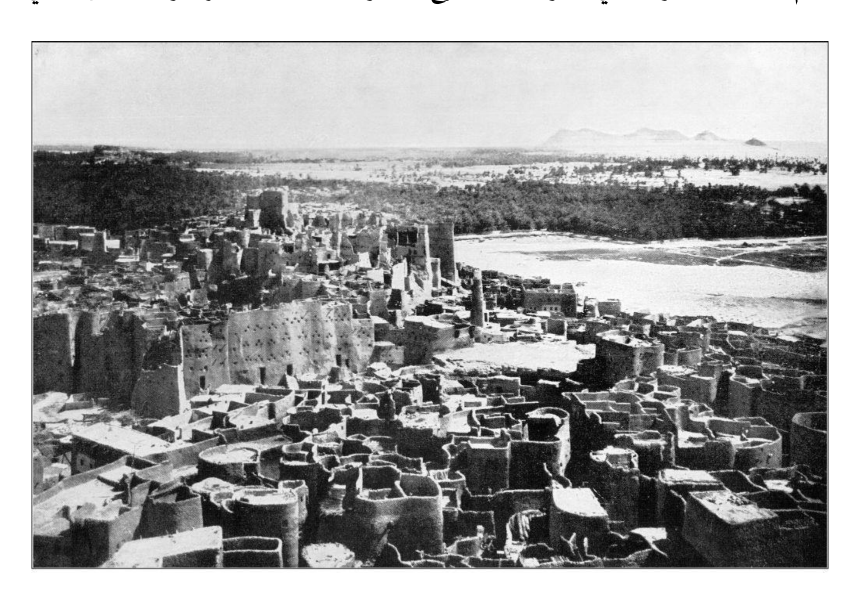
من البدو وعدد من الأشخاص مع بنادق ووقفوا عن بُعد، استغلوا خروج الناس إلى العمل، وسدّوا الطريق، ظاهريا من أجل نزاعات قبلية، ولكن في الحقيقة من أجل أن ينفسوا عن غضبهم على الأفندية الذين سرحوهم. ساء الموقف بغياب الشيخ الذي طردناه قبل عدة أسابيع، وبسبب تهديدي بتسريح كل عامل لا يذهب إلى الكاتدرائية. رفض منهم سبعون، وتم تسريحهم، وذهب البقية إلى العمل، ووضعنا حراسة مسلحة. قُذفت حجارة بجانبي أحيانا، ولكن الثوّار ظلوا على مسافة بعيدة عن بندقيتي. من الكوم رأيت المرأة الوحيدة التي بقيت، وهي زوجة جاسوس، وضعتْ السرج على حصاني الكستنائي، وانطلقتْ في اتجاه العامرية، إلى موقع المركز. عادت بعد أربع ساعات تقريبا مع قوة من السودانيين على خيول بيضاء، وبعد ذلك جاء الضابط، الذي تم الاتصال به، من بهيج، ومعه جنوده. وبما أنه كان من الصعب تحديد المهاجمين (فالبدوي لا يخون البدوي أبدا)، فقد تحمل شيوخ المنطقة بأكملها مسئولية سلامة الأفندي، وبذلك عاد السلام بطريقة دبلوماسية.



قلعة سيوة فوق الجبل



أمام مسجد السنوسية في سيوة: كبار شيوخ السنوسية والمحافظ يرحبون بعباس حلمي



القلاع الطينية عاصمة للواحة

الفصل التاسع

الدين والتقاليد عند البدو

يتميز ابن الصحراء بالتدين الشديد، ويعتمد تقريبا بلا وعي على فروض معينة من الإسلام في ظاهرها الخارجي. يدري معظم الناس بالملامح الأساسية فقط لتعاليم دينهم؛ وذلك بسبب حياتهم البدوية وصراعهم مع الطبيعة، ويميلون إلى الثقة العمياء بالقليلين منهم الذين تعلّموا على أسس دينية في المدرسة، وأولئك يستغلون ذلك العلم لجني الأموال. يؤدي جهلهم إلى تحولهم إلى متعصبين وضحايا تطرف بسهولة، خاصة فيما يتعلق بالإيمان بالأرواح، وهو معتقد راسخ في قلوب أمم الشرق والأمم الهمجية.



ضريح عبد الرحمن على إحدى هضاب مدينة مينا

(الجزء المنقوش موجود في متحف فرانكفورت)

تُعد الصلاة هي الركن الرئيسي للممارسات الدينية عند البدو، وهي مفروضة ثلاث مرات يوميا: فجرا وظهرا وعند الغروب. توجد أوقات صلاة أكثر فقط في شهر رمضان. في الصحراء غالبا ما يُستخدم الرمل للوضوء المنصوص عليه. يُعد المصلي دائرة مفتوحة من الأحجار كقبلة له، ويتوجه نحو الشرق، ثم يتلو صلاته. لا شيء يمنع المؤمن من ممارسة طقوس دينه. أثناء سير القافلة، تجده يترجل ويسجد، في غفلة من الآخرين.

نرى حجاج مكة الذين يمرّون خلال البلدات الكبيرة يفرشون سجاد الصلاة في الشوارع والميادين المزدحمة. ولمنع التشويش على العمل، أمر رئيس التنقيبات بكرم أبو مينا أن تُقام الصلوات في فترات الراحة فقط. أقام البدو مبنى دائري في طول الإنسان من قطع الحجر الجيري والرخام، وبداخله بساط نباتي كبير، في منتصف قطعة أرض ناعمة حيث كانت تنمو كروم القديس مينا. وكان هذا هو مسجدهم.



استخدام النبوت مدراسا للحبوب)

يضع البدو والعديد من الشرقيين المسيحيين في حرج بسبب الاعتراف وانتظام الصلاة، وبسبب سلوكهم خلال الصوم في رمضان. أثناء هذا الشهر لا يتناولون شيئا من الطعام أو الشراب من الفجر حتى الغروب، وحتى التدخين مُحرّم. يُسهل الحُكام الأمر في وادي النيل، فيتم تقليل ساعات العمل قدر الإمكان. تضع الدولة الأمر في عين الاعتبار، وبما أن التجار يغلقون أعمالهم أثناء جزء كبير من النهار، فإن لدى الضباط، وحتى الوزراء، ساعات عمل قليلة. نحن كمستكشفين، كنا قلقين بشدة حيال اقتراب الصيام في شهر رمضان. من ناحية فإن العُمال قد يتغيبوا من تلقاء أنفسهم، ومن ناحية أخرى

إن الصيام يُزيد من حدة الانفعال. ولكن معظم عمالنا ظلوا مجتهدين في العمل. وبسبب الحرارة والأتربة، كان العطش أكثر إلحاحا من الجوع، وهو ما عوضوا عنه ليلا. بقدوم المساء تبدأ النساء البدويات في إعداد الطعام، وتجهيز مياه الشرب. بمجرد أن بدأت الشمس في الغروب صعد البعض إلى برج القصر، مباني التنقيبات، من أجل انتظار نهاية الغروب، وقف الشباب بالأسفل، جاهزون لأول صيحة "خلاص" تأتي من أعلى، والتي تعني أن "الصيام انتهى"، لإشعال سجائرهم أو شرب أول جرعة من الماء.

كان يُصلي كبار السن فقط عامة. لم يشارك بها الشباب، حيث اعتُبِرت الصلاة في الصحراء امتيازا للرجال، امتيازا تتقاسمه النساء فقط عندما يكبرن في السن. أُقيمت الصلاة أثناء التنقيبات في مدينة ميناس عند التعرض لمشكلات خطيرة وقبل وضع الأعمدة الثقيلة، فبينما ينشغل عشرون أو ثلاثون رجلا بالقاعدة والحبال، كانت تُتلى الفاتحة (فاتحة القرآن) جماعة والأيادي مرفوعة إلى السماء.

لم ينزل أي عامل إلى قبو أو خزان أرضي دون أن يركع تاليًا صلاته. جعلني سلوك الناس أثناء السنوات العديدة التي راقبتهم فيه أصدق في قوة وصدق التدين الفطري للبدوي، تدين يظهر في أحداث حياته اليومية. إذا ركب رجلا حصانه أو جمله، فإنها يفعل ذلك باسم الله، وكذلك كل فعل مهم فإنه يبدأه بـ "بسم الله". إذا وضعت السيدة البدوية اللحم في القدر، أو أطعمت أطفالها، أو سلّمت سلاحا، فإنها تفعل ذلك باسم الله. برغم أن الحد الفاصل بين الإيمان والخرافة ليس واضحا دائما، وذلك لوجود روابط كثيرة مع عالم الأرواح، خاصة الأرواح الشريرة والشيطان، أي العفريت. تمثل تلك الأرواح الشريرة مصدر الدخل الرئيسي للفقي، وهو الرجل الذي يستطيع قراءة القرآن وطرد تلك الأرواح وشفاء المريض بآياتٍ منه. يتم استدعاء الفقي الحكيم، وإخباره بكل شيء، وتتم ضيافته وفقا لحالة مضيفه، ثم يكتب آية من القرآن على قصاصة ورقية،

وتتم خياطتها في حقيبة كتانية أو جلدية وارتدائها كتميمة. ويختلف سعر هذه المساعدة بحسب ممتلكات الساعي إليها، إما مبلغ صغير من المال أو منتج طبيعي.

الفقي، وهو الاسم الذي يُعرف به معلّم القرآن، غالبا ما يكون رحالة مغربي، أي عربي من تونس أو الجزائر، أو من أي منطقة تقع في الغرب. تُسمى الفقرة التي يكتبها من القرآن حجابا، وتُدون أحيانا على حجر أو قطعة فخارية. عندما يعالج المريض أو يُمارس دور الحكيم، فعادة ما يكون سؤاله الأول "من الذي ألقى عليه سحرا؟" أو "من الذي كتب له أي شيء؟" لأن قوى الحجاب تؤثر حتى على الغائب.

سأشير هنا فقط إلى بعض من مواقفي الكثيرة التي توضح اعتقاد البدو في الأرواح. ذات ليلة جائنا علواني خائفا شاحب الوجه، دخل الخيمة الصيفية التي كنا نسكنها ذلك الحين، وأبلغنا بوجود عفريت قريب. أرسلناه ليقوم بجولة ويرى ما إذا كان هناك شخصا غير مصرح بدخوله يتسكع في المدينة. كنتُ متلهفا للتعرف على شبح، وتسائلتُ كيف يبدو. قال إن ظلًّا مر بجانبه حالا ثم ظهر ضوءا أمامه، وظل ثابتًا في بقعة واحدة. هممت بأخذ سلاحي، ولكن علواني منعني من أخذه، حيث لا يجب مواجهة عفريت ببندقية. وبما أني كنت دائما أحمل مسدسا لم يكن هناك مخاطرة كبيرة، وتبعته إلى المكان. كان في كاتدرائية الإمبراطور أركاديوس. لمّا تقدمنا رأينا بالفعل ضوءا ساطعا صغيرا وسط كتل الحجر الجيري المحطمة. تقدمتُ بحرص، وأدركت كنه هذا الضوء، فأمسكته بجرأة. اختفى الضوء في الحال، لأني أمسكتُ بحشرة اليراعة(*)، وهي يراعة كبيرة الحجم. لقد أمسكتُ بالشبح، وعدت للمنزل بفرحة الانتصار، ودخلت إحدى الخيام حيث جلس العديد من البدو، وكلهم يشعرون بالفضول الشديد. تلى علواني القصة، وبسطتُ يدي، أريتهم الحشرة وشرحتها لهم وقلت: "والآن، أمازلت تؤمن

(*) اليراعة Firefly أو الخنافس المضيئة أو الحُباحِب أو "أبو حُباحب": حشرة تنتمي إلى الخنافس عندية الأجنحة تتميز بظاهرة الإضاءة الباردة. (المحرر)

بعفريتك؟" ولكني تراجعت وحزنت عندما أجابوني بكل جدية: "يا أفندي، لقد كان العفريت موجودا بالفعل، ولكنه حوّل نفسه إلى حشرة، ولو أنك حاولت قتله لما كنت واقفا بيننا الآن في الخيمة."

توضح القصة التالية كيف كان الأمر مع شبح مدينة ميناس (عفريت بومنا) قبل وصولنا، وقبل اكتشاف الأديرة. كما قلنا من قبل، نصب شيخ بدوي يُدعى شوكان خيمته بالقرب من المدينة المقدسة. تجنّب هو وابناه بحر الصخور الذي وجدت بأسفله مدينة الصحراء المقدسة قدر الإمكان. ولكن أثناء شهور الشتاء نما كلأ جيد على أكوام الأنقاض المتعددة، والتي أرادت إبل شوكان أن تتغذى عليها. وبالتالي صادف ذات مساء أن البدوي اتخذ ناسيا الطريق الأقصر عبر الصخور ليرعى قطعانه. فجأة، وأمامه بعدة خطوات، ظهر رجل ملتح ذو وجه شاحب، بدا ساكنا من بين كتل الحجارة المتهدمة. حاول ابن الصحراء الحفاظ على هدوئه عندما رأى الشبح لأول مرة، وهو ما دار الحديث عنه مرارا ليلا حول النار. التقم حجرا بطريقة توحي بالتهديد، ونادى أبناءه الذين كانوا يرعون الإبل في منطقة قريبة. ولكن قبل وصول المساعدة كان قد بدأ في قذف كتل كبيرة من الحجارة باتجاه "شيطان بومنا". وعندما جاء الشباب وساعدوا بكل قوتهم، اختفى الشبح، ولم يُر في الصباح التالي أو ثانية أبدًا، على الأقل حتى اليوم الذي عرض فيه شوكان ذلك المكان الجدير بالذكر لستكشفين فرانكفورت، وبصعوبة أقنعوه أن عفريته كان تمثالا رخاميا أبيضا قيّما، وقد قام بتدميره تماما. وقد وجدنا القطع فيما بعد.

فلو أفسد الشيطان في تلك الحادثة على المستكشفين المستقبليين فرصتهما بتدمير ذلك التمثال الرخامي، فقد أسدى إليهما معروفا عظيما بغير قصد. جاء ولي يُدعى عبد القادر، وتحمل أول محطة على خط مربوط للسكة الحديد اسمه، إلى بومنا بعد ثورة عرابي باشا، وأغرته مواد البناء الرائعة، وأراد أن يُشيد زاوية ومسجد. بالطبع سعى إلى الحصول على الماء وإلى إعادة خزان قديم إلى العمل. ثم حذّره عفريت بومنا ذات

مساء من الاستمرار في الحفر أبعد من ذلك، ولكن سيدي عبد القادر لم يهتم بالصوت الغامض، وفي اليوم التالي وُجد خادمه مقتولا في الخزان. لقي مصرعه إثر سقوط كتلة حجرية عليه، ولكن الجميع رأى أن للعفريت يدا في هذا الأمر. كان يُدعى الخادم عبدالرحمن، وأتى من فزان. دُفن في تل بمدينة ميناس، والكتابات على قبره موجودة الآن في متحف فرانكفورت.

يتم الاحتفال بعبد القادر الآن كأحد أهم الأولياء عند البدو. وافترض أن الإسلام رسّخ مفهوم تقديس الأولياء والشهداء. لكل بلدة صغيرة شيخ تقريبا، وهي الكلمة التي تعني الأكبر، وكذلك وليّ، التي تعني رئيس. وخاصة على مشارف الصحراء تُرى القبة الصغيرة لضريح ولي تلمع تحت الشمس. فمقام مثل ضريح الشيخ سيدي الفقير، والذي يحتفل به البدو، يُرى من مدينة ميناس منصوبا على ربوة عالية، وتُعد معلما من معالم طرق القوافل إلى الأسكندرية. عندما تقترب القوافل أو الرحالة من ضريح الولي، فإنهم يترجّلون جميعا من أجل تلاوة صلاة قصيرة، وإذا كانوا على عجلة، فيمكن تلاوتها من فوق السرج. تمتلئ ساحة الضريح بالنذور والأسلحة وغير ذلك، وتتناثر حولها بدون حراسة خيام منصوبة بها كل أنواع الأدوات والأواني الخاصة بالبدو، الذين يضطرون للتجول بعيدا، لكنهم حين يعودون يجدون كل شيء بأمان على حالته. لأن الشيخ يمنع السرقة عن طريق سحر اللصوص، فلا يستطيعون الحراك من المنطقة. يؤمن الناس يقينا بهذا.

أولياء أولاد علي الرئيسيين هم: الشيخ سيدي عوين، والشيخ سيدي عبدالرحمن، الشيخ سيدي بوضريحة، الشيخ سيدي أبو حشايفة، والشيخ سيدي أحمد الذي ما زال حيا. تُقام الاحتفالات العظيمة في أعيادهم: يأتي البدو وزوجاتهم وأولادهم في أفضل حلل ولباس، تُنصب الخيام في المنطقة المقدسة، وتستمر المسابقات والولائم أحيانا لعدة أيام، ويتولى فيها أولاد الولي الجزء الأكبر. تُعقد أعياد الشكر والولائم إذا كان

للولي كرامات. حدث ذات يوم أثناء التنقيبات ما كلّفنا شاه، إذ سقط أرضا فجأة أحد الرجال الذين يحفرون بالقرب من بوابة الدير الرئيسية قبل أن يتمكن أحدهم من المساعدة، وتساقطت فوقه الكتل الحجرية الثقيلة والقطع الرخامية ودُفن تحتها بالكامل. رأى الشيخ سعداوي الحادثة من فوق أحد الهضاب، وصرخ عاليا "ياسيدي عبد الرحمن مدد". أسرعنا إلى الرجل المصاب، ومضى وقت كبير قبل أن نتمكن من رفع كتل الأحجار، خاصة مع وجود حائط مجاور آيل للسقوط ووجب تأمينه. شعرتُ أنا كوفمن على نحو شبه أكيد أن العامل قد يكون لقى حتفه، وشكرنا الرب والعناية الإلهية أنه نجا. سقطت الكتل بطريقة حيث شكّلت سقفا فوق رأس الضحية. تم انتشاله بحرص شديد، ولم يكن فقط على قيد الحياة، بل لم يصب حتى بخدش. ذبحنا الشاة في نفس الليلة ليدي عبد الرحمن بكل سعادة وامتنان.

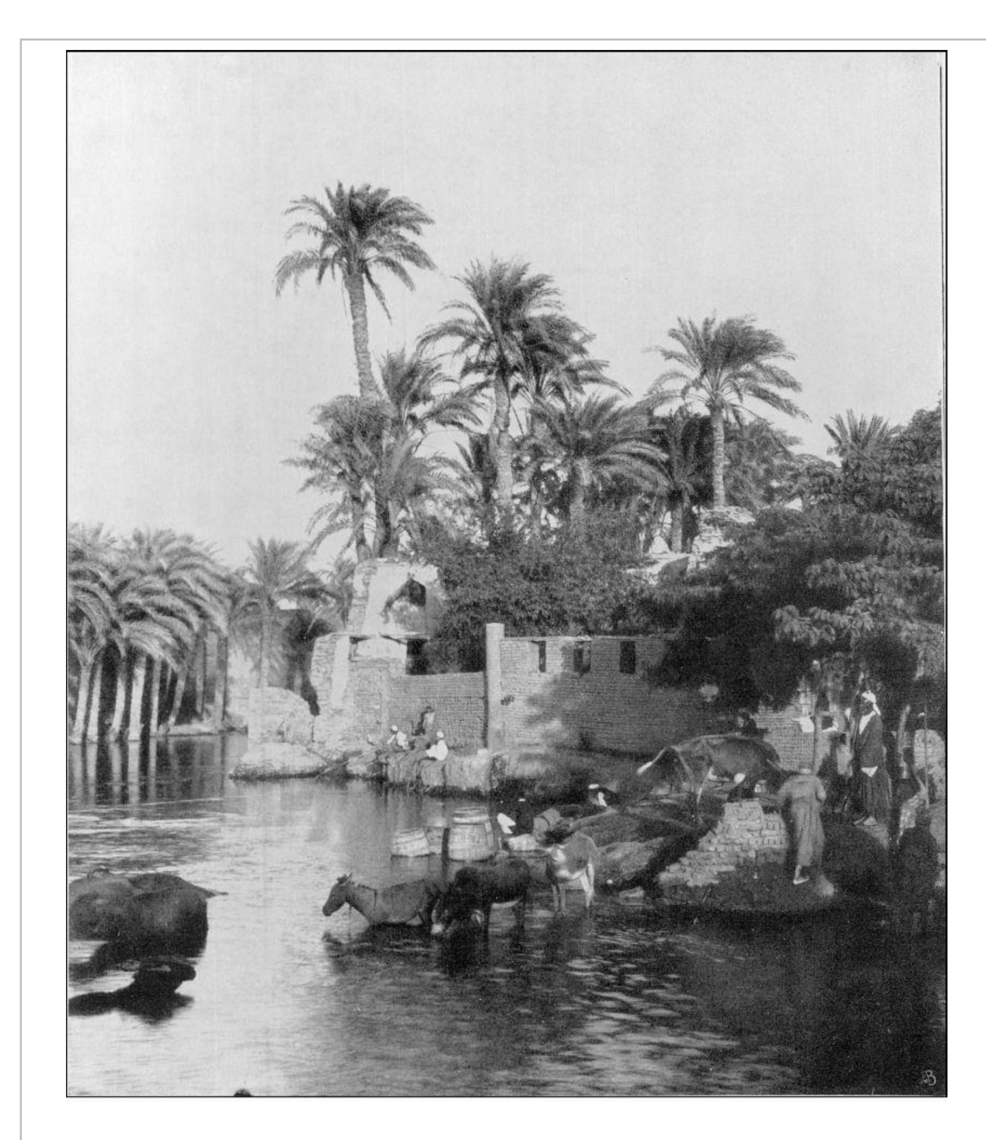
تُنسب قوى الكرامات المختلفة إلى أولياء بعينهم. تذهب السيدات البدويات العاقرات إلى الشيخ سيدي عبدالرحمن. تُطلب مساعدة الشيوخ الآخرين عندما لا تنفع التمائم والعلاج بالكي في حالات مرض الإبل، وآخرون لاستعادة ما سُرق منهم، أو للمساعدة لنيل الانتقام. أحيانا يرث أحد الأبناء "ولاية" أبيه، ولا يجب التقليل من قدر القوة التي يمارسها هؤلاء الأشخاص في حيواتهم على البدو الهادئين المسالمين. بخصوص كرامات الشيخ عبدالرحمن الخاصة، أذكر العادة اللافتة عند نساء البدو اللاتي يدُرن ثلاث مرات حول تمثال قديم استشفاءً من أمراضهن. تأكدّتُ من هذا مرارا في كرم أبو مينا. ولكني لم أكن أبدا مصدوما بها كما في متحف القاهرة. لاحظتُ هناك بعض النساء، من الواضح أنهن فلاحات، اللاتي جعلن الواحدة منهم تدور ثلاث مرات حول مومياوات الفراعنة. كان هذا بلا شك بسبب نفس الخرافة.

بجانب الأولياء والدراويش يلعب مختلو العقل دورا خاصا، حيث يُعتبروا الأشخاص الأقرب إلى الحضرة الإلهية: فالدرويش أو "التائب" ينبذ كل العلائق الدنيوية،

وهو مختل لأن روحه في الجنة بالفعل مع الله. كان الزائر منهما يُعتبر ضمن الزوار المحترمين، ولا حاجة لوصف المعاملة الحسنة التي كانوا يتلقونها. رأينا القليل من حيل الدراويش المشهورة التي انطلت على البدو من أولاد علوان وأولاد سيد، خاصة ما فعله دراويش وادي النيل من أتباع الطريقة الرفاعية، الذين يقحمون المسامير الحديدية في أعينهم، ويضعون الأحجار فوق صدورهم، ويأكلون الجمر المشتعل. شهدنا اثنتين من التجارب المثيرة للاهتمام قام بهما دراويش عابرة. كانت إحدى أكبر المشكلات التي أزعجتنا هي العقارب والثعابين، التي هددت حياة البدو العاملين تحت الأرض حفاة، وأحيانا عرايا. كان العقرب الذي سكن أنقاض مدينة ميناس ذو لون أصفر غامق. ويتسبب في موت الأطفال بسبب لدغته إذا لم يتم إعطائهم الترياق فورا. لدى البدو ذلك الترياق الذي يحضّرونه من مسحوق طرف ذيل ثعبان. أما مع البالغين فتكون أعراض لدغة العقرب شديدة، وتكون على هيئة بقع حمراء متورمة غالبا ما تنتشر إلى أماكن أخرى، ثم شعور بالبرد وأرق. ولكنهم عادة ما يتعافون في غضون يومين أو ثلاثة.

كان ثعبان الصل Uraeus هو عدونا الحقيقي الوحيد. هناك مروضون لكل من العقارب وثعابين الصل، التي قد نراها رمزا على الأزياء والملحقات الملكية للفراعنة. أدركنا ذلك عندما أردنا الاحتفاظ بفصائل نقية من الثعابين والحرابي ومثل ذلك. عموما كان البدو يقتلون تلك المخلوقات بفأس أو بمعول. أحضر الدرويش الذي أمضى معنا عدة أشهر في مستعمرة العمال فصيلة نقية لثعبان الصل في عمامته، وعرض علينا كل الحيل المعروفة لكل رحّالة الشرق. تلقينا حراسة مطلقة من فنه عندما انزعج ثعبانه الصل، الذي يبلغ طوله مترا، ذات يوم. استدعى كوفمن، الذي قاده الفحص إلى تلك البقعة، الدرويش ليروّض الثعبان. خلع الدرويش عمامته، وأمسك الثعبان بعد مطاردة قصيرة (فقد حاول الهرب بين كتل الأحجار المحطمة)، وقام بلفّه في قماش عمامته. في فترة الاستراحة التي تلتها مباشرة أخرج مزماره، ووضع المخلوق في ردائه المطوي وروّضه

بالطريقة الاعتيادية. كانت عصا موسى نافعة فقط على الأرض: أقصد أن المخلوق استلقى أرضا كالعصا، بلا حراك، إلى أن أطلق سراحه.



في واحة الفيوم: حيوانات تشرب من بحر يوسف

وجدير بالذكر واقعتان لهما صلة بالعرض السعيد للثعابين الأخرى من نفس الفصيلة. ذات مرة كان الثعبان محتفظا بسنه السامة وسمّه، ولم تتح له الفرصة لعض

الأدوات أو أي شيء. بالإضافة إلى أنه لم يتم ترويضه من قبل. وإجابة عن استفسار كيف تعلّم هذا الفن، قال الدرويش أنه توارث في عائلته منذ عدة أجيال بدون تعليم. لم يستطع تقديم تفسير معقول، وختم قوله بأن "كل شيء يطمئن مع الله." درّب ذات الدرويش عقربا ليتبع خطوات إنسان يتحرك في اتجاهات مختلفة. احتفظ بالمخلوق في علبة قديمة لحفظ اللحوم، وسمح له بأن يتحرك فقط وفقا لنغمة مزماره. في هذه الحالة كان التمرين يتم بواسطة عصا صغيرة. إن فن ترويض العقارب أندر كثيرا من ترويض الثعابين. نُسبت قوى عظيمة إلى المخلوقات قصيرة النظر وهو ما رواه المقريزي عن تاريخ الأمير تكتباي حاكم قوص. الذي جلس في حوض به ماء هربا من عقرب تلقى أمرا بلدغه. تسلق العقرب جدار الغرفة حتى وصل إلى السقف ثم سقط بالقرب منه، فقتله الأمير وأمر بقتل مروضه.



آثار الزراعة في صحراء مصر الغربية قديما: مجرى بحر يوسف

من الملحوظ أن بدو ليبيا نادرا ما يقيموا شعيرة الحج إلى مكة، وهي فرض على كل مسلم يؤديها ولو مرة في حياته. ويكمن السبب في تعلقهم بالأرض، على الأقل منطقتهم الصحراوية. رغم أنه لا يوجد من هو أكثر ملائمة لمجهود الحج، ولا أحد سيكون على سجيته فيه مثلهم. بالنسبة إلى بدو أولاد علي، فإنهم مثال جيد على كل المستويات. لعدة قرون قام البدو بمراقبة وإرشاد الحجاج القادمين من الغرب: من المغرب والجزائر وتونس وطرابلس حينما كانوا يختاروا طريق القوافل الذي سبق ذِكره عبر مرمريكا ومريوط. ب

الكاد استطاع ٢% من بدو أولاد علي المطالبة بالحصول على لقب حاج، والحق بارتداء العمامة الخضراء. حصلت غالبا تلك القِلة على الفرصة المناسبة بالانضمام لقافلة المحمل[78].

يرسل حكام مصر الكسوة إلى مكة كل عام، حفاظا على هيبتهم الملكية ومظهرا للإيمان، وهي غطاء الكعبة الثمين، تحت حماية عسكرية مشددة. توضع الكسوة على حامل ذهبي (محمل) على أحد الجِمال، ولذلك تُدعى القافلة بأكملها "محمل".

تمر القافلة عبر السويس وجدة في صحراء الحجار العربية، التي فُرض على بدوها عدم مهاجمة القافلة، نظير جزية سنوية قيمتها ٤٠٠ جنيه. تم الآن تنفيذ تحويلة ضرورية في مصر بغرض الاستخدام الدائم قدر المستطاع للخط الجديد لسكة حديد الحجاز، وبذلك تقل الأخطار وكذلك تكلفة الحج. أما الحجاج الذين لا يستطيعون أو لن يتحملوا تكاليف طريقة النقل الجديدة سيكونوا في وضع حرج، ومن ثم فمن غير المحتمل أن يزيد عدد البدو الغربيين من الصحراء الليبية والصحراء الأبعد المشاركين في رحلات الحج.

---

[78] قافلة كانت تخرج - حتى وقت قريب - من مصر إلى بيت الله الحرام بها هودج يحمل كسوة الكعبة المشرفة (المترجم).

على العكس من إحجام بدو ليبيا، فإن عدد الحجاج من داخل أفريقيا في زيادة لافتة للنظر. لعدة قرون كانت الرحلة تتم بأكثر الطرق بدائية عبر واداي[79] وكردفان إلى الخرطوم. تفضل الآن قوافل الحجاج، التي أتت سابقا من برنو[80] ومرّت بالعاصمة ديكوا[81]، أن تدور حول شمال بحيرة تشاد من أجل تجنب الرسوم الجمركية الألمانية. تستغرق القوافل من هذه المناطق في المتوسط عاما كاملا للقيام بالرحلة. يأخذون معهم



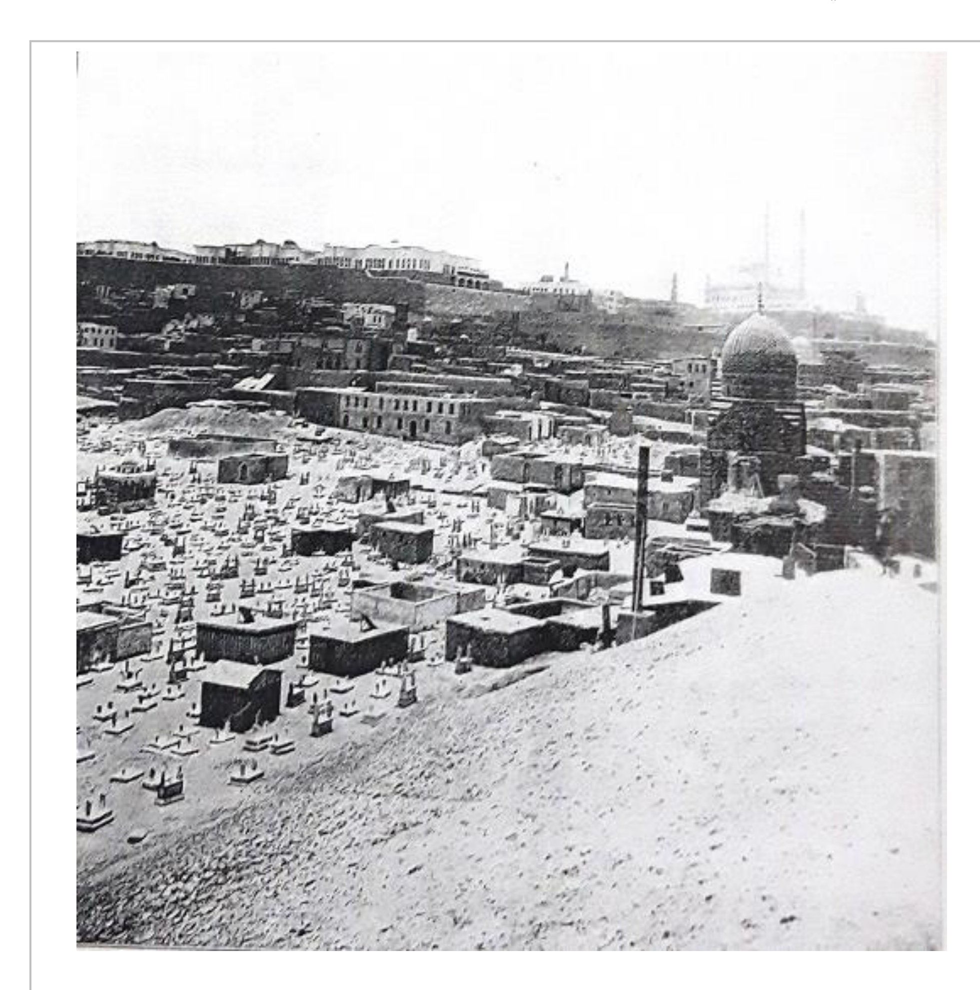
أولاد علي يحصدون بأيديهم العارية

[79] سلطنة واداي Wadai (١٦٣٥ – ١٩١٢) كانت تقع شرق بحيرة تشاد. ظهرت في القرن السادس عشر كفرع لسلطنة دارفور (في السودان الحالي) وامتدت إلى الشمال الشرقي لمملكة باقرمي Baguirmi (المترجم).

[80] إمبراطورية برنو (١٣٨٠ – ١٨٩٣) كانت امتدادا لإمبراطورية كانم العظمى التي سبق وأقامها أسرة سايفوا. أصبحت مع الوقت أكبر من كانم ذاتها. اشتملت على مناطق تمثل الآن أجزاءً من تشاد والنيجر والكاميرون (المترجم).

[81] مدينة تقع في ولاية برنو بشمال شرق نيجيريا (المترجم).

سلعا غير معروفة لمقايضتها؛ ما يضمن لهم الغذاء بدون أحمال خاصة بالمؤن في الأجزاء الأصعب من الطريق، من ضمن تلك السلع عبيدا من الأولاد والبنات، الذين كانوا يُباعوا رقيقا بسهولة في الطريق، ولكن يكون من الأفضل لو تمكنوا من الوصول بهم إلى مكة.



الصحراء والمدينة العاصمة. جبانة العرب بالقاهرة على حافة الصحراء.
يظهر في الأفق المسجد المرمري لمؤسسه محمد علي

تأثير الحركة السنوسية

يرجع الفضل إلى الحركة السنوسية في تشجيع رحلات الحجاج من منطقة بحيرة تشاد. ظهرت القوة السنوسية في أفريقيا الوسطى مجسدة خطرا إفريقيا عظيما لعقود. إن التأثير الروحي لهذه القوة الإسلامية واضح. غيّرت السنوسية دين الزنجي الوثني إلى الإسلام، ونافست بشدة حركات التبشير المسيحية، حيث استعانوا كوسيلة لهذا التحويل بمقدار التمدن الذي يتحمله الأفريقي، وبذلك انبهر الزنوج. وهكذا اكتسب السنوسية بالطبع أهمية سياسية. يوجد كل ما يُشير إلى أن السنوسية ستؤسس في غضون فترة زمنية قصيرة مملكتهم السياسية بأفريقيا الوسطى، وبشكل يسمح لهم ببقاء أطول من الحكم الدموي للمهدي بأم درمان. تحمل السنوسية الهزيمة الفرنسية الأخيرة في واداي - والتي استلزمت تضحية عظيمة في نوفمبر ١٩١٠، في منطقة أبشي[82]- وهو ما تجلى في البيان الذي صرّحت به الجهة الفرنسية عندما أدركوا بعد الهزيمة حجم الخطر والذي جاء فيه:

"إن تطهير أرض واداي شيء غير مرغوب به. فهي منطقة غير خصبة، ولا يمكن تحويلها أبدا إلى مستعمرة نافعة للأطماع الفرنسية. أما الأخبار الفرنسية اللاحقة التي تشير بالانتصار على سلطان السنوسية، فما هو إلا تابع، وليس السيد الأكبر والقوة الكُبرى للسنوسية".

ما سر القوة السياسية والروحية التي يتمتع بها السنوسية؟ كيف نشأت وانتشرت؟

---

[82] أبشي Abéché رابع أكبر مدن تشاد. كانت عاصمة سلطنة واداي في تسعينيات القرن التاسع عشر (المترجم).

تنتسب إلى السنوسية العديد من القوافل البدوية بالصحراء الليبية، والصحراء الكبرى في كل من إفريقيا وشبه الجزيرة العربية، تدعو الحركة إلى نشر لواء الجامعة الإسلامية Pan-Islamism [83] في أفريقيا الوسطى نفسها.

السنوسية هي أخوية محمدية ذات نظام صارم، تُسمى باسم مؤسسها، سيدي محمد بن علي السنوسي، الجزائري الذي توفى في ١٨٥٩. ولكن تأثيرها بدأ مع أنشطة ابنه سيدي محمد البِدر. ولد عام ١٨٤٤، وتوفى في ٣٠ مايو عام ١٩٠٢ في جيرو[*] Geru، وتحت اسم المهدي لعب دورا في شمال شرق أفريقيا، وخاصة في الصحراء. ورغم رحيله لا يعتبره البدو ميتا. على الرغم من أن اللورد كرومر وآخرون أعلنوا موته، فهو ما زال حيًا بالنسبة إليهم. يتجول في الصحراء غير مرئي على حصان أبيض، تحيطه الغزلان والظباء البيضاء، يقوم بالرحلات الطويلة، ثم يظهر فجأة بين أتباعه في أماكن ثابتة، وأحيانا في مكانين بآن واحد. في مايو ١٩٠٦ أُعلن رسميا عودة المهدي من رحلة سرية في واحة الكُفرة [84].

سابقا كان مقعد شيخ الطريقة السنوسية في مسجد ومدرسة واحة جغبوب، ولكن نُقل في ١٩٠٥ إلى واحة كُفرة، ومنذ ١٩٠٢ – منذ الموت المفترض للمهدي – نقلت إلى جيرو أو كار، الواقعة بين الكُفرة وأبشي، عاصمة واداي.

جاءت العودة إلى قواعد الإسلام البسيطة والصارمة، والمطالبة بالزهد، وتحريم التبغ والقهوة والرقص والموسيقى، طريقا لتسهيل فتوحات شيخ السنوسية في الصحراء

---

[83] حركة دينية سياسية ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر حينما تعرضت الشعوب الإسلامية للأطماع الاستعمارية. تدعو إلى تطهير الدين من البدع وضرورة مواجهة الاستعمار ومحاربة الاستبداد (المترجم).

[*] في واداي في تشاد (المحرر)

[84] حوض وواحة في منطقة الكُفرة بجنوب شرق برقة في ليبيا (المترجم).

والواحات. إن إدارة التنظيم مثيرة للإعجاب. في الصحراء الليبية، بدأوا بإرسال المبعوثين والوعّاظ من المنطقة المركزية حينها بجغبوب. ثم أنشأت الزوايا الصغيرة، ومعها دوما مدرسة ومسجد، في إقليم الساحل الشمالي الشرقي، خاصة في منطقة الجبل الأخضر وبرقة القديمة ومرمريكا. جاءت بعد ذلك الواحات والوديان الأكبر (وادي النطرون).

وكما تم السيطرة على البدو بالشمال الغربي والشرقي، تم السيطرة على العالم الزنجي على الحدود الجنوبية للصحراء العظمى. كانت تلك الصحوة هي دعوة التحرر من سيطرة أصحاب الديانات الأخرى. ولكن هذا كان ليتم بوسائل حديثة. رفض السنوسية قتل الرجل الحكيم الأوروبي ما لم يظهر عداوة (أخبروني بذلك دائما في الواحات وكذلك في زوايا الإقليم الساحلي). يحاول الشيوخ بقدر الإمكان حماية الرحّالة من السرقة، ولكن ذلك لأسباب دبلوماسية فقط. فهم يرغبون بتجنب كل أسباب الخلاف مع السلطات، خاصة التركية، التي، رغم أنها تتبع ذات الديانة، فهي تُعتبر قوة معادية، إذ حاولت مرارا السيطرة على الأخوية الجديدة، ومعها في الواقع المناطق النائية ببرقة.

إذا كنا نبحث عن سيد حاكم للصحراء فيجب أن يُعتبر سيدي المهدي، رجل منطقة جيرو في تشاد الحاضر الغائب. إن مريديه ليسوا مجددين، وليسوا على خلاف مع بقية الإسلام. فهُم يرغبون بإحياء تعاليم الإسلام. وسواء ما كانت فرصة أو هدف بعيد الأجل، فقد كانت عبقرية من المؤسس أن اتخذ زواياه الثلاثة الأولى في مكة والمدينة وجدة، ثم اتجه بعد ذلك إلى برقة وجغبوب.

يشكل الاعتقاد أن سيدي المهدي ما زال على قيد الحياة خطرا كامنا إلى الآن. سيجد السنوسية - وقائدهم الآن أحد أقارب سيدي أحمد المؤسس - فرصة يوما ما، عندما تتوافق الظروف؛ ليعاود المهدي الظهور، وقد يُرى ما يعنيه ذلك، بالتزامن مع خطر حركة الوحدة الإسلامية الأكبر.

في تصريح قاله صالح بن سيد عمر الخالدي، وهو أحد السنوسية المثقفين، الذي نشر عام ١٩٠٧ بإحدى الجرائد المصرية: "إن الممثل المؤهل الوحيد لحركة الوحدة الإسلامية هو الشيخ السنوسي." طُرد هذا الرجل من طنجة وتونس في ١٩٠٦ كمبعوث للسنوسية، وطُرد من مالطة، وهرب إلى بنغازي على أراضٍ تركية، ومنها سافر عبر جغبوب إلى برقة، وعبر منطقة أولاد علي إلى وادي النيل. أعرف أنه يشغل منصب رئيس وفد اللجنة المركزية للاتحاد الإسلامي الآن، وربما سيشتهر بشكل لا يُصدق لاحقا.

يعمل السنوسية بشكل منظم من أجل الأجيال الصاعدة، حتى بين البدو. فالشيخ الذي يلمح فتى موهوبا يوفر له الدعم المالي ليلحقه بمدرسة القرآن بإحدى الزوايا. قابلتُ بدوًا سمحوا لأبنائهم بالانضمام إلى قافلة متجهة إلى جغبوب؛ من أجل أن يقضوا عدة سنوات في مدرسة السنوسي الرئيسية بهذه الواحة النائية التي تبعُد مسيرة أسبوعين. يتم إرسال الطلبة السنوسية النبغاء أحيانا إلى أشهر جامعة للمحمديين على الإطلاق: جامعة الأزهر في مصر، وهي الأقدم في العالم، واحتفلت في ١٩٠٧ بألفيتها.

إن ظروف الحياة الصعبة والقاسية، والصراع الدائم مع الطبيعة، مجتمعين مع نقاء العِرق، تجعل ابن الصحراء في كل هذا مرتبطا بفضائل وقيم أكثر من الشرقيين الآخرين. لذا سيكون من حسن حظه أن تبقى المدنية بأفكارها الحديثة عن الأخلاق بعيدة عنه. يتزوج الفتى البدوي بعمر السابعة عشر أو الثامنة عشر إذا سمحت الظروف. أحيانا لا يتعدى عمر الزوجة الرابعة عشر أو الخامسة عشر، وبما أن النساء غير محجبات، فهي لا تكون غريبة تماما عن العريس كما يحدث في المدن والقرى.

تعدد الزوجات

يُفضل الزواج الأحادي عامة. وحيثما يُمارس تعدد الزوجات، يكون هناك أكثر من زوجتين – يسمح الإسلام بأربع زوجات - وعامة تأتي الزوجة الثانية لأسباب مادية.

ربما تجلب قطعانا جيدة، أو خياما، أو ممتلكات أخرى، أو تكون منفعة للرجل أن يتحالف مع العشيرة أو العائلة. كان لشيخ عربي مهم - وهو صديق لي - زوجتان، واحدة في مريوط، والأخرى على حدود الصحراء، حيث يعمل حارسا في عزبة الباشا. أخبرني أنه تزوج من أجل الحصول على بيت في مريوط، وليزرع هناك في البيئة المناسبة، أو ليقوم بعمليات شراء جيدة من الإبل، وكذلك ليجعل زوجته الأولى أفضل. في وقت الحاجة كان يمتطي خيله إلى الجبل، ويظهر هناك فجأة في بيته الثاني. يقول: "لم يكن الأمر أفضل مثلما تجاور الخيمتان بعضهما، فالغيرة تجعل كل منهما تتفوق على نفسها." ولكن تصادف أننا رأينا الوجه الآخر للعملة في كرم أبو مينا. جاءت الزوجة الثانية، التي لم نكن نعلم عن أمرها شيئا، لإحدى عمالنا من مسافة بعيدة بحقيبة ومتاع، وأرادت أن تنصب خيمتها بجانب خيمة ضرتها. حاولت الأخيرة منعها، وتوالت الخلافات بين المرأتين. وبما أن الزوجة التي جاءت من مسافة بعيدة تركها زوجها بدون دعم، فاضطر أن يقسم أجره، العشرة أو الاثنى عشرة شيلنج، بين الخيمتين، وبالتالى اضطرت كلتاهما إلى المعاناة، فرحلوا.



نوّار الحطية

في حالات كثيرة يبحث الشاب البدوي عن عروسه بنفسه. ثم يعود إلى البيت ويخبر عن "الفرس الأصيل الشاب" الساكن هناك في خيام إحدى القبائل، الذي يرغب في امتلاكه. أو يبحث الأب ووفقا لمعاييره عن قرينة جيدة لأحد أبنائه. نادرا ما يكون هناك رفض، وتكون معظم الزيجات سعيدة إلى حد ما.

لا تُستشار البنات بالطبع. وفقا لتعاليم محمد، فإن الزوجة مخلوق تابع يستطيع أن يتخلص منها الرجل في أى وقت بكلمة "أنتِ طالق"، ونادرا ما يفعل الزوج هذا. تعيش مع أطفالها في الحريم، الجزء المخصص للنساء في الخيمة، ويُفصل بواسطة سجادة معلقة، وهي لا تشارك في المشورة أو تناول الوجبات أو أحاديث الرجال، إذا لم

تكن تخص أقاربها. رغم ذلك فهي تعرف بسهولة كيف تؤثر على الرجال دون دراية منهم بذلك، أن تحثهم، وتُخضعهم لإرادتها. إمرأة كهذه، خاصة إذا كانت أكبر سنا وذات خبرة، فتحتل مكانة الأم الحاكمة. تصل إلى أهداف عظيمة بحزم وفخر، وكان لدينا في السنة الأولى من التنقيبات دليل على هذا عندما أرادت سيدة بدوية، تملك ثلاثة خيام وقطيع من أربعين جمل، أن تناقش مع كوفمن حقه في أن ينقّب في مدينة ميناس. كانت هذه أرض وتربة سلالتها، وهناك ترقد مقابر أجدادها. تمادت كثيرا حتى اضطر مأمور المركز، الضابط المسؤول بمريوط، أن يأتي بصحبة قوة من الشرطة وأوضح لها أن الصحراء تعود ملكيتها إلى الحكومة المصرية. أخذت المفاوضات منحنى درامي ومثير. جلس المأمور والمستكشفان على الكراسي، وجلست مطرية ذات الأربعين عاما على بساط بيننا، وبجانبها جلس الشيخ شوكان الذي رحّب بنا في مدينة ميناس. ولكن الرجل الملتحي الوسيم كان مجرد واجهة، فقد تولّت مطرية، المزينة بأساورها الفضية القيّمة وقلائدها وأوشامها الزرقاء والخضراء الجميلة، زمام الحديث. في أعماق قلوبنا اعتقدنا أن المرأة الشجاعة على حق، وأسعدنا أن القرار لم يكن لقلبينا بل لممثل الحكومة. اضطرت مطرية وأتباعها إلى نصب خيامهم على بُعد مناسب عنا، وأن يدعوا جِمالهم ترعى في مدينة المسيحية المبكرة بإذن صريح فقط. انفصلنا على وفاق تام، وعندما كانت حليم، ابنة السيدة الكبيرة، تسوق جِمالها إلى الكرم، كانت تُحضر قدرا خشبيا من لبن الإبل الطازج الثمين كهدية ترحيب. وبعد ذلك تزوجت مطرية مستشارها السابق، صديقنا شوكان.

سمح لنا طول مدة التنقيبات أن نشارك في زواج بدوي، وبما أنه يجب على الكل المشاركة فيه، فقد اضطررنا إلى التضحية بيوم عمل كامل. أُعلن عن الحدث قبلها بعدة أسابيع. أثناء فترة التحضيرات كان يتم إلقاء أحد العروض الارتجالية أمام إحدى الخيام كل ليلة، وكان يستمر إيقاع تصفيق الأيادي حتى وقت متأخر ليلا. وأخيرا جاءت ليلة الزفاف. بما أن أمطارا قد ملأت الخزانات، فقد توضأ الجميع بعناية بعدما أنهوا

عملهم. وارتدوا بعد ذلك أحسن حللهم البيضاء ونظفوا أسلحتهم. أعطى الأفنديان عدة أرطال من البارود، مقسمة بحرص، بجانب البقشيش. أطلقوا النار عند شروق الشمس في اليوم التالي، وأقام الرجال صلاتهم أمام خيامهم. كانت توجد قدور نحاسية ضخمة تغلي أمام خيمة العريس، يتم بها طبخ أرز ومخروطة، وهي نوع من العصيدة، بينما القدور الكبيرة الأخرى فكان بها لحم جاهز مطبوخ. جلس العريس، وهو أحد عمالنا ويدعى Abd el-Schuard، في حلته اللطيفة على بساطه، يشعر كأنه مركز كل شيء، وتلقى التهنئة من بدو غرباء سُمح لهم بالمجئ اليوم. جاءنا الرجل فقيرا للغاية، والآن ادخر ٤ جنيهات وخيمة. قال: "ماذا يمكنني أن أفعل بكل هذا المال؟ أريد أن أتزوج." أخذه ابن عمي في مهمة منذ عدة أسابيع، وأوضح له أنه إذا تم تسريحه، أو أن التنقيبات انتهت، فهو لا يملك شيئا، وسيعود فقيرا مع زوجته. ولكن هذا كان بلا فائدة، وأجاب دائما: "لن أتضور جوعا."

كان الاحتفال الكبير الأول هو ذبح الغنم. جلس الرجال في دائرة واسعة حول الشيخ سعداوي، الذي ذبح الغنم باسم الله، على مهل. يعتبر أولاد علي الذبح السريع علامة على القلب الشجاع، ويجب ألا تنفصل رأس الأضحية بالكامل عن الجسد. يجب أن يفقد الحيوان كل دمه. غمس أحدهم يده في الدم، وذهب إلى خيمة العريس ولطّخ وتد خيمته به. يفعل الفلاحون الأمر نفسه، ويطبعوا باليد المغموسة في الدم على الباب الخشبي للفناء.

بعد تقطيع اللحم (تؤكل حتى الأمعاء) يتم تجهيز القافلة لجلب العروس. كانت خيام قبيلتها في الصحراء، على مسافة عدة ساعات. تزينت كل الخيول والإبل. حُمل على ظهر أحد الجِمال المميزة هودج (يسمونه كرموط) مصنوع من أوتاد الخيام، ومن فوقه تدلّت الأبسطة، كخيمة مصغرة جميلة. هذا هو المكان الذي ستُحمل فوقه العروس. تجلس النساء الأقارب، ويكنّ محجبات بالكامل في هذه المناسبة، على الجِمال الأخرى،

المغطاة بسجاد ذو لون أحادي. يُطلقن الزغاريد كل حين وتكون بصوت أعلى عندما يُطلق الرجال النار، ويتوقفن فقط عندما تدخل العروس خيمة زوجها المستقبلي.

انطلق الموكب في الصحراء إلى خيمة والد العروس بصحبة البدو على ظهور الخيل وعلى أرجلهم. بدون أية احتفالات تم اصطحاب العروس في حلتها الجميلة إلى الهودج ، وجلست إلى جانبها على الجمل قريبة لها أكبر سنا. توجه الموكب خلال الصحراء المجاورة من خيمة إلى خيمة لتلقي هدايا الزفاف. في النهاية، وبعد غياب ستة ساعات، ظهرت القافلة ثانية في مدينة ميناس.

صفق ورقص الشباب والأولاد الذين جلسوا بالخلف أمام خيمة العريس، ولفّت العروس سبع مرات حول الخيمة وسط الزغاريد وصيحات البهجة. وبعد ذلك ركع الجمل، ودخلت الفتاة الخيمة مع أقاربها، وأُغلقت. استمر الشباب بالخارج في الغناء والرقص، وفي اللحظة التي خرج فيها العريس من خيمته، وأظهر للجموع أصابعه المغموسة بدم بكارة عروسه، علت الصيحات، وأُطلقت النيران، وصاح كبار السن متمنيين لهم الأمنيات السعيدة، والتي تكررت فيها باستمرار كلمات "الله جميل". اختتمت الأحداث بوليمة كبيرة. أعلن الصمت الرهيب والصوت العالي لتكسير عظام لحم الوليمة عن شعور الضيوف بالامتنان، وفي الليلة التالية اشتمت كلاب البدو الرائحة من أماكن بعيدة. أما كلابنا نحن: سيوي، وأبيض، وأمنوتب فقد أكلوا حتى الشبع وكانوا كرماء للغاية، حتى أنهم تركوا إخوانهم من كلاب البر يأتون بلا إزعاج.

وشهدنا أيضا ولادة في مدينة ميناس. أم سعد، التي، كما أشمرا من قبل، أنقذت حياة ابن عمي، أنجبت فتاة بعد عودتي من واحة سيوة بوقت قصير. سُميت بومنا، أي الأب مينا. واصلت الأم عملها الشاق في اليوم نفسه. لو كان ولدا، لأُطلقت الزغاريد وصيحات البهجة. للزيت دور هام في عملية الولادة، وتظل الأم واقفة، خوفا من الموت لو أنها استلقت.

وفقا للتأكيدات فإن حوادث الإجهاض قليلة للغاية. يُلف المولود بالأقمطة، ويتم اختيار الاسم فورا، والذي غالبا ما يكون متوارثا في العائلة. يُحضر البعض ممن يأتون للتهنئة عملات معدنية كهدية للمولود الجديد. في الأيام الثلاثة الأولى، يوضع بجانب المولود الملح والخبز حماية له من الشيطان والأرواح الشريرة. وإذا كان يبكي كثيرا فيتم كتابة حجاب له. فوجئتُ كثيرا بعادة أولاد علي وكذلك في وادي النيل بإرضاع الأطفال حتى سن عامين أو ثلاثة.

على عكس الفلاحين، فإن بنات البدو لا تُختّن، وكذلك الأولاد حتى يُتموا عامهم الرابع عشر أو الخامس عشر. من عامه السادس، لا يعيش الصبي في الخيام فقط، بل يعمل راعيًا. القليل من الرجال بالصحراء يعرفون جيدا كيف يعتنون بالجِمال كصبيان الفلاحين الصغار العراة الذين يعتنون بالجاموس الوحشي البري.

طقوس الموت

كنا ممتنين دائما أنه رغم كل المخاطر المرتبطة بأعمال التنقيبات، لم يأتِنا الموت أثناء أعمالنا في مدينة القديس ميناس. سمعنا مرارا بالجوار صرخة الموت البدوية الرهيبة عند وفاة أحد أحبائهم. فهُم يبدؤونها من قبل أن تحدث الوفاة. وتبلغ ذروتها بعد الوفاة وأثناء الدفن، وتُسمع كل ليلة لمدة أسبوع في ذكرى الشخص المتوفى. بعد الوفاة يغسل الأقارب الجثة ويسدّوا كل فتحات الجثة بصوف جمل أو غنم، أو قطع أقمشة، أو حتى بأعشاب. ثم تُلف الجثة في القماش، ويملك البدو الأترف أحيانا كفنا أخضر اللون، يلفونه فيه كالمومياء. تُقام الجنازة في اليوم التالي للوفاة، وإذا أمكن تُدفن الجثة حيث يرقد أجدادها، وغالبا ما يكون على تل بمسار القوافل. تتميز قبور الشيوخ والرجال البارزين بأن تكون على ارتفاع. وُجدت قبور بعض الشيوخ شرق معبد ميناس، فوق نهاية الخورس بكاتدرائية الإمبراطور أركاديوس العظيمة. تجنبنا هذه المنطقة، خاصة بالقرب من المكان الذي ما زال يعيش به أقارب المتوفى.

يصحب الجثة، المحمولة في نعش بدائي، كل جيران الخيمة والأصدقاء، مرددين جملة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" في نغمة متكررة. يحمل الأصدقاء النعش، يتبعهم الرجال، وخلفهم تسير النساء، اللاتي يلوحن بمناديل رؤوسهن السوداء الشفافة باتجاه النعش، ويُطلقن صرخات عويلهن. لا يكون القبر عميقا للغاية، ويجب أن يتجه وجه المتوفى شرقا. يعتقد أولاد علي أن المسلمين وحدهم يُدفنوا بهذه الطريقة، وأن أجساد المسيحيين تُدفن والوجوه موجهة إلى الأرض. يُغطى القبر بالتراب، وتُغطى التلال المنخفضة بأثقل الأحجار المتاحة؛ لإبعاد الضباع وحيوان ابن آوى. تُفضل مناطق الأنقاض بشكل خاص كمدافن وذلك لوجود الأحجار. أحيانا يُنقش الرمز أو شارة القبيلة على أحد الأحجار. تندُر الكتابات المنقوشة على قبور البدو. وجدنا بعض الكتابات المنقوشة على ضريح عبد بدوي من فزان مدفون في مدينة ميناس.

بعد الدفن يتوضأ كل من لمس المتوفى ثم تُقام وليمة الجنازة، التي تتكون من الأرز، والمخروطة، ولحم الضأن. في الفجر تكوّن النساء نصف دائرة أمام خيمة المتوفى – ولو كانت له زوجتان، فيُقام أمام الخيمتين - ويبدأن في النحيب، ويذكرن فضائله بين الحين والآخر. في الليلة السابعة تُختم الطقوس بوليمة جنائزية أخرى.

من بين الأعراف والقوانين غير المكتوبة للصحراء، وهي قديمة قِدم الإنجيل، يحتل عُرف الضيافة، وعُرف الثأر المكانة الرئيسية. إن الضيافة من البدوي تجاه البدوي، وإن كان عدوا، شيئا إلزاميا. وتتضمن أيضا من يأتي ليلا، وعابر السبيل بالإضافة إلى من بدت عليه مظاهر الفقر. لو مرّ أي شخص بخيمة في وقت العشاء، فتدعوه جملة "اتفضل، اتفضل!" للبقاء وتناول العشاء. وسيعتبر الرفض إهانة. يُطبق قانون الضيافة على الأجنبي أيضا، وعلى الأوروبي، ولكن عندما يكون الشخص مجهولا وتبدو عليه علامات التمدن، تكون تلك الدعوة مصحوبة بشكٍ قوي نحوه. يتوقع البدوي بالمقابل

هدايا صغيرة من الشخص الأوروبي. ومن أشهر عبارات الكياسة والمجاملات الشرقية: "هذه الخيمة هي بيتك" "أنا خادمك" "خذ زوجتي وبناتي وأولادي".

على مدار ثلاثة أعوام وطأت مختلف المناطق والقطاعات، وتعاملت مع أكثر القبائل اختلافا في شمال غرب مصر، ولم أجد أبدا من يتجاهل قانون الضيافة. يقدم البدوي الفقير لبنا أو خبزا أو ماءً. تباهى البدو الأثرياء بجعلي، بمجرد وصولي، أختار الغنم الأفضل من القطيع؛ ليُذبح بحضوري، وليقولوا: "إنه ملكك يا أفندي".

يسري قانون ثأر الدم بالدم بقوة في الصحراء، رغم قبول بعض التنازلات بين أولاد علي، بعد تقبل دفع الفدية مقابل الدم أكثر مما مضى. على سبيل المثال: قتل بدوي من مريوط بدويا آخر أثناء أحد النزاعات. فر القاتل من القرية إلى برقة، حيث يجد بدو برقة الأراضي المصرية ملاذا آمنا من أعدائه. يُعقد مجلس "المعاد"، ويُرسل إليه كلٌ من الطرفين ممثليهم. بالنهاية يتم الاتفاق على مبلغ كبير من المال كفدية. وغالبا ما يكون كبيرا حتى أن القبيلة بأكملها يجب أن تشارك من أجل تحصيل المئتين جنيه مصري وأكثر.

أثناء التنقيبات الأُثرية كان هناك حالات لم يكن ليعيد الضحية أي مال بالعالم. ذات مرة أثناء أحد العروض الارتجالية بزفاف في هوارة[85]، قُتل العريس أثناء إطلاق رصاصات التحية والبهجة. فر القاتل إلى وادي النيل، ولكنه سقط في أيدي الشرطة المصرية، وحُكم عليه بالسجن ١٨ عاما. أُخذ إلى السودان ليقضي عقوبته؛ لأن خطر الثأر كان قائما. ولكن شقيق المقتول حصل على مبتغاه بإطلاق النار على شقيق السجين، وتم شنقه. من الجدير بالملاحظة أن الثأر أيضا يكون قويا عندما يتعلق الأمر بالفتيات. من جهة أخرى، رأيت حالتين تم فيهما قتل الفتيات بسبب تخطيهن أعراف الشرف.

---

[85] إحدى قبائل أولاد علي، متفرعة من قبيلة المرابطين (المترجم).

مررنا أحيانا بمواقف صعبة مع البدو، وتزايد الشك فينا بالزيارات المتكررة لدوريات الضباط الفرسان، الذين جاءوا فقط للاطمئنان على سلامتنا، ولكنها كانت عبئا علينا. بالطبع تعلمنا الكثير الذي ما كنا لنلجأ إليه لولا الخطر الكبير للحفاظ على حياتنا، فقد وظفنا في العمل معنا أحيانا هاربين ومجرمين، اكتشفنا فيما بعد جرائمهم، التي أرعبتنا كثيرا كمبارزة بالأسلحة في بلدنا. تعقدت الأمور بين الحين والآخر. في أحد الأيام جاءتنا امرأة تبكي وتطلب المساعدة لأن زوجها قُتل. قتله ابنه بسبب علاقة غرامية، وكان الابن عاملا لدينا. لقد هرب بالجثة. تم إبلاغ شرطة مريوط وبحثت الدوريات في كل مكان يشتبه ارتكاب الجريمة فيه، على بُعد ساعة من مباني التنقيبات؛ لإيجاد الجثة التي خبأها الابن. وبما أنه لن يتقدم أي بدوي للشهادة، فقد كانت جثة الوالد هي الدليل الوحيد. استمر البحث في اتجاه معاكس تماما، في أبو مخلوف، حيث بدأت نظريتي بأن الابن ربما ألقى بالجثة في أحد الخزانات القديمة الموجودة على قمة التلال بغرب مدينة ميناس. في الواقع، لقد أعطت بعض شجيرات المثنان دليلا، ووُجدت الجثة في أبو مخلوف، مدفونة في الرمال. هرب القاتل الشاب إلى وادي النيل، وبذلك أنقذ حياته. تذكر هوبكنسن باشا، رئيس الشرطة، صورة مجموعة العمال لدينا، والتي رآها في إحدى زياراته لمباني التنقيب، وسأل ما إذا كان الهارب موجودا فيها. لقد كان موجودا، على الأقل رأسه وصدره. تم تكبير الصورة، وأدى ذلك إلى الإمساك به. وتم شنقه في النهاية.

بين أولاد علي وكذلك بقية بدو الصحراء الليبية، فإن تطبيق العدالة مسئولية المعاد، أي مجلس الكبار. في مجلس معاد العائلة، وكذلك في مجلس معاد القبيلة، يُعتبر الأكبر سنا والأكثر تقديرا هم الأكثر عدلا وموضوعية. يجتمع الرجال في خيمة، ويُفتتح الحديث بالشاي أو بالقهوة. يبدأ كل طرف في طرح الأمر أمام رئيس المعاد. ينفجر المعارضون غضبا بالطبع، مهددين بعضهم البعض، ويصرخوا صرخات مرعبة. وبعد ذلك يتفوه أحد الكبار مقاطعا إياهم تلك الكلمات الساحرة: "صلّوا على النبي" ثم تهدأ موجات

الغضب والهياج. ويكون الرد: "ألف صلاة." يتكرر هذا لعدة ساعات، بل ليوم كامل تقريبا. شاركت عدة مرات في مجلس معاد، غالبا بالصدفة، عندما كنت أمر بخيام أعلم ساكنيها أثناء رحلة بالصحراء. لابد أن يكون الأفندي الذي تُنسب إليه الحكمة الشديدة، حكما عادلا موضوعيا، وهو الإجراء الذي ساعد فقط في التهدئة وشُرب الشاي. أحيانا كانت تعم حالة من الهدوء جراء مناقشة الأمر بوضوح، وإيضاح أن الحق أو الخطأ يقع على هذا الطرف أو ذاك. ولكن في أحيان كثيرة كان سؤالا غبيا، أو وصول أحدهم بشكل مفاجئ، يهدم كل النقاش ثانية، وبذلك كان الأمر لا ينتهي. كان تدخل المعاد يعتبر محاولة لمنع الحرب بين العشائر والقبائل ولبسط السلام بينهم.

لو وقع خلاف بالقرب من مدينة ميناس، كان يتم إجبار العمال بصعوبة على ألا تميل إلى أيٍ من الأطراف. اضطررنا أن ندع من العمال من كان ينتمي لأي من الأطراف المتورطة. بما أن البدو علموا أننا لا نميل إلى أيٍ من الأطراف، وأنه طالما لا يعرقل طريقنا شيء فإننا لا نبلغ السلطات المصرية، في الوقت ذاته يبحث المصاب عن المساعدة في قصر أبو مينا. في أوقات القلق والاضطراب، كنا نجعل العمال يسلّمون أسلحتهم وذخائرهم. احترم كل الأشخاص المسئولين الإجراءات الحازمة والعادلة لرئيس التنقيبات، واعتادوا أن يمدحوه قائلين: "كلام الأفندي الكبير مثل القرآن".

عندما تتخطى باروفة مجلس المعاد، يكون لها سلطة وتأثير بعدما تحرز انتصارا حاسما، إلا أنه مؤقتا. لم تكن الأسلحة خطرة للغاية، إذ نادرا ما يملك البدو ذخيرة كثيرة، ويستخدمون البنادق القديمة، أو الحراب الطويلة الرفيعة. أما أولئك الذين لا يملكون أسلحة أو ذخيرة، فإنهم يستخدمون النبوت أو الهبل. والنبوت هو عصا سميكة أو هراوة في طول الإنسان، والهبل هو هراوة تتدلى على الذراع بواسطة حبل أو سلسلة. تُنقش الصور والكتابات على هذه الأسلحة. تؤذن صرخة الحرب المدوية ببداية القتال، الذي يبدأ عادة برمي الحجارة. في خلافات القبيلة والنزاعات العائلية، عادة ما تكون

النساء هن من يهجمن على الرجال، حتى أن النساء بأنفسهن أحيانا يلتقطن الأسلحة، وبشجاعة الحروب ينطلقن إلى العدو. تثير صرخات تلك النسوة السُمر في كسوتهن الفضفاضة بشكل واسع هياج المقاتلين في كلا الجانبين.

انتفعت الشرطة بذكاء كبير من جمعية المعاد في منطقة الساحل، وعندما لا يكون الأمر متعلقا بشأن جريمة كبيرة، فإنهم يُسلمون الشخص المعني لمجلس معاد بدوي.

غالبا ما أدت سرقة الإبل وتهريب الحشيش إلى مواجهات حادة عندما يتم التعرف على اللصوص، أو عند الإمساك بقافلة المهربين. إن معظم المهربين يونانيين، يحملون البضاعة المهربة بالقوارب الشراعية الصغيرة من اليونان، ويرسون على شواطئ مرمريكا، ويستخدمون البدو في تسليمها. فهم يختارون الليالي المظلمة لعملية النقل إلى وادي النيل، لأن حينها لا يستطيع جنود خفر السواحل الفرسان السُمر المصريين المخاطرة بدخول الصحراء. يُعبأ الحشيش في أكياس صغيرة مضادة للماء، غارقة في البحر، ويميزها - لمن يعرف الشاطئ - عوامة خشبية حمراء، أو ما يشبه ذلك. إن مرشدي التهريب خلال الصحراء هم البدو: غالبا ما يسافروا كأزواج، ويكونوا مسلحين جيدا. يتقدمون قافلة المهربين بمسافة نصف يوم من أجل تأمين الطريق. كانت فتحات مدينة ميناس هي أفضل أماكن التخبئة لديهم سابقا، ولكنها دُمرت أثناء التنقيبات. كانت قوافل الحشيش عبارة عن ثلاثة جِمال غالبا، يقودها عدة أولاد. كانت الحيوانات محملة بأكياس صغيرة، لكي يتمكن الأولاد من إخفائها أو رميها بعيدا في أية لحظة. كانوا يسيرون ليلا فقط، وبذلك يجازف المهربون مجازفة صغيرة، ومكسبا ذهبيا مضمونا لكل المشاركين بالعملية.

سأتحدث هنا قليلا عن الرقيق، وهو الشيء الذي لاحظته مصادفة في عدة أماكن. رغم أن كل رقيق أولاد علي تقريبا أحرار الآن، فهم يفضلون البقاء مع أسيادهم، ويُعاملوا كأفراد من العائلة. ما زال الرقيق موجودين في المناطق النائية وخاصة في

الواحات. تستمر تجارة الرقيق بشكل مفتوح فقط في شمال مصر، في واحة جغبوب. فالرقيق من السلع الضرورية في السوق التركية، رغم أن هذا الأمر يمكن استنكاره رسميا. يبدأ سعر الفتاة أو الفتى بين الثانية عشر والعشرين من العمر من ٤ جنيهات فأكثر. تُعتبر واداي وباقِرمي[86] هما المصدرين الأصليين لتلك البضاعة البشرية.

تُعتبر واحة كُفرة مكانا يرتبط بقوافل الرقيق. فهي منطقة مركزية لشيوخ السنوسي، الذين يحتفظون هناك بترسانة كاملة من الذخيرة والأسلحة الحديثة في قلب الصحراء. تأتي السفن التركية ليلا على شواطئ طرابلس، عادة مرة واحدة شهريا، لأخذ أفضل الرقيق إلى مقصدهم.

[86] سلطنة أو مملكة باقرمي (١٥٢٢ – ١٨٩٧) مملكة إسلامية تقع إلى الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد بأفريقيا الوسطى(المترجم).

الفصل العاشر

البدوي والفلاح

استصلاح الصحراء

في عام ١٩٠٩ طرح رولاند سنيلينج، رئيس تحرير صحيفة الإيجبشين جازيت، مسألة استصلاح الصحراء الليبية. كان قد قام بزيارة مدينة ميناس والصحراء الغربية، وتلقى بعد ذلك دعوة من مؤسسة مصر الغربية لزيارة "الواحة العظيمة"، ونشر نتائج رحلته في مقال بصحيفته أطلق عليه عنوان "الشقاف الأثرية Ostraka[87] ". ويعني هذا الاسم كسر الألواح الطينية المنقوشة، والتي عُثر عليها في أكوام أنقاض وادي النيل، التي تمدنا، مع البرديات التي تم اكتشافها، بمجموعة من الأعمال الخاصة بتاريخ الحضارة المصرية القديمة.

تعامل رولاند سنيلينج مع الألواح المنقوشة الموجودة بمدينة ميناس التي تعود للقرن الخامس. كانت تلك هي الألواح المنقوشة الأقدم التي تعود لعصر المسيحية باللغة اليونانية، ومن بين أشياء أخرى فقد سلطت محتوياتها الضوء على زراعة الكروم في حقول دير ميناس وجاء فيها معلومات عن:

- ملاك الأراضي والعاملون في حقول العنب والمحصول والأجور والمرضى من العمال

- تقسيمات رجال الدين المسيحي بالدير

- نخيل جوز الهند، وهي الشجرة المجهولة تقريبا الآن في شمال مصر، وقد تكون معاصر النبيذ التي وجدناها في كشوفاتنا الأثرية وثيقة الصلة بهذه الأوامر والخطابات والوصفات، التي نجحنا في فك جزء صغير من شفرتها.

---

[87] Ostraca قطع رقاق من الحجر الأبيض أو الشقف الفخاري اتخذها المصريون القدماء (ومن تلاهم من العصرين اليوناني والروماني) ألواحًا للكتابة والرسم عليها بمداد (المترجم).

- وفي أعمق طبقات الخزانات تم العثور على دليل آخر من خشب نخيل التمر، وبقايا أعمدة الكروم يبلغ سمكها نحو المتر.

وبناء على ما لاحظناه خلال فترة عملنا هنا يمكن اليوم إعادة شمال صحراء أولاد علي بأكمله إلى حالته المزدهرة التي كان عليها قديما، وفي الحقيقة يكون ذلك باستخدام البنى الأساسية القديمة، كالتي وجدناها في خزانات مياه مدينة ميناس، والتي تكفي لزراعة حدائق مثمرة، وأرض صالحة للزراعة ممتدة المساحة، فضلا عن قنوات الري التي قد تكون ما تزال منتشرة في عمق الصحراء.

حاولت شركة أراضي مصرية إنشاء مستعمرة زراعية كبيرة في الحمَّام أثناء التنقيبات بمريوط، وأسكنت هناك يهودا من روسيا. زرت المستعمرة مرارا، وأسجل هنا آراء البدو الذين رافقوني: "الأفندي الكبير (ابن عمي) لم يكن ليوظف هؤلاء أسبوعا في بومنا". كانت سوء الإدارة هي ملخص ما يحدث هناك، ولكن على أية حال يمكن جني الكثير بالحمَّام، وبالسهل المحيط إذا تم إحضار عمال أقل مهارة، ولكن أكثر اعتيادا على المناخ، وإذا تحسّنت أحوال المياه. طالما لم تُحفر قنوات المياه العذبة، فيجب الاعتماد على الخزانات، والأحواض الكبيرة للاحتفاظ بمياه الأمطار السنوية. يجب الاعتراف بالتقدم بهذا الاتجاه، ولكنه تقدم ضئيل. ويجب كذلك وضع التكلفة العالية بعين الاعتبار. إن التربة بالطبع ليست مناسبة لما يُطلق عليه اسم زراعة كبرى، أي زراعة القطن والأرز وقصب السكر. ولكن هذا كله ازدهر هناك في العصور القديمة، فقد نما النخيل وأشجار الفاكهة والكروم والشعير، ومن بين محاصيل أخرى نما في مدينة ميناس شجر الخروب واللوز. زرع البدو الشعير بشكل متناثر في وديان المنطقة المطيرة.

من أجل الحصول على علف للجِمال والخيول، قمنا بمحاولة وزرعنا شعير في السهل، في أرض الحديقة القديمة بمدينة ميناس، التي تم حرثها بالطريقة البدوية بمحراث الجمل الخفيف. على الرغم من أن ١٩٠٧ لم يكن عاما جيدا، فقد حصدنا البذور المزروعة ثماني مرات. والشعير في أفضل حالاته نادرا ما يتجاوز طوله ٤٠ إلى ٥٠ سم في الصحراء. يحصده البدو بأيديهم، يكسرون الساق ويطحنوه بطريقة بدائية باستخدام عصا.

أثناء التنقيبات، عندما توجه اهتمام المصريين بقوة نحو الصحراء بالشمال الغربي، فحص الخبراء الزراعيون أرض مريوط تحت إدارة سيموند بيك Simond Bey وليوبولد جولين Leopold Jullien، وأعلنوا أنه بدون نظام ري ممتد، أي بدون مساعدة الحكومة، فلن يكون ممكنا سوى الزراعات الصغيرة المتناثرة. وذلك يعني أنهم لم يكن لديهم أدنى فكرة عن مهارة البدو العاملين، فيجب أن تشرف اليد الأوروبية على الحرث، وجدير بالذكر أنهم اعتبروا الفلاح غير مناسب للزراعة الصغيرة بالشمال الغربي. حُكم على المشاريع الأكبر بالفشل مسبقا.

بالطبع سيكشف انفتاح البلد أيضا عن الموارد المعدنية. أمدت محاجر جبل الباطن الأسكندرية لفترة طويلة بمواد البناء القابلة للاستعمال، وبها كنز مخفي أثبت وجوده بطبقة من الجبس تم اكتشافها قرب مدينة ميناس بالغربانيات. كان هذا معروفا في العصور القديمة. في الوقت ذاته بدأت شركة مباني بالأسكندرية في العمل عليه: فهو أمر بسيط، حيث يوجد الجبس المعروف بالجبس القبرصي Cyprus gypsum على بُعد بسيط من سطح الأرض، ويظهر في الحقيقة فوق السطح في بعض الأماكن، وبسُمك نحو أربعة أمتار سيوفر إنتاجا سنويا يزن أكثر من مليون طن من المادة الخام. إذا اعتبرنا أن جزيرة قبرص كان لديها، إذا جاز التعبير، احتكار الجبس

لمصر[88]، فقد عرفنا أهمية هذا الاكتشاف، ومصدر الربح المتزايد لخط السكة الحديد الخديوي بالصحراء بوضوح.

يزرع بدوي أولاد علي لسد احتياجاته واحتياجات حيواناته فقط. يسعى خلف مكسبه في شراء وبيع الحيوانات، وفي زيادة قطعانه. يمكن إحصاء المبالغ التي يكسبها، إذ أن الشاه التي تُباع في برقة ومرمريكا مقابل ثمانية شلنجات، وخارج بوابات الأسكندرية وفي الأسواق البدوية ببهيج والعامرية، تبعا للموسم، فتجلب الضعف أو الثلاثة أضعاف (ستون إلى أربع وعشرون شلنج)، وهو السعر المصري الطبيعي.

عرفت رجلا بدويا فقيرا جلبت له براعته التجارية مكسبا كبيرا. يجلس منتظرا على المسار الرئيسي للقوافل لدرب الحاج لقوافل برقة، ليس لمهاجمتهم – وهو أمر نادر حدوثه في إقليم مريوط، خاصة بالقرب من الساحل - ولكن من أجل شراء الإبل المتعبة مقابل مبلغ ضئيل. بالطبع تتخلى القوافل عن تلك الجمال فقط لأنها لا تستطيع تحمل بضعة أيام أخرى في السفر، ويشعر مالكهم بالسعادة للحصول على جنيهين أو ثلاثة مقابلهم. يحصل البدوي على تلك الجمال بأموال مقترضة، يُطعمهم لمدة شهر على الشعير والتبن المطحون، ثم يتركهم طلقاء يعدون في الحطية، يطعموا ويستريحوا، وبعد ذلك يبعيهم في السوق الكبير مقابل خمسة أو ستة أضعاف الثمن الذي اشتراهم به. إن تربية الإبل مربحة للغاية، لأنها نادرا ما تحتاج إلى أية مصاريف. يسير العديد من البدو الذين يملكون على الأقل جملا واحدا بصحة جيدة إلى الدلتا في موسم حصاد القطن ويقومون بتوظيف الحيوان، وهي العملية التي تُدر نحو ثلاثة شلنجات يوميا لعدة أسابيع. يعودون للمنزل بمبلغ من المال يكفيهم لفترة طويلة. يدخل البدو أيضا في معاملات تجارية وزراعية مباشرة مع الفلاحين.

---

[88] ٢٠٤٩٤ طن في عام ١٩٠٨ (المؤلف).

لا يوجد تناقض أكبر من ذلك الموجود بين الفلاح، الذي تم اضطهاده عدة قرون، وإجباره على الزراعة، وكانت معاناته أصعب وأشق من العبد، وحياته أقل قيمة من بقرة، وابن الصحراء الحر بعينيه الآمرتين، وإيمانه غير المحدود بنفسه. برغم ذلك فقد تحسّنت أوضاع الفلاح بقدوم الإنجليز لوادي النيل، ولكن يظل ذلك التناقض واضحا، ويكون أكثر لفتا للانتباه على الحدود الغربية لدلتا النيل.

بما أن صحراء أولاد علي مسطحة في أجزاء كبيرة منها، فهناك فرصة أكبر بجعلها صالحة للزراعة ثانية. إنما هي فقط مسألة الحصول على قطرة من نهر النيل، مصدر كل نعمة بمصر. في القرن الأول من عصرنا كتب روفوس Rufus من إفسوس Ephesus[89] أنه لا يوجد ماء نهر صالحة للشرب بدون تطهير - لقد قال غليان بالطبع - عدا ماء النيل. وهذا ما أكّده العلم المعاصر. فطمي النيل، الذي يعمل كمصفاة له، عندما يُجلب إلى الصحراء يحولها إلى جنة عدن. كان يتم الاستفادة بالغمر السنوي للنيل، الذي يزيد بفعل فيضانات هضبة الحبشة والأمطار المتدفقة من أفريقيا الاستوائية؛ بسبب الاحتفاظ بالماء الفائض في السدود، وكان يتم تصريفها بشكل ممنهج. تسمح الخزانات العملاقة بالقاهرة وأسوان وأسيوط وقليوب بأن يتم توزيع القطرات الثمينة من بحر الطمي حتى تُروى أراضي الدلتا بالقنوات متعددة الفروع ليس في الشهور التي تقل بها الماء فقط – من شهر مارس إلى شهر يوليو – وهو ما كان مستحيلا في العصور القديمة من خلال الوضع المنخفض السابق للنيل، ولكن يمكن مدّ أصغر القنوات إلى الصحراء. وهكذا جعلت ملايين الأميال المربعة من الأرض صالحة للزراعة، ويتم حصادها كل عام.

---

[89] مدينة إغريقية قديمة في الأناضول، على ساحل مدينة إيونية – المطلة على بحر إيجة - على بُعد ٣ كم جنوب غرب بلدة سلجوق بمقاطعة إزمير في تركيا (المترجم).

ذات يوم ستضع الحكومة يدها على أرض مفتوحة: حطية أو صحراء، وستتدخل السلطات وتحافظ على الحق الشرعي للمالك، وإذا تمكنت أي قبيلة من إثبات حقوق ملكية قديمة، فحينها يمكن تعويضها بالأموال. إلى ذلك الحين، فالأرض بلا قيمة. فإذا تم إنفاق ٣ أو ٤ أو ٥ جنيهات مقابل فدان، فهذا مبلغ كبير مقابل أرض بلا قيمة. بعدها بسنة تبدأ شبكة من مصارف المياه عن طريق حفر خنادق صغيرة تتقارب شبكتها أكثر فأكثر. ما على البيك أو الشركة التي اشترت الأرض سوى الانتظار لتتصل بالقناة المجاورة ليتدفق الذهب في المجاري. تجني الشركة نصف الأرباح. يتم زراعة القطن والأرز والذرة، ويرعاها فلاحون يملكون الماشية والأدوات ويتقاضون خُمس المحصول أجرًا لهم. يُعرض الباقي للبيع، مقابل ١٥ إلى ٤٠ جنيه للفدان، تبعا لجودته، وقربه من المياه. يتحول المالك إلى باشا مليونير في غضون عشر سنوات، بفرض أنه ليس سمسارا فقيرا، ولكن الفلاحين يكدّوا ويتعبوا من أجل البيك أو "شركتهم"، ويرى البدو متعجبين ما تنتجه تلك الأرض.

يلعب البدو دورا مضاعفا في قرى الفلاحين المبنية من طمي النيل. يعيشون على حافة الصحراء في تلك القرى بأعداد كبيرة، ويعملون بالزراعة بأنفسهم، إن عشرة من العرب يساوون قرية من ٥٠ فلاح. فهم يعيشون منفصلين تماما عن بعضهم، فالبدو في الخيام، والفلاحين في دورهم. حتى في قرى الفلاحين فقط يرى الزائر خيمة بدوية واحدة على الأقل، بعيدة في الغالب بحيث يمكن رؤية الطريق الوحيد المؤدي إليها منها. وهي خيمة الغفير (الشرطة المحلية) وهي مكتب ملئ بالبدو من جميع أنحاء المنطقة الحدودية، وحتى تحت المزارعين الكبار، والشركات، أو الحكومة نفسها. تتكون أجورهم، تبعا للظروف، من مبلغ ضئيل يقدّر بجنيه أو جنيهان شهريا، أو حصة من المحصول الزراعي.

تفسر حقيقة أن الجزء الغربي بأكمله من محافظة البحيرة التي تمتد من ذراع النيل رشيد إلى الصحراء الليبية، وبلدتها الرئيسية هي بلدة حورس القديمة" تيم إن هور Time en-Hor أو "دمنهور"، وهي مدينة رائعة. تتكون الأرض هنا من أرض صحراوية مستصلحة، تُفسر أعداد البدو الكبيرة الموجودة هناك، والبعض منهم مستقر، والآخرون مقيمون بشكل جزئي. إن انعدام الأمن بالبحيرة مشكلة مؤرقة تمثل مصدر قلق كبير للحكومة. يغذي المزج بين العنصرين: البدو والفلاحين، حالة انعدام الأمن بلا أدنى شك. إذ قارنت أغاني الفلاحين مريوط بالجحيم، التي يُساق إليها الكافر، وأرض البحيرة بالمقابل هي جنة "سيدنا يوسف". ولكن نار مريوط هي جنة البدوي، الذي أعطاه ذكاؤه بجانب حريته السياسية اليد العليا في كل مكان على الفلاح. على الرغم من اعتناء البدوي بحماية الحدود، إلا أنه يمثل مصدر قلق للفلاح، وكذلك للحكومة، التي تفقد كثيرا من هيبتها من خلال مواصلة أعمال التجنيد. يُستثنى البدوي من الخدمة العسكرية والضرائب، ويمتد هذا الاستثناء إلى أطفال الزيجات المختلطة، حيث يدخلهم شيوخ مسئولين حكوميين ضمن لوائح القبائل مقابل رشوة مالية. يجب عمل تحقيقات مرهقة، وإذا جندت الحكومة الشباب بالقوة، فإنهم يفرّون إلى الصحراء. أما الفلاح غير الحر، فيرى ذلك حاسدا، ولكن في الوقت ذاته عاجزا؛ لأنه لا يجرؤ على عدم الإدلاء بالمعلومات خشية أن يصير ابن بلده البدوي وقبيلته بأكملها ضده. ولذلك فإن البدوي في غرب الدلتا بأكمله هو سيد الموقف. نادرا وفي ظروف خاصة فقط تتجرأ الشرطة على دخول قرى الفلاحين النائية، التي بسبب شبكة القنوات الكثيفة يمكن دخولها فقط عن طريق ممرات دائرية ملتوية، ولعدة أشهر أثناء ري نبتات القطن ترتفع كقرى خضراء من بحيرة عظيمة، وتتصل فقط عن طريق سدود القنوات. يعتبر كل من الفلاح والبدوي الحكومة عدوهما المشترك. تُعقد النزاعات الحقيقية في جلسات المعاد بقدر المستطاع،

ولكن لا شيء يمنع بدو أولاد علي من تطبيق قانون الانتقام الخاص بهم في تلك المناطق.

وبجانب العدو المشترك، فلدى كل من الجانبين مصلحة مشتركة: حماية ممتلكاتهم والقطن، الذي يساوي وزنه ذهبا أثناء أسابيع الحصاد الطويلة، والوصول المنضبط للماء. يعتمد نجاح عمل أشهر عديدة على الشهر الأخير، فإذا أخطأ المهندسون أو مساعدوهم بأي منطقة في الدلتا، تختل الخصوبة المطلوبة للتربة بالطمي، ويصبح كل شيء مهددا. وحينها إما يكون خطأ "المهندس" الذي تلقى رشوة، أو أن خلافا وقع بين الفلاحين والبدو. تخوض قرية واحدة حروبا عدة من أجل امتيازات مياههم. ولكن بفضل إشراف الإنجليز، فإن الظروف تتحسن، وحيثما يؤدي النظام إلى الظلم والتمييز فإن الأمر يكون فقط مع الموظفين المساعدين الفاسدين. ستكون تلك الإصلاحات - المرتبطة بحفر قنوات جديدة، بغض النظر عن صيانة الأرض المجهزة بالفعل - مهمة البلاد لفترة طويلة قادمة. يجب ألا ننسى أن عصرنا، بكل مظاهر تمدنه، يقف بعيدا متأخرا عن عصر القدماء. من الذي يفكر الآن في مبنى قناة عملاقة تصل بين النيل المركزي مرورا بمنتصف الصحراء إلى البحر الأحمر، كما خطط له الفراعنة! ومن الذي تذكر قنوات المياه العذبة التي تملأها "الدموع التي ذرفتها إيزيس حزنا على زوجها" والتي بُنيت على أساسات قديمة أو تم حفرها بطرق مشابهة. أتذكر قناة المياه العذبة والتي يبلغ عمقها ٤٥ مترا وتصل بوباسطيس[90] بالبحيرات المالحة الشرقية، وبذلك خصّبت أرض جاسان، التي استغرق قطعها، وفقا لهيرودوت، أربعة أيام. بُنيت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أتذكر أيضا قناة يوسف، التي أطلق عليها اسم بحر يوسف، ويبلغ طولها نحو ٢٠٧ ميل، تمتد شمالا من أسيوط إلى الصحراء الليبية، وتتفتح "أرض الأزهار" الرائعة: واحة الفيوم. وهناك

[90] تل بسطه حاليا. (المحرر)

ينمو البرتقال والزيتون والخوخ والتين، وينمو الأرز والسكر كما كان حالهما منذ آلاف السنوات، ذات الثمار التي نمت يوما في الواحة الرملية بصحراء أولاد علي.

رأينا كيف أن تطور المدنية، على الأقل في المنطقة الغربية من الدلتا، لا يُبعد البدو تماما. ولكنه للأسف، من جهة أخرى، يؤدي إلى تحسن بطئ في وضع الفلاح. فقانون عمله ما زال كما هو، على الرغم من أن الضرائب أصبحت منضبطة، وحصته من الأرباح أصبحت أكثر ثباتا. ولكن الفلاح لم يعِ بعد بشكل كافٍ كيفية الحصول على الثروة من المنبع. فقد هالتني رؤية كيف أن أرباح أغني محصول تتبدد، كيف أن انعدام الثقة المؤصلة - وجزء منها لاعتبارات دينية - في البنوك، في تأمين المال الذي تم جنيُه، يزيد بدلا من أن يقل. يشتري البدوي قطعانا بذهبه، أما الفلاح فيدفنه في جرّة، وقد ينسى موضع دفنها، أو يموت ولا يدري أحد عن مكانها. وكما كان دوما فهو يعتمد على رئيسه أو شركته التي تملك البيت والماشية وكل شيء وبإمكانها طرده في أية لحظة. عندما تساعد الناس بعضها ماليا، فيجب أن تجمعهم مصلحة عظيمة. فتتضاعف قيمة الجنيه[91] في سنة واحدة. فهم يقترضون الذرة ومؤن أخرى، يُقرضون المال على أمل الحصاد الجيد، وبذلك يضيقوا الخناق على أنفسهم.

[91] العملة البريطانية (المترجم).


"هذا الكتاب
رواية جانبية
مشوقة لحدث استكشافي قام
به عالم الآثار الألماني كوفمن الفرانكفورتي
حين كان ينقب في موقع تاريخي يعود لبدايات العصر
المسيحي في مصر في شمال صحراء مصر الغربية غربي الإسكندرية.
اصطحب كوفمن معه مؤلف كتابنا هذا ابن عمه إيڤالد فالس
الذي لن نجد له دورا ملموسا في الكشف الأثري لكنه
سيروي لنا في المقابل القصة التي رافقت ذلك
الحدث."
تصميم: سلمى الورداني
salma.al.wardany@gmail.com